من روائع الأدب البرتغالي

كاميلو كاشتيلو برانكو

رواية

حب الضياع

مكتبة ٥٥٣

المركز الثقافي العربي

كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو

حب الضياع

الكتاب
حب الضياع
تأليف
كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو
ترجمة
سعيد بنعبد الواحد
الطبعة
الأولى، 2018
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-886-2
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: +212 522 305726
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: +961 1 343701
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
Camilo Castelo Branco
Amor de Perdição

مكتبة
t.me/t_pdf

كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو

حب الضياع

رواية

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

المركز الثقافي العربي

كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو

(البرتغال، 1825-1890)

ولد كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو سنة 1825، وعاش حياة مليئة بالأحداث والمغامرات الغرامية التي أوصلته إلى المحاكم وتسبَّبت له في متاعب شخصية واجتماعية، تفوق أحياناً مغامرات شخصيات رواياته. وهو ابن لأب نبيل وأم قروية، سرعان ما أصبح يتيماً. تزوّج في سن السادسة عشرة من جْواكينا بيريرا، لكنه انخرط في مغامرات غرامية أخرى، قادته واحدة منها إلى السجن. في سنة 1885 أصبح فيكونت كورِّيا بوتيلْيو، وصار يتلقى معاشاً من الحكومة، لكنه في الجزء الأخير من حياته عانى من المرض وتعرَّض للعمى، فلم يطِقْ هذه الحالة ووضَعَ حداً لحياته بطلقة رصاصة من مسدسه سنة 1890.

يعتبر كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو أول كاتب محترف في تاريخ الأدب البرتغالي الحديث، إذ كان يعيش من الكتابة، حيث مارس عدّة أجناس أدبية كالرواية، والقصة، والشعر، والمسرح، والصحافة،

والترجمة. ورغم انتمائه المعلن للتيار الرومانسي، فإنّ أسلوبه يتأرجح بين الغنائية الذاتية التي ميّزت الرومانسيين والسخرية اللاذعة ذات الحمولة الاجتماعية والسياسية التي طبعت أعمال كتّاب الواقعية والنزعة الطبيعية في القرن التاسع عشر. نُشرت روايته **حب الضياع** سنة 1861. وقد اعتبر الكاتب الإسباني ميغيل دي أونامونو (1864-1936) هذا المؤَلّف أكبر رواية حب في تاريخ الأدب الإيبيري.

من رأى مرة حياة حبّ غير غارقة في دموع
المصائب أو الندم؟

د. فْرانْسيشْكو مانْويلْ
(حكاية حب)

إلى صاحب المعالي السيد،
أنْطونْيو مارْيا دي فونْتيشْ دي ميلو.

الكاتب

تقديم

صاحب المعالي المحترم،

قد يظن الكثير من الناس أنكم لا تمنحون أي قيمة لهذا الكتاب، الذي أهديه إياكم امتناناً مني لكم. فالكثير من الناس يعتقدون أنّ الوزراء لا يقرؤون الروايات؛ وهذا خطأ. سمعت مرة أحد زملائكم يلقي خطاباً في البرلمان حول السكك الحديدية. وكان يخطب بكفاءة عالية، ويرصّع أقواله بأزهار البديع وورود البلاغة فوجدت متعة في الاستماع إليه. ومساء ذلك اليوم وجدت زميلكم يقرأ «فاني». نعم، فاني التي لا تعرف عن السكك الحديدية أكثر ممّا أعرفُ[1].

لدَيَّ اعتقاد شخصي وراسخ، سيدي الوزير، أنّ مكتبتكم تضمّ روايات بين رفوفها. وأظنّ أنّ ثمة روايات لم تقرؤوها، لأنكم لم

(1) إشارة إلى الرواية الإنجليزية **مذكرات امرأة متعة**، المعروفة بعنوانها المختصر **«فاني هيل»**. ألّفها جون كليلاند سنة 1748، وتعرضت للرقابة بسبب طابعها الإباحي. (المترجم)

تجدوا وقتاً لذلك، وأخرى لم تقرؤوها لأنها لا تستحقّ وقتاً. أرجو، معالي الوزير، أن تفسحوا لهذا الكتاب حيزاً ضمن الفئة الثانية من الروايات، لتقدِّموا بذلك الدليل على أنكم تتلقون هذا الكتاب وتقدّرونه لأنه يحمل اسم أكبر خدّامكم امتناناً لكم واحتراماً لمعاليكم.

سجن محكمة بورْتو،
يوم 24 سبتمبر من سنة 1861.

كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو

مقدمة

وأنا أبحثُ في سجلات سجن بورْتو، أتصفح لائحة مَن ولجوا هذه المؤسسة بين سنتي 1803 و1805، وقعت عيناي على الصفحة رقم 232، وقرأتُ ما يأتي:

«سيماوْ أنطونْيو بوتيلْيو، الذي كان يُدعى بهذا الاسم، أعزب وطالب بجامعة كُويمْبْرا، يتحدر من مدينة لشبونة، وكان يقيم بمدينة فيزيوْ حين أُلقي عليه القبض. يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة، وهو ابن السيد دومينْغوشْ جوزي كورّيا بوتيلْيو والسيدة ريتا بْريسْيوزا كالْديروأ كاشْتيلو بْرانْكو. قامة متوسطة، وجه مستدير، عينان كستنائيتان، شعر ولحية سوداوان. يرتدي سُترة زرقاء من ثوب الصوف، صدرية قطنية مزركشة وسروالاً من الثوب المنقط بالأبيض والأسود. وأنا من حررتُ سجله ووقعتُه. فيليب موريرْا دياشْ».

وعلى الهامش الأيسر من السجل كُتب:

سافر إلى الهند يوم 17 مارس من سنة 1807.

قد لا يكون من باب الثقة المفرطة بحساسية القارئ، إن ظننتُ أنّ نَفْي شاب في ربيعه الثامن عشر قد يصيبه بالأسى والحزن.

ثمانية عشر ربيعاً! فجر الحياة الذهبي وصبحها المشرق! قوة القلب الذي لم يعد يحلم بالثمار، ويتزكى بعطر الزهور! حب ذلك السن! الانتقال من حضن الأسرة، من صدر الأم، من قبلات الأخوات، إلى أعذب لمسات العذراء، التي تنفتح له وبجانبه مثل زهرة بالنضج نفسه، والعطر نفسه، والمحطة نفسها من العمر والحياة! ثمانية عشر ربيعاً!... وها قد نُفي بعيداً عن الوطن، عن الحب وعن الأسرة! لن يرى ثانية سماء البرتغال، ولا الحرية، ولا الأشِقّاء، ولا الأم. من دون اعتبار ولا حقوق، من دون كرامة، ومن دون أي صديق!... يا للأسى!

قد يتأثّر القارئ، لا محالة؛ أمّا القارئة فقد تبكي إنْ حكَينا لها في أقلّ من سطر واحد حكاية تلك الثمانية عشر ربيعاً!

لقد أحبَّ، وضاع ومات مُحبّاً.

وهذه حكايته. فهل تستطيع أن تُصغي إليها دون أن تذرف دموعاً المرأة، ذلك الكائن الذي خُلق بأرقّ الأحاسيس، والذي يجلب لنا معه أحياناً قبساً من العناية الإلهية؟ ألن تبكي يا عزيزتي القارئة، لو أخبروكِ أنّ الفتى المسكين فقدَ الشرف، والاعتبار، والوطن، والحرية، والأخوات، والأم، والحياة، وكلّ شيء، بسبب حبّ أول امرأة أيقظَهُ من سبات رغباته البريئة؟!

ستبكين، وستبكين! نعم، ستبكين لو عرفتُ كيف أنقل إليك تلك المشاعر التي أيقَظَتها بين جوانحي تلك الأسطر، التي بحثتُ عنها عن علم، وقرأتُها بمرارة ووقار، وحقدٍ في الوقت ذاته. حقد،

نعم. . . وحينئذٍ سترون إنْ كان الحقد شيئاً يُغتفر، أو أنه من الأفضل منذ الآن أن أتخلى عن سرد حكاية من ذلك النوع الذي لن أجني منه غير اشمئزازِ مَن يحكمون ببرودة على الأفئدة وعلى ما أُدوِّنُه هنا من أحكام ضدّ الفضيلة الزائفة لبني البشر، الذين صاروا وحوشاً، باسم الشرف.

1

مكتبة
t.me/t_pdf

دومينْغوشْ جوزي كورّيا بوتيلْيو دي ميشْكيتا إي منينزيشْ، نبيل السلالة، وواحد من أعرق نبلاء فيلا رِيالْ دو تْرازوشْمونتيشْ، كان سنة 1779 قاضياً في كاشْكايْشْ، حين تزوج من سيدة تنتمي إلى حاشية القصر الملكي، هي ريتا تيريزا مارْغاريدا بْريسيوزا دا فييغا كالديرواوْ كاشْتيلو بْرانْكو، ابنة أحد قادة الفروسية، وحفيدة قائد آخر هو أنْطونْيو دي أَزيفيدو كاشْتيلو بْرانْكو، الذي لم يكن متميزاً بمكانته الاجتماعية الراقية فحسب، بل معروفاً وقتها بكتاب قَيِّم ألّفهُ حول فن الحرب.

عشر سنوات من العشق الفاشل قضاها في لشبونة ابن الأقاليم الحاصل على شهادة عليا. وكي يحظى بحبّ السيدة الحسناء، ماريا الأولى، كانت تعُوزه المؤهلات الجسدية: كان دومينْغوشْ بوتيلْيو في غاية القبح. وليقدِّم نفسه لطلب يد البنت الصغرى كان تنقصه الثروة اللازمة: لم تكن ممتلكاته في منطقة دورو تتجاوز ما قيمته ثلاثين ألف ريال. ولم تكُن مؤهّلاته الفكرية بدورها تسعفه: ذكاء محدود جلبَ له بين زملاء الدرس في الجامعة لقب «بروكا» الذي ما زال

يُعرف به أبناء سلالته في فيلا رِيالْ، لأن هذا النعت مشتقّ من «بْرووا» أي «خبز الذرة». فقد كان الطلبة يظنّون أن خشونة زميلهم ترجع إلى ما كان يأكله من خبز الذرة في بلدته.

لكن لا بد أنّ دومينْغوشْ بوتيلْيو كان يتوفر على موهبة ما: كان زمّاراً بارعاً؛ وأول زمّار في زمانه؛ وبعزف الزّمار أعالَ نفسه مدة عامين في كُومْبْرا، حين توقف والده عن صرف النفقة الشهرية التي كان يرسلها إليه، لأن كلّ مداخيل الأسرة لم تكن كافية لتخليص ابن آخر من جريمة قتل ارتكبَها[1].

تخرَّج دومينْغوشْ بوتيلْيو سنة 1767، وذهب إلى لشبونة ليتدرب في المحكمة الملكية العليا، وهو تدريب عادي اعتاد على متابعته كلّ مَن يرغب في ولوج مهنة القضاء. وقد حظي فِرْناوْ بوتيلْيو، والد المتخرّج الجامعي، باستقبال حَفِيّ في لشبونة، وخاصة من لدن دوق أفييرو، الذي كان يقدِّره أيما تقدير، وكادَ ذلك أن يكلّفه الموت

---

(1) قبل عشرين عاماً حدثني واحد من أبناء جيلي عن واقعة جريمة القتل وحكايتها، كما يلي: حدث ذلك يوم خميس الآلام. كان مارْكوشْ بوتيلْيا، أخ دومينْغوشْ، في حفل بإينْدوينْساشْ، في سانْ فرانسيشْكو، يقابل امرأة هي عشيقته، وتخون زوجها. وفي مكان آخر من الكنيسة، كان يحدق في المرأة نفسها، ملازم من المشاة. كبتَ ماركوشْ غيرته حتى نهاية قداس الآلام. ولدى الخروج من الكنيسة، واجَهَ الجندي واستفزّه. استلّ الملازم سيفه، وأشهر النبيل سيفه القصير. واشتبك السيفان طويلاً دون لياقة، ولا إراقة دماء. تدخل أصدقاؤهما واستطاعوا أن يُهدئاهما، عندما قام لويشْ بوتيلْيا، وهو شقيق آخر لماركوشْ، بإفراغ نار بندقية على صدر الملازم، وهناك، عند مدخل شارع جوغو دا بولا، أرْداه قتيلاً. أُطلق سراح القاتل بعفو ملكي. (الكاتب)

خلال محاولة اغتيال الملك سنة 1758[1]. وغادر ابن الأقاليم غياهب سجن جونْكيرا نظيفاً من وصمة العار تلك، بل أصبح يحظى باحترام وتقدير كونت أوييراشْ لأنه شارك في المسابقة التي نظّمها هذا الأخير حول أفضلية نَسَبه على نَسَب آل بينْتوشْ كْويليوشْ وآل بونْجاردينْ من مدينة بورْتو: قضية سخيفة، رغم أنها كانت مدوّية، كان سببها أنّ نبيل مدينة بورْتو رفضَ طلب يد ابنته للزواج من ابن سيباشتياوْ جوزي كارْفاليو.

إنه لا علم لي بالطرق التي تمكَّن من خلالها الجامعي الزمّار من أن يحظى بتقدير الملكة ماريا الأولى والملك بيدْرو الثالث. يُحكى أنّ الرجل كان يُضحك الملكة بتهريجه وأحسن ما كانت تجود به عبقريته من حركات وإشارات. الأكيد أنّ دومينْغوشْ بوتيلْيو كان يتردّد على البلاط، ويتلقى من مال الملكة الخاص معاشاً محترماً جعل هذا المتطلّع لشغل منصب القاضي ينسى نفسه، والمستقبل، ووزير العدل الذي، بعد الكثير من الاستعطاف، وضع فيه ثقتَه وآمنَ بذكائه وعيَّنَه قاضياً في كاشْكايْشْ.

لقد قُلنا سابقاً أنه تجرّأ على التطلّع إلى الحب داخل البلاط، ليس بقرض الشعر كما كان يفعل لويشْ دي كامويْشْ أو بيرْنارْدين ريبيرو[2]، بل بالمناغاة نثراً على طريقة أهل بلدته، ليحظى بعطف

---

(1) قام بعض النبلاء من المعادين للقصر سنة 1758 بمحاولة اغتيال فاشلة ضد الملك دون جوزي الأول، وانتهت العملية بإعدام بعض المشاركين فيها وسجن آخرين. (المترجم)

(2) يعتبر لويشْ دي كامويْشْ وبيرْنارْدين ريبيرو من أشهر الكتّاب البرتغاليين في القرن السادس عشر. (المترجم)

الملكة وليُلين قلب السيدة. لا بد أنّ «طبيب الهزل» -كما كان يُعرف في البلاط- كان سعيداً، في نهاية الأمر، لأنّ الخلاف القائم بين الموهبة والسعادة ظلَّ مستمراً. تزوج دوميْنغوشْ بوتيلْيو السيدة ريتا بْريسْيوزا. كانت ريتا روعة في الجمال وكان بإمكانها أن تتفاخر بذلك حتى وهي في الخمسين من عمرها. ولم تكُن تملك صفَة أخرى غير هذه الصفة، باستثناء سلسلة من الأسلاف، بعضهم أساقفة، وبعضهم جنرالات، ومن بين هؤلاء ذلك الذي لقي حتفه مقليّاً في قِدر كبير لستُ أدري في أيّ مكان من أرض المسلمين، وهو مجدٌ حارقٌ بعض الشيء، في الحقيقة، لكن أهمية الحَدَث جعلت أحفاد الجنرال المقلي يحملون اسم «كالْديرويْشْ»[1].

لم تكن سيدة حاشية البلاط سعيدة مع زوجها. كان يقضّ مضجعها الحنين إلى البلاط، إلى فخامة الغرف الملكية والمغازلات التي تليق بذوقها ومقامها، والتي ضحَّت بها نزولاً عند رغبة صاحبة الجلالة وإرادتها. لكن متاعب هذه الحياة لم تمنَع الزوجين من إنجاب ولدين وثلاث بنات. كان الأكبر هو مانْويلْ، والثاني هو سيماوْ؛ أمّا البنات، فكانت أكبرهن هي ماريا، والثانية هي آنا، بينما كانت البنتُ الصغرى تحمل اسم أمها، وتتّسم ببعض الملامح من جمالها.

طلبَ القاضي الذي عُين في كاشْكايْشْ، مكان عمل أكبر أهمية وشأناً، فوجد نفسه في لشبونة حيث كان يُقيم بمقاطعة أَجُودَا سنة

---

(1) تعني كلمة «Caldeirão» في اللغة البرتغالية «القِدر»، لذا يحمل أحفاد الجنرال لقب القدر بصيغة الجمع «Caldeirões» أي «القُدُور». (المترجم)

1784. وفي تلك السنة ازدادَ سيماوْ، وهو ما قبل الأخير من أبنائه. وبما أنّ الحظ كان دوماً إلى جانبه، فقد تمكّن من أن ينتقل إلى فيلا رِيالْ، طموحُه الأسمى.

وعلى مسافة فرسخ من فيلا رِيالْ كان نبلاء المدينة ينتظرون ابن بلدتهم. كانت كلّ أسرة تملك عربة تحمل شعار نبالتها الخاص. وكانت عربة آل كورّياشْ دي ميشْكيتا هي أقدمها، وملابس خدَمَهم هي أكثر الملابس اتساخاً ورثاثة من بين كلّ مَن حضروا إلى الموكب.

حين لمحت السيدة ريتا موكب العربات، وضعَت المِقْراب الذهبي الكبير على عينها اليمنى، وقالت:

- ما هذا، يا مينيزيشْ؟

- إنهم أصدقاؤنا وأقاربنا جاؤوا لاستقبالنا.

- في أيّ قرن نحن هنا في هذا الجبل؟ ردّت سيدة البلاط.

- في أيّ قرن؟ إنه القرن الثامن عشر هنا كما في لشبونة.

- آه! صحيح؟ ظننتُ أنّ الزمن توقف هنا عند القرن الثاني عشر...

وظنَّ الزوج أنّ عليه أن يضحك لهذه المزحة التي لم ترقهُ.

خرج فِرْناوْ بوتيلْيو، والد القاضي، على رأس الموكب ليمدّ يده إلى زوجة ابنه، التي كانت تترجّل من عربتها، ليأخذها إلى عربة الأسرة. وقبل أن تنظر ريتا إلى وجه حماها فحصت بعينها المسلحة بالمِقْراب الإبزيم الحديدي والكيس الجلدي. ثم قالت بعد ذلك إنّ نبلاء فيلا رِيالْ أقلّ نظافة بكثير من فحّامي لشبونة. وقبل أن تلجَ عربة أجداد زوجها، سألت بجدية منافقة، إن لم يكن ثمة خطر في

ركوب تلك التحفة القديمة. فأكَّد فِرْناوْ بوتيلْيو لكَنّته أنّ العربة لا يتجاوز عمرها مائة عام، وأنّ البغال التي تجرّها لا يزيد سنها عن الثلاثين.

ونظراً إلى الطريقة المتكبِّرة التي استقبلت بها السيدة ريتا تحيات موكب النبلاء -من أقدم النبلاء المتحدّرين هناك من دون دينيشْ، مؤسس المدينة- فإنّ أصغر نبلاء الموكب، الذي كان على قيد الحياة قبل اثنَي عشر عاماً قال لي: «كنا نعرف أنها من سيدات حاشية صاحبة الجلالة ماريا الأولى؛ لكن نظراً إلى الخيلاء والعجرفة التي عامَلَتْنا بها ظننّا أنها هي الملكة نفسها». ودقّت أجراس المدينة، عندما أطلّ الموكب على كنيسة سيدة ألْمودينا؛ فقالت السيدة ريتا لزوجها إنّ الاستقبال بالأجراس هو أكثر أشكال الاستقبال صخباً وأقلّ أنواع الترحيب قيمة وشأناً.

ترجّلوا عند باب البيت العتيق لفِرْناوْ بوتيلْيو. فألقَت قهرمانة القصر نظرة على واجهة البناية، وقالت مع نفسها: «هذا مسكن جميل يليق بمَن ترعرع في قصور مافْرا وسينْترا، وفي بلاطات بيمْبوشتا وكيلوشْ...».

بعد مرور بضعة أيام أخبَرَت السيدة ريتا زوجها أنها خائفة من أن تلتهمها الفئران؛ وأن ذلك البيت عبارة عن مأوى للحيوانات المتوحشة؛ وأن سقفه يهدِّد بالانهيار، وأسواره لن تصمد أمام قوة الشتاء، كما أن الواجبات الزوجية لا تجبر على الموت برداً زوجةً ألفت نعيم القصر الملكي.

فأذعن دومينْغوشْ بوتيلْيو لشروط زوجته المذعورة وشرع في بناء قصرٍ صغير. لكن موارده المالية بالكاد كانت تغطي مصاريف

الأسس. راسَلَ الملكة وحصل على دعم سخيّ أكمَلَ به بناء البيت. وكانت الزخارف الحديدية التي تزين النوافذ آخر هبة أرسلتها أرملة الملك إلى وصيفة شرفها. وهو ما يبدو في رأينا دليلاً غير مسبوق على جنون السيدة ماريا الأولى.

وأمر دومينْغوشْ بوتيلْيو أن ينحتوا شعار النبالة في لشبونة؛ لكن السيدة ريتا أصرَّت على أن يضعوا في الدرع أيضاً شعار نبالة أسرتها، لكن الأوان فات لأنّ النحات كان قد سلّم العمل، وكان القاضي عاجزاً على أداء المصاريف مرة أخرى، ولا يريد أن يُغيظ والده المعتزّ بشعار نبالته. وهكذا ظلّ البيت من دون شعار نبالة وخرجت السيدة ريتا منتصرة كعادتها[1].

وكان للقاضي أقارب مميَّزون من بين سكان المدينة. فتواضعت عجرفة النبيلة أمام كبار المنطقة، أو كانت هي بالأحرى مَن رفعتهم إلى مستواها. وكان للسيدة ريتا حاشية من أبناء العمّ، بعضهم يكتفي بهذه الصفة، وبعضهم يحسد الزوج على حظّه. وما كان لأكثرهم جرأة أن ينظر في عينيها مباشرة إنْ هي وجّهت نحوه مقرابها الذهبي، في إشارة تفيض غطرسة وسخرية، حتى أنه لن نجازف إن قلنا إنّ مقراب ريتا بْريسْيوزا كان أكبر الحراس يقظة وسهراً على فضيلتها.

لكن السيد دومينْغوشْ بوتيلْيو لم يكُن يثق بنجاعة أهليته الخاصة ليملأ قلب زوجته بالكامل. كانت الغيرة تؤرقه؛ بيدَ أنه يكتم تنهّداته، خشية أن تشعر ريتا بالإهانة من الشك. ولم تكن أسباب الإهانة هي

---

(1) يوجد هذا البيت-القصر اليوم في حوزة الدكتور أنْطونيو جيراردو مونْتيرو. (الكاتب)

ما ينقصها، لأنّ حفيدة الجنرال المقلي في قدر المسلمين كانت تضحك من أبناء العم الذين كانوا، تودّداً لحبها، ينفشون شعرهم ويغطونه بالمساحيق في عناية لا تنمّ عن أية أناقة، ثم يمتطون جيادهم ويقودونها بصخب على الرصيف، وهم يتظاهرون بأنّ فرسان المنطقة يجهلون أناقة ماركيز مارْيالْفا في مجال سباق الخيل[1].

لكن القاضي لم يكن له الرأي نفسه، وكانت المرآة هي ما يحيِّر ذهنه ويكدِّر صفو باله. كان يجد نفسه دميماً بكلّ صدق، ويرى أنّ ريتا تزداد جمالاً كلّ يوم، كما يزداد ضجرها في حميمية عشرتهما. ولم يكُن يخطر على باله أيّ نموذج من التاريخ القديم لحبٍّ من دون مشاكل بين زوج مشوّه وزوجة حسناء. نموذج واحد ظلّ يعذب ذاكرته، وكان حكاية أسطورية، لأنه يعاكسه، وهو زواج فينوس وفُلكان. كان يتذكّر الشِّباك التي صنعها الحدَّاد الأعرج ليقبض على الآلهة التي تقترف الزنى، فيندهش لصبر ذلك الزوج. وكان يقول مع نفسه إنه حتى لو كشف النقاب على الخيانة، لن يُقدِّم شكواه إلى جوبيتر، ولن ينصب مصائد لأبناء العم. وعلاوة على البندقية التي قَتَلَ بها الملازمَ، كان ثمة صفّ من البنادق التي كان قاضينا فيها أكثر فقهاً من درايته **بالموجز في القانون وقانون نظام المملكة**.

واستمرَّت هذه المخاوف مدة ست سنوات أو أكثر. فطلب القاضي توسّط أصدقائه للحصول على انتقال، فكان له أكثر ما كان يطمح إليه: عُيِّن قاضياً للمظالم في لاميغو. تركت ريتا ذكريات في

---

(1) أرستقراطي برتغالي من القرن الثامن عشر. عُرف بمهارته في مجال الفروسية وترويض الخيل. (المترجم)

فيلا رِيالْ، وذكرى لا تُنسى عن عجرفتها، وجمالها ودعابة فكرها. كما ترك الزوج طرائف ما زال أهل البلدة يردِّدونها إلى اليوم. سأحكي اثنين منها فقط حتى لا أكون ثقيلاً. ذات مرة بعث إليه فلاح هدية عبارة عن عجلة، وأرسل مع العجلة البقرة أمها لتُرضِعَها في أثناء الرحلة. أمر دومينْغوشْ بوتيلْيو بوضع العِجلَة والبقرة في الحظيرة، وهو يقول إن مَن يهدي البنت يهدي معها الأم. وفي مناسبة أخرى، تلقى هدية عبارة عن حلوى وُضعت في صينية من الفضة. وزَّع القاضي الحلوى على الأطفال، وأمر بالاحتفاظ بالصينية، وهو يقول إنه من السخرية أن يستلم هدية من الحلوى، لا قيمة لها، وأن الحلوى، بالطبع، كانت تزيِّن الصينية. هكذا، وإلى يومنا هذا، كلما حدث شيء يشبه هذه الواقعة واحتفظ أحدهم بالإناء ومحتواه، يقول أهل فيلا رِيالْ «فلان مثل الدكتور بْروكاشْ».

لكن ما يُروى عن قاضي المظالم في لاميغو نادرٌ لذا لا أستطيع أن أحكي شيئاً عن تفاصيل حياته هناك. بالكاد أعرفُ أنّ ريتا كانت تكره تلك البلدة وتهدِّد زوجها بالذهاب رفقة أبنائها الخمسة إلى لشبونة، إنْ هو لم يغادر تلك الأرض التي لا تُطاق. ويبدو أنّ نبلاء لاميغو، المعتزّون على الدوام بعراقة تعود إلى إعلان ألماكافي، ازْدروا تبجُّح وصيف البلاط، وأخرَجوا بعض الفروع المتعفِّنة من شجرة آل بوتيلْيو كورّياشْ ميشْكيتا، ليلطّخوا سمعة الفروع المعافاة ويذكرون السنوات التي قضاها في كُويمْبْرا يعزف المزمار.

وفي سنة 1801، نجد دومينْغوشْ جوزي كورّيا بوتيلْيو دي ميشْكيتا قاضياً أول في مدينة فيزيوْ.

مانْويلْ، أكبر أبنائه، يبلغ اثنتين وعشرين سنة، ويدرس قانون بالسنة الثانية. أما سيماوْ، الذي يبلغ الخامسة عشرة، فيدرس الفلسفة والآداب الكلاسيكية بجامعة كُويمْبْرا. وكانت البنات الثلاث بهجة الأم وسعادتها.

وراسَل الابن البكر أباه يشتكي ويقول إنه لا يطيق العيش مع أخيه، لأنه يخشى مزاجه الميّال إلى الشجار وإراقة الدماء. ويحكي أنه في كلّ خطوة يرى حياته في خطر، لأنّ سيماوْ ينفق المال المخصّص لاقتناء الكتب في شراء المسدسات، ويُعاشر أشهر المشاغبين من الطلبة، ويتسكّع ليلاً يشتم السكان ويستفزهم لقتاله وهو يسخر منهم. لكن قاضي المدينة كان معجباً بشجاعة ابنه سيماوْ، ويقول لأمه المنزعجة إنّ الشاب صورة لوالد جده باوْلو بوتيلْيو كورّيا، أشجعُ ما أنجبته أرض تْرازوشْمونتيشْ.

ازداد خوف مانْويلْ من عنف سيماوْ، فغادر كُويمْبْرا قبل العطلة وذهب إلى فيزيوْ يشتكي إلى أبيه، ويطلب منه أن يبعثه إلى وِجهة أخرى. كانت السيدة ريتا تريد أن يصبح ابنها طالباً عسكريّاً. فغادر مانْويلْ بوتيلْيو مدينة فيزيوْ باتجاه بْراغانْسا وهناك قدَّم الأدلّة على أنه نبيل أباً عن جد ليصير طالباً عسكرياً.

أثناء ذلك يعود سيماوْ إلى فيزيوْ بعد أن أنهى كلّ الامتحانات الدراسية بنجاح. فيبدي الأب إعجابه بموهبة الابن ويغفر له مقابل ذلك ما صدر عنه من طيش. استفسره عن صعوبة معاشرته لأخيه مانْويلْ فقال إنّ أخاه يريد أن يجبره على اتّباع حياة الزهد.

وكانت سنوات عمر سيماوْ الخمس عشرة تبدو كأنها عشرون.

كان قوي البنية؛ رجلاً وسيماً يحمل ملامح أمه وبدانة جسمها؛ لكنه يختلف عنها طبعاً ومزاجاً. يختار أصدقاءه وخِلاّنه من عامّة أهل فيزيوْ. وإذا ما انتقدت السيدة ريتا اختياره، يسخر سيماوْ من الأنساب ولا سيما من الجنرال كالْديراوْ الذي لقي حتفه مقليّاً في قِدر. وكان ذلك كافياً ليجلب له بغضاء الأم. وبما أنّ قاضي المدينة كان ينظر إلى الأمور بعينَي زوجته، فقد شاطرها انزعاجها، وكراهيتها للابن. وكانت الأخوات تخشينه، باستثناء ريتا، أصغرهن، وهي التي كان يلعب معها لعباً طفولياً، ويطيعها، إن طلبته منه، بتدلُّل الطفلة، ألّا يعاشر العمال والصناع التقليديين.

كانت العطلة تشرف على نهايتها، عندما واجهَ قاضي المدينة مشكلة كبيرة. كان أحد خدامه قد أخذَ البغال لتشرب، وحدث، إمّا سهواً أو عن قصد، أن كسرت البغال بعض الجرار التي كانت موضوعة تنتظر دورها على حافة النافورة. تألّب أصحاب الجرار ضدّ الخادم وأوسعوه ضرباً. ومرّ لحظتها سيماوْ بالمكان، ورأى ما حدث، فاستلَّ عصا من إحدى العربات وهشَّم عدة رؤوس، وختم ذلك المشهد التراجيدي بمهزلة تكسير كلّ الجرار. فرَّ رعاع القوم مذعورين، لأنه لا أحد يجرؤ على مواجهة ابن قاضي المدينة. لكن الجرحى منهم نهضوا وذهبوا ليطرقوا باب بيت القاضي لينصفهم.

أزْبَد دوميْنْغوشْ بوتيلْيو وأرْغى ضدّ ابنه، وطلب من مأموره أن يعتقله تنفيذاً لأوامره. أما السيدة ريتا، التي لم تكن أقل غضباً، بل غاضبة كما تغضب كلّ الأمهات، فقد أرسلت إلى ابنها عبر عدّة وسائط، مالاً ليفرّ إلى كُويمْبْرا من دون محاكمة، وينتظر هناك حتى يغفر له أبوه.

وحين علم قاضي المدينة بتصرّف زوجته، تظاهر بالغضب، وتوعَّد بالقبض عليه في كُويمْبْرا. لكن، بما أن السيدة ريتا نعتته بالفظاظة في انتقامه، ووصفته بقاضي الفتيان الأبله، فإنّ القاضي تخلى عن قساوته المصطنعة، واعترف ضمنيّاً أنه قاضٍ فظّ وأبله.

2

حمل سيماوْ بوتيلْيو معه من فيزيوْ إلى كُويمبْرا قناعات متغطرسة عن شجاعته. يتذكّر الهزيمة التي كبّدها لثلاثين من السقائين والسقاءات، والصوت الأجوف لضربات العصا، حين كان هذا يسقط، وذلك ينهض، مضمّخاً بالدماء، والعصا تنزل ضربة واحدة على ثلاثة منهم، وتسقط على اثنين، والجميع يصرخ، وجلبة الجرار المتكسرة في النهاية. كان سيماوْ يستلذّ بتلك الذكريات، كما لم أرَ بعد أحداً يفعل ذلك في أيّ دراما، حيث يتذكّر المحارب المخضرم بعد مائة معركة أمجاد كلّ نصر، حتى تخذله قواه فيخار متعباً، في النهاية، من متابعة إدهاش المستمعين أو إضجارهم أحياناً.

لكن الطالب، بحماسه ذلك، كان دون وجه للمقارنة، أكثر أذى وخطراً من شخصية المُتبجّح في المسرح. وكانت تلك الذكريات حافزاً له على خوض ملاحم جديدة كانت الجامعة وقتها مكاناً مناسباً لإنجازها. وكان الطلبة الشبان، في معظمهم، يتعاطفون مع نظريات الحرية التي كانت في خطواتها الأولى؛ ويُقدِمون على ذلك بالحدس أكثر ممّا يفعلونه بالدراسة والتفكير. لم يتمكّن دعاة الثورة الفرنسية

من إسماع هزيم رعد ندائهم في هذا الركن من العالم؛ لكن مؤلفات المفكرين الموسوعيين، وهي المنابع التي شرب منها الجيل الموالي السُّم الذي دفق من دم ثورة 1793، لم تكن بالغريبة عنهم تماماً. وكان لنظريات التغيير الاجتماعي عن طريق المقصلة في البرتغال بعض الأتباع المحتشمين، ومعظمهم ينتمون إلى الجيل الجديد. وبالإضافة إلى البغض المستشري وسط الطبقة العاملة ضد إنجلترا، والرغبة في التحرّر من نير الذلّ الذي يفرضه الأجانب على البلاد، واللذين ازدادا خناقاً، من بداية القرن، بفضل حبال معاهدات الخراب والخيانة، كان العديد من البرتغاليين يفضلون التحالف مع فرنسا. كان هؤلاء ينتمون إلى طبقة المفكرين؛ لكن أتباع الجامعة كانوا يعبّرون أكثر عن ولعهم بالجديد أكثر من شغفهم بالنظريات الفكرية.

في السنة التي سبقت 1800، ذهب أنْطونْيو دي أراووجو دي أزيفيدو، وكونت بارْكا لاحقاً، ليتفاوض في مدريد وباريس حول حياد البرتغال. رفضت القوتان المتحالفتان عرضه، ولم تُؤخذ بعين الاعتبار في شيء السبعة عشر مليوناً التي قدّمها الدبلوماسي إلى القنصل الأول. وسرعان ما اجتاحت جيوش إسبانيا وفرنسا التراب البرتغالي. ولم تستطِع جيوشنا، بقيادة دوق لافويْشْ، من أن تصمد أمام هذه الحرب غير المتكافئة، لأن لويشْ بينْتو دي سوزا، وفيكونت بالْسيماوْ لاحقاً، كان قد تفاوض بطريقة مهينة في عقد معاهدة سلم باداخوزْ، بالتنازل لإسبانيا عن أوليفينْسا، والسماح الحصري للإنجليز باستعمال موانئنا، وتقديم بعض الملايين غرامة حربية لفرنسا.

وقد أثارت هذه الأحداث ضد نابليون حفيظة مَن كانوا يكرهون هذا المغامر، لكنها كانت بالنسبة إلى آخرين مناسَبة للسرور والفرح بفكّ الارتباط مع إنجلترا. وكان من بين المنحازين المتحمّسين لهذا الموقف، وسط جو الجامعة المتشنج والمضطرب، سيماوْ بوتيلْيو، رغم سنّه الذي لا يتجاوز الستة عشر ربيعاً ولحيته التي لم تجد بعد طريقها إلى ذقنه. كان ميرابو، ودانْتون، وروبيسْبيير، وديمولان، وآخرون من جلادي وشهداء المجزرة الكبرى، أسماء تتردّد رنّانة في أسماع سيماوْ. كان قَدْحهم في حضرته يعني مواجهته هو، وأن صفعات لا ريب فيها، ومسدسات سوف تُشهر في وجه مَن يقوم بذلك. كان ابن قاضي مدينة فيزيوْ يرى أنّ على البرتغال أن تُبعث من خلال تعميد بالدم، حتى لا يتمكن أُفعوان الطغاة من أن يرفع رأسا أخرى من رؤوسه الألف من تحت هراوة هِرَقْل الشعب.

وكانت تلك الخطب، التي تُحاكي خطب سان جوست اللاذعة، تُنفر من معاشرته حتى أولئك الذين صفقوا له حين تحدّث عن أكثر مبادئ الحرية عقلانية. وأصبح سيماوْ بوتيلْيو مكروهاً لدى زملائه في الدراسة، الذين أوشوا به إلى الكونت الأسقف وإلى رئيس الجامعة حتى ينأوا بأنفسهم عن سوء السمعة.

وذات يوم كان الطالب الديماغوجي في ساحة سانْساوْ يخطب في شرذمة ممّا تبقى له من المستمعين الذين ظلوا أوفياء له، بعضهم خوفاً منه، وبعضهم لأنهم يشاطرونه ميولاته. كانت الخطبة في أوجها وهو يتحدث عن اغتيال الملك حين جاءت فرقة من حراس الأمن الجامعي وأطفأت حماس الخطيب. أبدى الخطيب بعض المقاومة، بل إنه أشهر المسدّسات في وجههم، لكن السواعد القوية

لأفراد الحرس كانت على دراية بما يمثّله الموقف من تحدٍّ ومسؤولية. جَرَّدوا الثوري اليعقوبي من سلاحه، واقتادوه إلى السجن الجامعي، الذي غادره بعد ستة أشهر بإصرار من أصدقاء أبيه وأقرباء السيدة ريتا بْريسْيوزا.

وعاد سيماوْ إلى فيزيوْ بعد ضياع الموسم الجامعي. وأمرَه قاضي المدينة ألّا يحضر معه في أيّ مكان، وهدَّده بالطرد من البيت. أمّا الأم، التي كان يحرِّكها الواجب أكثر من الفؤاد، فقد توسَّطت له واستطاعت أن تُعيده إلى طاولة الأسرة.

وفي مدة ثلاثة أشهر حدث تغيّر عجيب في عادات سيماوْ وتصرّفاته. بدأ يزدري معاشرة رعاع القوم. لم يعُد يخرج من البيت إلّا لماماً، أو رفقة أخته الصغرى، المفضَّلة لديه. كان يجدُ عزاءه في الحقول، والأشجار، وفي أكثر الأماكن ظُلمة وقفراً. وفي ليالي الصيف الحلوة كان يتأخر كثيراً خارج البيت حتى بزوغ الفجر. وكان كلّ مَن يراه على تلك الحال يعجب لهيأة التدبّر والخلوة التي انتزعته من الحياة العادية. وفي البيت كان ينعزل في غرفته، ولا يبرحها إلّا عندما ينادون عليه للأكل.

اندهشَت السيدة ريتا لهذا التحوّل، أما الزوج، الذي كان مقتنعاً بالأمر، فقد سمحَ لابنه أن يتحدَّث معه بعد مرور خمسة أشهر.

كان سيماوْ بوتيلْيا يحب. وهذه الكلمة لوحدها تفسِّر كلّ ما كان يبدو تحوّلاً لا يصدَّق لدى شاب في السابعة عشرة من عمره.

كان سيماوْ يحبّ إحدى بنات الجيران، شابّة في الخامسة عشرة من عمرها، وريثة غنية، ذات جمال متوسّط ونَسب عريق. من نافذة غرفتها رآها لأول مرة، ليحبّها إلى الأبد. ولم يسلَم قلبُها من السهم

الذي جَرَح فؤاد جارها: عشقته بدورها، وبجدِّية غير مألوفة لدى الفتيات في سِنّها.

إننا نشعر بالضجر من الشعراء وهم يتحدّثون عن حبّ المرأة في سن الخامسة عشرة، كأنه عشقٌ محفوفٌ بالمخاطر، فريدٌ وثابت. وبعض كتاب النثر من الروائيين يذهبون في الاتجاه نفسه. وكِلا الفريقين مخطئ. حبّ الخامسة عشرة ضربٌ من لعب الأطفال؛ إنه آخر مظهر من مظاهر حبّ الدمى؛ إنه محاولة من العصفورة الصغيرة التي تجرِّب الطيران خارج العش، دائماً تحت نظرات العصفورة الأم القابعة في الغصن المجاوِر تناديها: فبقدرِ ما تعرف الأولى معنى الحب الكبير، بقدر ما تعرف الثانية معنى الطيران بعيداً.

لكن، ربما تكون تيريزا دي ألْبوكيرْكي استثناء في حبها.

كان والدا تيريزا يمقتان القاضي وأسرته، لأنّ دومينْغوشْ بوتيلْيو أصدرَ ضدّهما أحكاماً في بعض المنازعات المعروضة عليه. وبالإضافة إلى هذا، جُرح اثنان من خدم تادِيو دي ألْبوكيرْكي في حادث الضرب الشهير بالعصي في النافورة. ومن الواضح أنّ حبّ تيريزا، رغمَ ما يتطلّبه واجب الإذعان للأب والخضوع لغضبه المُبَرّر، كان حبّاً حقيقاً وقويّاً.

وكان هذا الحب سريّاً وحذراً بشكلٍ خاص. ظلّا يلتقيان ويتحدّثان لمدة ثلاثة أشهر، دون أن يُلفتا انتباه الجيران، ودون أن يُثيرا شكوك الأسرتين. وكانت الغاية التي تواعدا بها معاً من أنبل الغايات: سيكمل هو دراسته ليُعيلها، إنْ لم يجدا موارد أخرى؛ وستنتظر هي أن يتوفى أبوها، وحين ستصبح زوجتَه ستعطيه، بالإضافة إلى قلبها، إرثها الكبير. ويثير كل هذا الحذَر الإعجاب،

نظراً إلى طبيعة سيماوْ وجهل تيريزا المحتمَل بأمور الحياة المادية، كما هو الحال بالنسبة إلى مسألة الإرث.

وعشيَّة سفره إلى كُويمْبْرا كان سيماوْ يودِّع محبوبته المتلهفة، حين انتزعها أحدهم فجأة من النافذة. وسمع الشاب المهلوس أنين ذلك الصوت، الذي كان قبل لحظات ينتحِب متأثراً بدموع الفراق والحنين. غلى الدم في رأسه؛ وتلوى في غرفته مثل نمرٍ يضرب قضبان قفص حديدي لا يلين. فراودته نفسه بالانتحار، وهو عاجز عن إنقاذ حبيبته. وقضى ما تبقى من ساعات تلك الليلة في هيجان ومشاريع انتقام. ومع طلوع الفجر سكنَت فورة غضبه، وانبعثَ أمله مع عودة العقل والتفكير.

وحين نادوه للخروج إلى كُويمْبْرا، قفزَ من السرير في حالة غير لائقة، حتى أنّ أمه، حين انتبهت لملامح المرارة على وجهه، ذهبت إلى الغرفة لتسأله وتثنيه عن السفر ما دام على تلك الحالة من الانفعال. لكن سيماوْ، من بين آلاف المشاريع، لم يكُن يجد أحسَنَ من أن يذهب إلى كُويمْبْرا، وينتظر هناك أخبار تيريزا، ثم يأتي خِفية إلى فيزيوْ ليتحدَّث معها. وبحكمة فكَّر أنه لو تأخّر قد تزداد وضعية تيريزا صعوبة وتعقيداً.

نزل الطالب إلى الفناء، بعد أن عانق أمه وأخواته، وقَبَّل يد والده، الذي خصَّص لتلك المناسبة تحذيراً قاسياً، بل أكّد له أنه سيتخلى عنه نهائياً إن هو تمادى في حماقاته. وحين وضع رجله على الرِّكاب، رأى بجانبه متسوّلة عجوزاً، تمدّ إليه يدها المبسوطة، وفي كفّها ورقة صغيرة. ارتبكَ الشاب، وعلى بعد بضع خطوات من بيته، قرأ هذه السطور:

«يقول أبي إنه سيضعني في ديْر بسببك. سأعاني أيما معاناة بسبب حبك. لا تنسني وستجدني في الدير، أو في السماء، قلبي دائماً لك، وفيّة للعهد على الدوام. اذهب إلى كُويمْبْرا. هناك ستصلك رسائلي؛ وفي أول رسالة سأخبرك بالعنوان الذي ستَبعث إليه برسائلك إلى تيريزا المسكينة».

اندهش أهل الجامعة لِما طرأ على الطالب من تحوّل. لم يعُد أحد يراه خارج قاعات الدرس. ولم يتبقَّ من علاقاته القديمة إلّا بعض زملاء الدرس العقلاء الذين كانوا يسدُون له النصيحة، ويزورونه في السجن الذي قضى به مدة ستة أشهر، يزودونه بالمؤونة والموارد التي لم يكن يقدِّمها له والده، وكانت أمه بالكاد توفّرها. كان يدرس بحماس، كما لو أنه كان هناك يضع أسُس سمعته في المستقبل وصورة الوظيفة التي يستحقّها، والتي ستكفي لإعالة زوجته كما يليق بمقامها. ولم يكن يفضي بسرّه لأحد، ما عدا في الرسائل التي كان يبعث بها إلى تيريزا؛ رسائل مطوَّلة كان يُروِّح فيها عن عقله من متاعب الدراسة والتحصيل. وكانت الفتاة الولهانة تكتب إليه بكثرة، وتقول إنّ وعيد الدير كان مجرّد تهديد لم تعُد تخشاه، لأنّ أباها لا يستطيع العيش من دونها.

وزاده ذلك حماساً وحبّاً للدراسة والتحصيل. وأمام الأسئلة الصعبة لامتحانات مواد السنة الأولى، كان سيماوْ موفّقاً ولامعاً في أجوبته حتى أنّ الأساتذة وزملاء الدرس رشّحوه للفوز بالجائزة الأولى.

أثناء ذلك، حصل مانْويلْ بوتيلْيو، الطالب العسكري في

بْراغانْسا، والمعيَّن في بورْتو، على رخصة بدراسة الرياضيات في الجامعة. وشجَّعه على ذلك ما طرأ من تحوّل في تصرّفات أخيه. ذهب ليسكن معه، فوجده هادئاً، لكنه كان شارداً ومهووساً بفكرة تجعله يكره البشر، من جهة، وصعب المراس من جهة أخرى. ولم يعيشا معاً سوى لبعض الوقت، وكان سبب فراقهما أنّ مانْويلْ بوتيلْيو دخل في مغامرة حبّ شقيّ مع سيدة تتحدَّر من جزر الأزور ومتزوّجة بأحد الطلاب. وقد ضاعَت الزوجة المتيّمة وراء أوهام العاشق الولهان. هجرت الزوج وفرت مع عشيقها إلى لشبونة، ومن هناك إلى إسبانيا. وسأعود في مناسبة أخرى من هذه الرواية لأخبر بنهاية هذه الواقعة.

في شهر فبراير من سنة 1803، توصَّل سيماوْ بوتيلْيو برسالة من تيريزا. يعرضُ الفصل الموالي كلّ تفاصيل الحدث المفاجئ الذي اضطرّ ابنة تادِيو دي ألْبوكيرْكي إلى كتابة تلك الرسالة التي كانت مُفاجَأة مؤلِمَة للطالب، الذي اهتدى إلى الواجب، والشرف، والمجتمع، وإلى الله، عن طريق الحب.

3

ما كان لوالد تيريزا أن يُبدي اعتراضاً على أصالة نُبل قاضي المدينة لو أنّ اتفاقاً بين الابنين على الزواج كان ينسجمُ مع ما يكنّه الطرف الأول من كرهٍ وما يشعر به الطرف الثاني من ازدراء. فقد كان القاضي يسخر من حقد جاره، وكان الجار يُشير إلى سوء سمعة القاضي. وكان هذا الأخير يعرف الانتقام المهين الذي كان الجار حريصاً على أخذه؛ لكنه كان يتظاهر بأنّ التشهير لا ينال منه شيئاً؛ بيدَ أنّ سُخطه كان يزداد يوماً عن يوم. ولولا بعض الاعتبارات العائلية، فإنه ما كان ليصبر على ذلك كلّ هذا الصبر، ولَعَبَّر عن غضبه عبر فوهة مسدّس، ذلك السلاح المفضل لدى آل دومينْغوشْ كورّيا دي منيزيشْ. لقد كان تصالحهما أمراً مستحيلاً.

ذات مرة، كانت ريتا، البنت الصغرى، عند نافذة غرفة سيماوْ، ورأت الجارة ملتصقة بزجاج نافذتها وهي تسند رأسها إلى يديها. كانت تيريزا تعرف أنّ تلك الطفلة هي أعزّ شقيقات سيماوْ إلى قلبه، وأكثرهنّ شبهاً بملامحه. خرجت من لامبالاتها المصطنعة، وردَّت على نظرات ريتا بإيماءة من يدها وابتسامة من

شفتيها. ابتسمَت بنت قاضي المدينة بدورها، لكنها هربت بسرعة من النافذة، لأنّ أمها منعت البنات من تبادل النظرات مع أيّ شخص من ذلك البيت.

وفي اليوم الموالي، عند الساعة نفسها، وقد شجّعها لطف تلك الإيماءة الصديقة، عادت ريتا إلى النافذة، ومن هناك رأت تيريزا وهي تحدِّق في عينيها، كما لو أنها كانت تنتظر. ابتسمتا معاً بحذر، وابتعدتا في الوقت نفسه من حافة النافذة؛ وظلّتا معاً واقفتين داخل الغرفتين تنظران إلى بعضهما. ونظراً إلى ضيق الزقاق، فقد كان بإمكان كلّ واحدة أن تسمع الأخرى، وتتحدّث إليها بصوت منخفض. وبحركة من شفتيها أكثر ممّا صدر عنهما من كلمات، سألت تيريزا ريتا إنْ كانت صديقتها. فردَّت الطفلة بحركة تأكيد، ثم هربت، وهي تودّعها بإيماءة. وقد تكرَّرت لحظات اللقاء السريع هاته عدّة أيام متتالية، فزال الخوف بينهما، وتجرّأتا على أن تستمرّا طويلاً في حديثهما بصوت منخفض. كانت تيريزا تتحدّث عن سيماوْ، وتحكي للطفلة ذات الأحد عشر ربيعاً عن سرّ حبها، وتطلب منها ألّا تقول شيئاً لأسرتها رغم أنها أختُه.

وبينما هما تتحدّثان ذات مرة، لم تنتبه ريتا فرفعت صوتها وسمعتها إحدى أخواتها، التي سرعان ما ذهبت لتُخبر أباها. نادى عليها القاضي، وأجبرها بالتهديد أن تحكي كلّ ما سمعته من الجارة. وكان غضب القاضي قوياً حتى أنه لم يصغِ إلى ملاحظات زوجته التي جاءت إلى الغرفة حين سمعته يصيح، ورأت تيريزا وهي لا تزال عند النافذة.

- اسمعي، لا تسمحي لنفسك بالنظر إلى أيّ واحد من أفراد

أسرتي. وإن أردتِ الزواج فتزوجي بإسكافي، يليق أن يكون صهراً لوالدك.

لم تسمع تيريزا نهاية ذلك التوبيخ العنيف: هربت وقد أصابها الذهول والخجل. لكن، بما أن القاضي ظلّ يزبد ويُرغي في الغرفة، وبما أنّ تادِيو دي ألْبوكيرْكي خرج إلى النافذة، فقد تضاعف غضب القاضي، وسرعان ما ارتطم سيل شتائمه، التي طالما ظلّت مكبوتة، بوجه الجار، الذي لم يجرؤ على الرد.

سأل تادِيو ابنته، وظنّ أنّ سبب غضب دومينْغوشْ بوتيلْيو هو أن الطفلتين كانتا تتحدثان بكلّ براءة، بالإشارات المتبادَلَة، في أمورٍ تليق بسنّهما. غفرَ الأب العجوز لتيريزا براءتها، لكنه وبّخها وحذّرها من العودة إلى تلك النافذة.

كان النبيل عنيفاً وفظّاً بطبعه، وترجِع وداعته في هذه المناسبة إلى أنه كان ينوي أن يُزوِّج ابنته قريباً من ابن عمها بالْتازارْ كوتينْيو، دي كاشْتْرو دايْري وهو الابن البكر في أسرته، ويتمتّع بالنبالة وأصالة النسب. كان العجوز، الذي يدَّعي المعرفة بقلوب النساء، يظنّ أنّ اللطف ربما يكون أنجع وسيلة لحَمل ابنته على نسيان ذلك الحبّ الصبياني الذي تكنّه لسيماوْ. وكانت حكمته في ذلك أنّ الحب في سنّ الخامسة عشرة لا يتوفّر على ما يكفي من القوة ليتجاوَزَ غياب ستة أشهر. لم يكن تفكيره خاطئاً، لكنّ الخطأ كان مؤكّداً. وقد كانت الاستثناءات موضوعاً لسخرية أكبر العقلاء من المفكرين، سواء نظرياً أو على مستوى التجربة. فلا غروّ أن يخطئ تادِيو دي ألْبوكيرْكي في أمور الحبّ وقلوب النساء، التي تتعدّد تلويناتها وتتقلّب أطوارها حتى أنه لا يمكن لأيّ حكمة أن تكون لنا منارة

وسبيلاً، باستثناء هذه التي تقول: «في كلّ امرأة ثمة أربع نساء غامضات، تفكّرن بالتناوب كيف تُكَذِّب الواحدة منهن الأخرى». هذا من أكثر الأمور ثباتاً، لكن نجاحه ليس بالأكيد. وها هي تيريزا أمامنا، تبدو واحدة وغير قابِلَة للقسمة. يمكن القول إنّ الثلاثة اللواتي تتحدَّث عنهن الحكمة لا يمكنهن التعايش مع الرابعة في سنّ الخامسة عشرة. بدوري أظنّ ذلك، لأنّ ثبات ذلك الحب ودوامه، ينبني على أمور لا علاقة له بالقلب: تيريزا لا تعاشر الناس، ليُشيدوا بمميزاتها في الصالونات، لم تعرف رائحة عشاق آخرين، لم يسبق لها أن قارنَت صورة المحبوب، التي أفسدَها الغياب، بصورة المُحبّ، حب العيون التي تحدِّق فيها، وحبّ الكلمات التي تُقنعها أنّ هناك قلباً في كلّ رجل، وشباباً واحداً لكلّ امرأة. فمَن يضمن لي أنا أنّ تيريزا تحوي في ذاتها نساء الحكمة الأربع، إذا كانت رائحة أربع مباخر قادرة على أن تشوش فِكْرها؟ الأمر ليس بالهين، ولست مجبراً على اتخاذ قرار. ولنعُد إلى حكايتنا.

وبخصوص سيماوْ بوتيلْيو، لم ينطق تادِيو دي ألْبوكيرْكي قط أمام ابنته بأيّ كلمة، لا قبل غضب القاضي ولا بعده. لكنه نادى على ابن أخيه من كاشْتْرو دايْري من فيزيوْ، وأخبره بما ينوي القيام به، حتى يتصرّف أمام تيريزا كما يليق بعاشق حقيقي، ويُغرَما ببعضهما ويتواعدا بزواج سعيد ومستقبَل واعد.

وبقدر السرعة التي التهب بها قلب بالْتازارْ كوتينْيو عشقاً وصبابة، تجمَّد قلب تيريزا خوفاً واشمئزازاً. وقد عَزَا سيد كاشْتْرو دايْري برودة ابنة عمّه لتواضعها، وبراءتها وخَجَلها. واستلذَّ الحياء العذري لتلك الروح، وهو يستمتع مسبَقاً باستمالة قلبها بشكلٍ بطيء،

لكنه مضمون. والحقيقة أنّ بالْتازارْ لم يفهم كيف كان جواب تيريزا حاسماً، حين ألحَّ عليه العمّ، فتشجَّع الخطيب السعيد ليتحدث مع الفتاة الكئيبة:

- لقد حان الأوان لأفتحَ لكِ قلبي يا ابنة عمي. فهل أنتِ مستعدّة لتسمعيني؟

- إنني دائماً على استعداد لأستمع إليك، يا ابن عمي بالْتازارْ.

وقد زعزَعَت نبرة الاحتقار والضّجر المضمَرَة في هذا الجواب للحظةٍ كلّ قناعات النبيل بخصوص براءة ابنة عمه، وتواضُعها وخجَلها. ورغم ذلك، حاول لحظَتها أن يُقنِع نفسه أنه قد لا يمكن التعبير عن حُسن النية بطريقة أخرى، فتابع قوله:

- أظنّ أنّ قلبينا صارا مرتبطين؛ وحان الوقت لوثاق يربط عائلتينا.

امتقع وجه تيريزا، ثم خفَضَت عينيها.

- هل قلتُ لكِ شيئاً مزعجاً؟! تابع بالْتازارْ، وقد أربَكَه ما طرأ من تحوّل على ملامح تيريزا.

- إنك قد طلبتَ مني أن أقوم بشيء مستحيل -قالت دون ارتباك- إنّك مخطئ يا ابن عمي: إنّ قلبينا ليسا مرتبطين. أنا صديقتكَ فعلاً، لكني لم أفكّر قط في أن أكون زوجتك، ولا أظنّ أنك قد فكرت في شيء من هذا القبيل.

- هل يعني هذا أنك تكرهينني، يا ابنة العم؟ قاطعها النبيل غاضباً.

- لا، يا سيدي، لقد قلتُ لك إنني أقدِّركَ أيّما تقدير، ولهذا

السبب بالضبط لا يليق بي أن أكون زوجة لصديقٍ لا أستطيع أن أحبّه. لأنّ الشقاء لن يكون من حظّي أنا فحسب...

- حسناً... هل بإمكاني -ثم استدار وهو يرسم على وجهه ابتسامة زائفة- أن أعرفَ مَن ينافسني على قلبك يا ابنة العم؟

- وفي ما يُجديكَ أن تعرف؟

- على الأقل سأعرف أنّ ابنة عمي تحبّ رجلاً آخر... فهل هذا صحيح؟

- إنه كذلك.

- وهل بلغَ بك عشقُه أن تعصي أوامرَ أبيك؟

- إنني لا أعصي أوامره: القلب أقوى من خنوع إرادة فتاة. قد أعصي الأوامر لو أنني تزوّجت ضدّاً على إرادة أبي، لكنني لم أقُل لك إنني سأتزوج، بل كلّ ما قلتُه إنني أحب.

- هل تعرفين يا ابنة العم أنّ طريقة كلامك تُصيبني بالذهول!... مَن يظنّ أنّ ابنة الستة عشر ربيعاً تفيض كلمات!

- إنها ليست مجرد كلمات، يا ابن العم -ردّت تيريزا برصانة-، إنها أحاسيس تستحقّ تقديرك، لأنها حقيقية وصادقة. فهل سأحظى بتقديرك لو كذبتُ يا ابن العم؟

- كلا، يا ابنة عمي تيريزا: حسناً فعلتِ بقول الحقيقة، وبالحرص على قولها في كلّ شيء. فهل ما زلتِ متردِّدة في أنْ تُفصِحي لي عن هذا السعيد الذي نالَ حظوتكِ؟

- وفي ما يهمّك أن تعرف مَن يكون؟

- يهمني كثيراً، يا ابنة عمي: لكلّ واحد منّا خيلاؤه وغروره،

وسأكون سعيداً بهزيمتي أمام مَن اجتمعت فيه صفات لا أتوفّر عليها أنا في نظركِ. فهل تبُوحين لي بسرّك كما قد تبوحين به لابن عمك بالْتازارْ لو كنتِ تُعاملينه كصديق حميم؟

- إنه لم يعُد بإمكاني أن أعاملك بهذا الشكل... أجابته تيريزا، وهي تبتسم وتقفُ عند كلّ مقطع من الكلمات التي تقولها.

- إذاً، أنتِ لا ترغبين فيّ حتى صديقاً؟

- إنّك يا ابن عمي لن تغفر لي الصراحة التي حدَّثتك بها، وستكون عدوّي من الآن فصاعداً.

- على العكس من ذلك... -أجابَ بسخرية لم يُحسن إخفاءَها- على العكس من ذلك تماماً... سأثبتُ لكِ أنني صديقكِ لو رأيتك مرّة متزوجة بشخص بائسٍ لا يليق بك.

- متزوجة!... قاطَعَتْه. لكن بالْتازارْ قاطع ردّها بهذا الشكل:

- متزوّجة بسِكّير مشهور أو محبّ للمشاجرة، مُتنمِّر على السقّائين، وفارس متميّز، يمضي سنوات الدراسة معتقلاً في سجون كُويمْبْرا...

لقد كان بالْتازارْ كوتينْيو، بالطبع، على علمٍ بسرّ تيريزا، لأنّ العمّ أخبَرَه بطيش الفتاة، ربما قبل أن يقدِّمها لتكون له زوجة.

سمعَت تيريزا نبرة التهكّم في تلك الكلمات، فنهضَت لتُجيبه بكبرياء:

- أليسَ لديك من شيء آخر تقوله لي، يا ابن عمي بالْتازارْ؟

- لديّ، يا ابنة العم: هلا تفضَّلتِ وجلستِ لمزيدٍ من الوقت. لا تظنّي أنك تتحدّثين الآن مع العاشق التعيس: كوني على يقين أنك

تتحدّثين مع أقرب أقربائك، وأصدق أصدقائك، وأكثر حرّاسك عزماً على الذود عن كرامتكِ وشرفك. كنتُ أعرف أنّ ابنة عمي، وضدّ إرادة والدها الصريحة، تحدَّثت عدّة مرات مع ابن قاضي المدينة. لم أعِرْ الأمر اهتماماً، واعتبرتُه فعلاً من طيش الشباب. وبما أنني كنتُ أدرس في السنة الأخيرة بجامعة كْويمْبْرا، قبل سنتين، عرفتُ سيماوْ بوتيلْيو حقّ المعرفة. عندما رجعتُ، وأخبروني بتعلّقك بهذا الطالب، اندهشتُ لسذاجتكِ يا ابنة العمّة العزيزة؛ ثم أدركت بعد ذلك أنّ سذاجتكِ هذه ربما تكون هي مَلاكُك الحارس. الآن، وكصديقٍ لك، يؤلمني أن أراكِ وأنت لا تزالين منبهرةً بانحرافِ جاركِ وفساد أخلاقه. ألا تذكرين أنكِ قد رأيت سيماوْ بوتيلْيو يخالطُ أحقرَ الناس من أهل هذه الأرض؟! ألم تَرَي كيف هشَّم هذا المشاجر اللئيم رؤوسَ خدَمكم؟ ألا تعلمينَ أنه في كْويمْبْرا كان يمشي سكرانَ ومدجَّجاً بالسلاح مثل قطاع الطرق، يحضّ الأوغاد على الحرب ضدّ النبلاء والملوك، وضدّ ديانة أسلافنا؟ فهل تجهَل ابنة العمّ كلّ هذا؟

- كنتُ أجهل شيئاً من هذا، ولا تقلقني معرفته. منذ عرفتُ سيماوْ لا علمَ لي بأيّ إزعاجٍ تسبَّب فيه لأسرته، ولم أسمع أحداً يتحدّث عنه بالسوء.

- ولذلكَ فأنتِ مقتنعة بأنّ سيماوْ يدين لحُبّك بما طرَأ على تصرفاته من تحوُّل؟

- لستُ أدري، ولا أفكر في الأمر - ردَّت تيريزا بانزعاج.

- لا تغضبي، يا ابنة العم. هذا آخر ما سأقوله لك: سأعمَل ما

حييتُ على أن أنتشلكِ من مخالب سيماوْ بوتيلْيو. إنْ غابَ أبوك، كنتُ أنا مكانه. وإنْ لم يحمِكِ القانون من هجمات هذا الشيطان، سأُبيِّن لهذا المُتنمّر أنّ الانتصار على السقّائين لا يُعفيه من أن يُطرد ركْلاً من بيت عمي تادِيو دي ألْبوكيرْكي.

- أيّ إنكَ تريد أن تتحكّم فيَّ يا ابن العم؟ قاطَعَتْه بغضبٍ فظّ.

- أريد أن أوجِّهكِ ما دام عقلك بحاجة إلى مساعدة. كوني عاقِلة ولن أبالي بمصيرك. لن أزعجكِ ثانية، يا ابنة عمي تيريزا.

خرج بالْتازارْ كوتينْيو من هناك وذهبَ ليبحث عن عمّه وحكى له أهمّ ما دار بينهما في أثناء ذلك الحوار. انذهلَ تادِيو لجرأة ابنته فشعرَ بألمٍ في قلبه وبإهانةٍ لأُبوّته، فأسرع نحو غرفتها وهو مستعدّ ليُشبعها ضرباً. أوقفَه بالْتازارْ، وأوضحَ له أنّ العنف قد يزيد من تعقيد الأزمة، وربما يؤدّي إلى هروب تيريزا من البيت. كتمَ الأب غضبه وفكّر. وبعد بضع ساعات، نادى على ابنته، وأمرَها أن تجلس إلى جانبه، وبعبارات هادئة ومتّزنة، قالَ لها إنه يريد أن يزوِّجها من ابن عمها؛ رغم أنه يعلم أنّ نية ابنته لا توافقُ رغبَته وتطلّعاته. ثم أضافَ أنه لن يُجبرها على ذلك؛ لكنه لن يسمَح لها بأن تدُوس شرف أبيها، وتقدِّم قلبها لابن ألدّ أعدائه. وقالَ إنه على مشارِف الموت، وقد ينزلُ بسرعة أكبَر إلى قبره إنْ هوَ فقدَ حبّ ابنته، التي قد يَعتبرها في عداد الموتى. وفي الأخير، سأل تيريزا إنْ كانت تريد أن تَدخل إلى دير، وتنتظر هناك حتى يموت أبوها، ثم تعيش شقاءها كما يحلو لها.

أجابت تيريزا باكية إنها ستدخل إلى الدير إن كانت تلك هي إرادة أبيها؛ لكن شريطة ألّا يحرمها من صحبته، ولا من عطفه،

خوفاً من أن تُقدِمَ ابنته على فعلٍ مشين، أو أن تعصيه فيما تأمُرها به الفضيلة من طاعة وامتثال.

ووعَدَته أنها ستعتبر نفسها ميِّتة بالنسبة إلى كلّ الرجال، ما عدا بالنسبة إلى أبيها.

سمعَها تادِيو ولم يردّ على كلامها.

4

كان قلب تيريزا يكذب. وكيف لنا أن نطلب الصِّدق من القلب!

إنّ الحوار الذي جرى في الفصل السابق يحدِّد، بالنسبة إلى أولي الألباب، ملامح شخصية بنت تادِيو دي ألْبوكيرْكي. امرأة شجاعة، تمتاز بقوة الشخصية، والكبرياء المحصّن بالحب. تنأى بنفسها عن الانشغالات العادية، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بالتضحية بالإرادة الذاتية نزولاً عند رغبة والدها وتحقيقاً لنزواته. إنّ العقلاء من الناس لا يتّفقون مع هذا الأمر، وبدوري أثقُ فيما يقوله مثل هؤلاء العقلاء. قد لا يكون من الافتراء أن نَنسب إليها شيئاً من الدهاء، أو النفاق، إنْ شئتم؛ ولو أنه يُستحسن أن نتحدّث عن تبصّر. تستشعر تيريزا أنّ الاستقامة تتعثَّر في كلّ خطوة على طريق الحياة، وأنّ أحسن الأهداف تُدرَك بسُبلٍ لا مكان فيها للصراحة والصّدق. وهذه الحِيل غريبة لدى فتاة لا تجربة لها في سنّ تيريزا؛ لكنّ بطلة الرواية تكاد لا تكون عادية أبداً، وهذه التي أتحدّث عنها فيما أدوّنه من كلمات امرأة متميِّزة. ويكفيني لأؤمن بتميُّزها ما أحرزَتْهُ من شهرةٍ بسبب مآسيها.

يستنتج النُّقاد من الرسالة التي كتبتْها إلى سيماوْ بوتيلْيو، حيث تحكي المشاهد التي تصفُها، أنّ الفتاة تحاول أن تستمهلَ أباها، وعينُها على المستقبل، لا تريد أن تذُوق محنة الدير، ولا ترغبُ في أن تقطع الروابط مع العجوز في عصيانٍ علنيّ سافِرْ. وفي ما حَكتْه للطالب ضرَبتْ عن ذكر تهديدات ابن عمها بالْتازارْ، وهو الخبَر الذي إنْ وَصَلَه كان سينتزع من كُويمْبْرا انتزاعاً ذلك الشاب الذي يفيض حماساً واندفاعاً.

لكن، حتى الآن، لم تكن هذه هي الرسالة التي أدهَشَت سيماوْ بوتيلْيو.

كانت سماء تيريزا تبدو صافية وهادئة. لم يكُن أبوها يتحدّث عن الدير ولا عن الزواج. عاد بالْتازارْ كوتينْيو إلى بيت أجداده في كاشْتْرو دايْري. وكانت الفتاة المطمئنة تبعثُ أسبوعياً بتلك الأخبار السارّة إلى سيماوْ، الذي كان يضمّ سعادة القلب إلى غنى العقل، فيدرس دون انقطاع، ويسهر الليالي يبني صرحَ مجده في المستقبل.

وعند بزوغ فجر يوم الأحد من شهر يونيو سنة 1803، نادوا على تيريزا لترافق والدها إلى القداس الأول في الكنيسة. ارتدت الفتاة ملابسها خائفة، ووجدَت أباها ينتظرها في قاعة الانتظار. استقبلَها بسرور، وسألها إن كانت قد استيقظَت وهي على استعداد لتُكمل فرحة أبيها فيما تبقى من أيام حياته. وكان في صمت تيريزا أكثر من سؤال.

- اليوم ستُقدِّمين يدكِ زوجةً لابن عمك بالْتازارْ، يا ابنتي. لا بدّ أنْ تنساقي بكلّ ثقة وراء أبيك. وبعد هذه الخطوة، سترين أنّ سعادتك هي من ذلك النوع الذي يُفرَض بالعنف. لكن، لا تنسي، يا

عزيزتي، أنّ عنف الأب هو دائماً حب. فقد كان حبّاً ما حظيتِ به مني من تنازلٍ ولطف. وأيّ شخص آخر كان سيردّ على عصيانك بالمعاملة السيئة، وقسوة الدير، وربما بتبذير ثروتك ومالك. أمّا أنا، فلم أفعل ذلك. انتظرْتُ حتى ينير الوقت عقلكِ، وأهنئ نفسي لأنني أراكِ قد تحرَّرت من السحر الشيطاني لذلك الوغد الذي أيقظَ قلبك البريء. ولم أستشِر معك ثانية حول هذا الزواج، خوفاً من أن يسيء التفكير إلى حماس الفتاة الطيبة فيك، تلك التي تريد أن تعانق والدها، وتشكره عن الحكمة التي احترمَ بها طبعها، وهو يتطلّع إلى الساعة التي يجدُها فيها جديرة بحبّه.

ظلّت عيْنا تيريزا تحدّقان في أبيها. لكنها، كانت شاردة لدرجة أنها بالكاد سمعَت أولى كلماته، ولم تسمع شيئاً من كلماته الأخيرة.

- ألا تجيبينني يا تيريزا؟ - قال تادِيو وهو يشدّ على يديها بحنان.

- بما سأجيبك يا أبي؟ - قالت متمتمة.

- هل تعطينني ما أطلب منك؟ هل تملئين قلبي سعادة لما تبقى من أيام في حياتي؟

- وهل ستكون يا أبي سعيداً بتضحيتي؟

- لا تقولي تضحية، يا تيريزا... غداً، في مثل هذه الساعة سترين التغيير الذي طرأ على روحك. إنّ كل الفضائل قد اجتمعت في ابن عمك؛ ولا تنقصه صفة من صفات الشاب المهذب، كما لو أنّ الغنى، والعلم، والفضيلة لا تكفي لتصنع زوجاً رائعاً.

- وهل ما زال يرغب فيّ بعد أن رفضتُ طلبه؟ - قالت بمرارة ساخرة.

- لو كان مغرماً بك، يا ابنتي!... ولديه ثقة كاملة في نفسه ويظنّ أنك ستحبينه كثيراً!...

- وليس من الأرجح أن أكرهه إلى الأبد!؟ إنني أكرهه الآن كما لم أفكّر قط أنني سأكره شخصاً ما! يا أبي... -تابعت وهي تبكي، وترفع يديها- اقتلني، لكن لا تُجبرني على الزواج من ابن عمي! العنف لا يجدي، لأنني لن أتزوج!...

تغيّرت ملامح تادِيو، وقال ساخطاً:

- ستتزوجين! أريدك أن تتزوجي! إنني أريد ذلك!... وإلّا سألعنك إلى الأبد، يا تيريزا! ستموتين في دير! وسيؤول هذا المنزل إلى ابن عمك! ولن يطأ أيّ خسيس سجادات أسلافي. إن كنتِ روحاً وضيعة، فأنا براء منك، لستِ ابنتي، ولن ترِثي ألقابي الشريفة التي نالت السبّ والشتم من والد ذلك الحقير الذي تحبّينه! اللعنة عليكِ! ادخلي إلى تلك الغرفة، وانتظري حتى يأخذوكِ إلى غرفة أخرى، لن ترَي منها ولو شعاعاً من نور الشمس.

نهضَت تيريزا دون أن تذرف دمعة، ودخلت بوقار إلى غرفتها.

ذهب تادِيو دي ألْبوكيرْكي ليرى ابن أخيه، وقال له:

- لا يمكنني أن أزوِّجك ابنتي، لأنه لم تعُد لي أيّ بنت. فالبئيسة التي منحتُها اسمي، ضاعت منّا وأضاعت نفسها.

وكان بالْتازارْ، الذي اجتمعت فيه كلّ الخصال في نظر عمّه، يعاني من عيب واحد: افتقادٌ مطلقٌ للشجاعة. بعد فشل محاولته هذه في الحب، التي يمكن اعتبارها كميناً، عاد ابن عم تيريزا إلى موطنه، وهو يقول للعجوز إنه سيحرِّر قلب ابنته من الحصار الذي ضرَبَه عليه سيماوْ بوتيلْيو. لم يوافق على حَبسها في الدير، وهو

يعرض ما قد يختلقه الناس من افتراضات مشينة. نصحَه أن يتركها في البيت، وأن ينتظر عودة ابن قاضي المدينة من كْويمْبْرا.

حُجَج بالْتازارْ هي التي كانت راجحة في همَّة العجوز وقراراته. اندهشت تيريزا للهدوء المفاجئ لأبيها وأثار هذا التناقض ريبتها. كتبت إلى سيماوْ. لم تخفِ عنه أي شيء؛ ولم تحذف حتى تهديدات بالْتازارْ مراعاة لشعوره. وختمت رسالتها تبلِغه أنّ خطة عنف جديدة تلوح في الأفق.

وحين وصل الطالب إلى المقطع الذي يتحدّث عن التهديد، لم يعُد يرى بوضوح ليقرأ بقية الرسالة. تدفّق الدم يغلي في رأسه، وأخذت أصداغه تخفق بعنف. لم يكن ذلك من تأثُّر قلبه الولهان، بل من طبيعة كبريائه الذي يجعل الدم يغلي في ذاته. عليه أن يذهب للتو إلى كاشْتْرو دايْري ويطعن ابن عم تيريزا في قلب بيته، تلك كانت أول نصيحة همسَ بها إليه غضب الحقد. وبهذه النيّة خرج، اكترى فرساً، وعادَ إلى البيت ليرتدي ملابسَ السفر. وبعد أن صار مستعدّاً، ظلّ ينتظر الفرس بلهفة، وهو يتطلّع إلى الطريق في كلّ لحظة. تأخّر الفرس نصف ساعة، ظهر خلالها ملاكه الطيب وهو يرتدي ملابس أنيقة كما كان هو يرى ملابس تيريزا في خياله، فأيقظَ فيه الحنين إلى ذلك الزمن وساعات ذلك اليوم حين كان يحلم بالسعادة والحبّ الموعود، إنْ هو سارَ على درب العمل والشرف. تأمّل كتبه بكلّ حنان، كما لو أنّ كلّ واحد منها يحوي صفحة من حكاية قلبه. لم يقرأ أيّ صفحة من صفحاتها دون أن تظهر له صورة تيريزا لتقوي عزيمته على تحمّل ضجر الكدّ الدؤوب وتجاوز اندفاع طبعٍ قلق يميل إلى العواطف الغريبة. «ويتنهي كلّ شيء بهذا الشكل؟

-كان يفكّر ورأسه بين يديه، متّكئاً على طاولة عمله- قبل لحظة كنتُ في غاية السعادة! . . . سعيداً! -ردَّد وهو ينهض فجأة- مَن ذا الذي يستطيع أن يكون سعيداً وتهديد عار بلا عقاب يتربّص به؟! لكني سأفقدها! لن أراها مرة أخرى. . . سأهرب مثل مجرم، وسيكون أبي أوّل أعدائي، وهي أيضاً سترتعب من انتقامي. . . هي الوحيدة التي سمعت التهديد، ولو أنّ شتائم ذلك الحقير كانت ستحطّ من شأني في عيون تيريزا لما حدَّثتني عنها. . .».

قرأ سيماوْ بوتيلْيو الرسالة مرّتين، وفي المرة الثالثة وجَدَ تبجّح ذلك النبيل الغيور أقلّ إهانة ممّا كان يظنّ. وكانت الأسطر الأخيرة تُفنّد بصورة تامة أيّ شكلٍ من الإهانة التي كان يؤرقه بها كبرياؤه. كانت عبارات رقيقة، استعطافاً لحبّه جزاءً لما مضى ولما سيأتي من كرب، تطلّعات جميلة للمستقبل، وعوداً متجدّدة بالثبات والصبر وعبارات حنين صادقة.

حين طرق البَغّالُ باب بيته، لم يعُد سيماوْ بوتيلْيو يفكّر في قتل نبيل كاشْتْرو دايْري؛ لكنه قرَّر أن يذهب إلى فيزيوْ، ويدخلها ليلاً ليرى تيريزا خلسة. بَيدَ أنه كان بحاجة إلى بيت ثقة يختبئ فيه، لأنّ أمره قد ينفضح بسرعة في الفنادق الصغيرة. سألَ البغّال إن كان يعرف في فيزيوْ أيّ بيت يمكنه أن يختبئ فيه ليلة أو ليلتين، دون الخوف من أن ينفضح أمره. فأجابه البغّال أن لديه ابن عم بيْطار يسكن على بُعد ربع فرسخ من فيزيوْ؛ وأنه لا يعرف في فيزيوْ غير أصحاب الفنادق. رأى سيماوْ أنّ قريب الرجل يمكن أن يكون مفيداً له، ثم سرعان ما أهداه سترة جلدية وشريطاً حريرياً أحمر، ووعدَه بمزيد من المكافآت إنْ هو ساعده في مغامرته الغرامية.

في اليوم الموالي وصلَ الطالب إلى بيت البيطار. وأخبر البغّالُ قريبَه بما اتفق عليه مع الطالب.

استُقبل سيماوْ بعناية في بيت البيطار، وفي ذلك اليوم بالضبط خرج البغّال متجهاً نحو فيزيوْ، يحمل رسالة موجَّهة إلى متسوّلة تسكن في أصعب زقاق بالمدينة. سألت المتسولة بشكل دقيقٍ عن صاحب الرسالة ثم خرجت لتطلب من المبعوث أن ينتظر. وبعد فترة عادت تحمل جواباً، ثم انطلق البغّال على عجل.

وكان الجواب صيحة فرح. لم تفكّر تيريزا، وهي تردّ على رسالة سيماوْ، أنه سيُقام حفل بمناسبة عيد ميلادها، وأنّ كلّ الأقارب سليتئمون في البيت. فقط أخبرَته أنها ستنزل إلى الحديقة عند الساعة الحادية عشرة بالضبط لتفتح له الباب.

لم يكُن الطالب ينتظر أكثر من هذا. كان يريد فقط أن يحدِّثها من الشارع وهي في نافذة غرفتها، وكان يخشى ألّا يحظى بهذه المتعة، التي كان يعتبرها أقصى ما يتطلّع إليه. أمّا أن يشدّ على يدها، ويشتمّ رائحتها، وربما يعانقها، ويجرؤ على اختطاف قبلة من قبلاتها، فتلك آمال كانت بعيدة عن طموحاته المتواضعة وتطلّعاته النبيلة؛ وتبعث فيه الحماس والخوف. والخوف والحماس في قلوب المبتدئين في الكوميديا الإنسانية مشاعرَ تتشابه وتتشابك.

وحين حلَّت ساعة الخروج، كان سيماوْ يرتعش، ويستفسر عن سببِ خجله، من دون أن يعلَم أنّ سحر الحياة، وأسمى ساعات الروح، هي لحظات اهتياج يمرّ بها أصحاب القلوب المرهَفَة في كلّ مناسبات الحياة، ويجرّبها كل الناس، مرة واحدة على الأقل.

وعلى الساعة الحادية عشرة بالضبط كان سيماوْ متكئاً على باب

الحديقة، وعلى مسافة ملائمة كان يقف البغّال يشدّ لجام الفرس في يده. أثارت انتباهَ سيماوْ نغماتُ الموسيقى المنبعثة من القاعات البعيدة، لأنّ الحفل المُقام في منزل تادِيو دي ألْبوكيرْكي فاجَأه. ولمدة ثلاث سنوات طويلة لم يسبق له أبداً أن سمع موسيقى في ذلك البيت... لو كان يعرف تاريخ ميلاد تيريزا لما اندهشَ كلّ تلك الدهشة للفرح المخيّم في تلك القاعات المغلقة على الدوام كأنها في حداد. وتضاربت في مخيلة سيماوْ كلّ أوهام العشق، سوداء تارة، وشفافة تارة أخرى. فلا حدود عقلية للأوهام الجميلة، ولا للأوهام النبيلة حين تكون من إبداع الحب. وهو يضع مسامعه لصيقة بثقب القفل، كان سيماوْ بالكاد يسمع أنغام الناي وخفقات قلبه القوية.

5

كان بالْتازارْ كوتينْيو في القاعة وهو يتظاهر بلامبالاته تجاه ابنة عمه. ولم تكن أخوات النبيل، وباقي الأقارب يتركون تيريزا لحظة لوحدها. كانت الشابات منهن والعجائز يتردّدن عليها تباعاً، وينصَحْنَها بأن تتصالح مع ابن عمها، وأن تمنَح أباها ذلك الفرح الذي طالما كان العجوز يسأل الله أن يهبه قبل أن يغمض عينيه إلى الأبد. وكانتْ تيريزا تردّ بأنها لا تريد شرّاً لابن عمها، بل إنها لا تضمر له أيّ حقد؛ وأنها صديقته، وستبقى كذلك، ما دام هو يترك قلبها حراً طليقاً.

كان العجوز يعقد آمالاً كبيرة على تلك الحفلة. فقد نصحَه بعض الأقارب، ممّن يدَّعون الفطنة والتبصّر، أنه من الأفضل أن يغدق على الفتاة بمُتع الحياة التي توافق سنّها، حتى يمنحها الفرصة لتسلّي عن نفسها، التي ظلّت منحصرة في أمرٍ واحد، من خلال مختلف أنواع التسلية والبهرجة، وستخبو قوة ذلك الحب المُعاكَس. نصحوه بأن يُكثر من اللقاءات، سواء في بيته، أو في بيوت الأقارب، حتى تظهر بذلك تيريزا ويعرفها عددٌ كبير من الناس، ويطلبوا ودّها، فتغيّر رأيها

وتقديرها للرجل الوحيد الذي تتحدّث إليه، والذي تظنّ أنه يفوق كلّ الرجال. قَبِلَ النبيل النصيحة، لكن بصعوبة. فقد كان له معياره الخاص في الحُكم على النساء، بعد أن قضى ثلاثين سنة من حياته في الفجور والتبذير، وأصبَح اليوم يستمتع بلذّة الادّخار والهدوء. وكانت تلك أول مرة تُقام فيه حفلة صاخبة بمناسبة عيد ميلاد تيريزا. حينئذٍ رأت الشابة النبيلة رقصة المينوي الخاصة بالقصور، وبعض مجموعات الملابس التي جرَت العادة وقتها على ارتدائها بين الفينة والأخرى، دون إرهاقٍ للجسد، ولا إهانة للأخلاق.

لكن الارتباك الذي كانت تشعر به تيريزا ظلَّ يمنعها من الاستمتاع بانشراح ضيوفها. منذ أن دقَّت الساعة العاشرة تلك الليلة، كانت ملكة ذلك الحفل تبدو غير مباليةٍ تماماً بالإطراء الذي كانت السيدات والنبلاء يتنافسون في توجيهه إليها، فلاحظ بالْتازارْ كوتينْيو قلقَ ابنة عمه، وظنَّ متواضعاً أنها شعرت بالإهانة من عدم اكتراثه بها. ثم فاضَ سخاءُ سيد كاشْتْرو دايْري، فجعل تعبيراً وقوراً وحزيناً يعلو وجهه، ثم توجَّه نحو تيريزا، واستسمَحَها لما صدر عنه من برودة قالَ إنها مثل برودة البراكين التي تغلي الحمم في باطنها وتغطي الثلوج قممها. أجابت تيريزا بصدقٍ أنها لم تنتبه لبرودة ابن عمّها ونادَت على شابة لتقفَ إلى جانبها، حتى تتجنّب، من دون شك، أن ينفلق الجبل ويثور البركان. وسرعان ما نهضَت وغادرت القاعة.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلّا ربعاً. جرت تيريزا نحو عمق الحديقة، وفتحت الباب، وبما أنها لم ترَ أحداً عادت بسرعة إلى القاعة. لكن، حين كانت تصعد الأدراج بين الحديقة

والبيت، جاء بالْتازارْ كوتينْيو، الذي كان يراقبها منذ أن غادرت القاعة، ووقفَ عند إحدى النوافذ المطلَّة على الحديقة، دون أن يخطر على باله أنه قد يراها. انسحب من مكانه، ودخل رفقة تيريزا إلى القاعة، في اللحظة نفسها، عبر باب آخر. بعد مرور بضعة دقائق، خرجَت الشابّة مرة أخرى، وقام ابن العم بالأمر نفسه. سمعت تيريزا، بعيداً، خطوات فرس، حين مرّت قرب عتبة الأدراج. وسمع بالْتازارْ بدوره تلك الخطوات، ولاحظَ أنّ ابنة عمه، وهي تخشى أن ينكشف أمرها نظراً إلى بياض لباسها، كانت ترتدي شالاً يغطيها بالكامل. تراجَع نبيل كاشْتْرو دايْري خطوة إلى الوراء حتى لا يراه أحد. لكن تيريزا، بنظرة خاطفة، رأت ظلّاً ينسحب متراجعاً. شعرت بالخوف، فتراجَعَت لتضع الشال وتدخل إلى القاعة، لاهثة من التعب وشاحبة من الخوف.

- ماذا بكِ، يا ابنتي العزيزة؟ قال الأب - لقد خرجتِ من القاعة مرتين وها أنت تعودين إليها مضطربة! فهل ثمّة أمرٌ يزعجك، يا تيريزا؟

- أشعرُ بألم، وأريد أن أذهب من حين إلى آخر لأتنفس هواء... لا شيء، يا أبي.

صدَّقها تادِيو، وأخبرَ الجميع أنّ ابنته تشعر بألم؛ ولم يخبِر ابن العم بذلك، لأنه لم يجده، وعَلِمَ أنه قد خَرج.

بدورها انتبهت تيريزا إلى غياب ابن العم، فتظاهرت بأنها تبحث عنه، وهو الأمر الذي لقي استحساناً كبيراً من الرجل العجوز. نزلت إلى الحديقة، جَرَت مهرولة نحو الباب الذي كان سيماوْ ينتظر قربه، ففتحته، وبصوت متقطع من القلق والتأثر، بالكاد قالت:

- اذهب حالاً، وعُدْ غداً في الساعة نفسها... اذهب، اذهب!

حين سمع سيماوْ ذلك، كان يحدّق في ظلّ كان يقترب منه، بمحاذاة سور الحديقة. وقام البغّال، الذي كان هو مَن رآه أولاً، بإشارة وأرخى لجام الفرس بين بعض الحجارة، حتى يتركه حراً طليقاً، في حالة ما إذا لم ينتبه الطالب إلى عَدُوّه.

لم يبرح سيماوْ بوتيلْيو مكانه، فوقف بالْتازارْ على بُعد ستّ خطوات منه. وكان البغّال قد تقدَّم نصف المسافة نحو سيده، حين أمره هذا الأخير ألّا يقترب. ثم توجَّه نحو الظلّ، ورفع مسدسين، وقال:

- لا يمكن المرور من هذا الطريق. ماذا تريد؟

لم يُجبه النبيل.

- أظنّ أنني سأفتح ثقبا فمك برصاصة! ردّ سيماوْ.

- ماذا يهمك مَن أكون؟ -قال بالْتازارْ- لو كان لي سرّ، كما لكَ يا سيدي من أسرار كثيرة في هذا المكان، فهل أنا مجبَرٌ على البوح به إليك؟

فكر سيماوْ، وردّ قائلاً:

- هذا السور جزء من بيتٍ في ملك أسرة واحدة، وتسكُنه امرأة واحدة.

- هناك هذه الليلة أكثر من أربعين امرأة في هذا البيت -أجابَه ابن عم تيريزا- إن كنتَ تنتظر امرأة، فأنا أيضاً أنتظر أخرى.

- ومَن تكون أنت، يا سيدي؟ - ردّ ابن قاضي المدينة بعَجرفة.

- إنني لا أعرف الشخص الذي يسألني، ولا أرغب في معرفته. وليحتفِظْ كلّ منّا بسرّه. مساء الخير.

وتراجع بالْتازارْ كوتينْيو، وهو يقول مع نفسه: - ماذا ينفع سيف واحد مع رجُلين ومسدسين؟

امتطى سيماوْ بوتيلْيو صهوة جواده، وقصدَ بيت البيطار المضياف.

دخلَ ابن أخ تادِيو دي ألْبوكيرْكي إلى القاعة دون أن تَشي ملامحه بأيّ تغيير في نفسه. رأى تيريزا التي كانت تنظر إليه خلسة، واستطاعَ أن يخفي عنها ما كان به حتى عادت إلى هدوئها. رأت الفتاة المسكينة، التي كانت تتوْق لتخلو بنفسها، بسرورٍ كيف نهضَت أوّل أسرة لتغادر البيت، وهو ما أعطى الإشارة لأسرٍ أخريات كي يغادرن، إلّا أسرة كاشْتْرو دايْري وأخواته، الذين ظلّوا ضيوفاً في بيت العم، وهم ينوون قضاء ثمانية أيام في فيزيوْ.

قضَت تيريزا بقية الليلة ساهرة، تكتب إلى سيماوْ القصة الطويلة لمخاوِفها، وتطلب منه أن يسامحها لأنها لم تُخبره بالحفلة الراقصة، لأنّ خبر قدومه جعَلَها تجنّ فرَحاً. أمّا بخصوص لقائهما في الليلة الموالية فلم تأتِ الرسالة على ذكر أيّ تغيير، وهو ما أثار استغراب الطالب. في نظره، كان الظلّ هو ظلّ بالْتازارْ كوتينْيو وربما يكون والد تيريزا قد أُخبِر بالأمر تلك الليلة.

ردّ عليها وأخبرها بحادث الرجل الملثّم؛ وهو يخشى، مع ذلك، أن يُصيب تيريزا بالهلَع ويُحرَم من لقائها. فكتب رسالة أخرى، لا يُستشفّ منها أنه خائف من أيّ هجوم، ولا يخشى أيّ مجازفة بسمعتها. وكان ذلك، في رأيه، أحسن تصرّف يليق بعاشق شجاع.

وقضى الطالب بقية ذلك اليوم يعدُّ الساعات الطوال، ويتأمّل

للحظات في العواقب الوخيمة التي قد تنتج عن ذلك السفر المتهوّر، لو تأكّد أنّ بالْتازارْ كوتينْيو هو ذلك الرجل الملثّم، الذي أرجأ إلى فرصة مواتية رغبته في الانتقام من ذلك الاستفزاز الوقح. بَيْدَ أنه، في قرارة نفسه، كان يظنّ أن ذلك كان جُبْناً أكثر منه احترازاً.

كان للبيطار بنت شابة تبلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة. قدٌّ جميل، ووجهٌ وسيم يعلوه الحزن. لاحظَ سيماوْ أنها كثير ما كانت تحدِّق فيه بعينيها وتُطيل في تأمّله، فسألَها عن سببِ تلك النظرة الكئيبة. علَت وجه مارْيانا حمرة الخجل، وارتسمَت على شفتيها ابتسامة حزينة، وقالت:

- لستُ أدري ما يخبرني به قلبي بشأنك يا سيدي. لكن مصيبة على وشك أن تحلّ بك...

- إنك لا تقولين هذا -أجاب سيماوْ- من دون أن تعرفي شيئاً سابقاً عن حياتي.

- أعرف شيئاً ما عن حياتك... - أجابته.

- هل سمعتِ ما قاله البغّال؟

- لا، يا سيدي. أبي هو مَن يعرفكَ. وقبل قليل سمعتُ أبي يقول لعمي، ذلك البغّال الذي جاء رفقتك، إنّ لديه أدلّة تجعله يعرف أنّ مصيبة ما على وشك أن تحلّ بك...

- لماذا؟

- بسبب حبّ امرأة نبيلة من فيزيوْ، لها ابن عم في كاشْتْرو دايْري.

اندهش سيماوْ لذيوع سرّه، وكان يتهيّأ لجمع تفاصيل أكثر عمّا

كان يعتبره سرّاً بيت العائلتين، عندما دخل البيطار جْواوْ كْروشْ إلى الغرفة حيث جرى الحوار السابق. وما أن سمعَت الشابة خطوات أبيها حتى غادرت الغرفة بسرعة عبر الباب الآخر.

- إن سمحتَ - قال جْواوْ.

وهو يقول ذلك، أغلقَ كلا البابين من الداخل، وجلسَ فوق صندوقٍ كبير.

- حسناً، سيدي النبيل -تابع، وهو يُنزل كُمَّي قميصه المُشمّرتين، ويشدّهما بصعوبة إلى معصَميه الغليظين، كمَن يعرف حقّ المعرفة لياقة الأكمام- أستسمحك إن جئتُ لا أرتدي غير هذا القميص، لأنني لم أجد السُّترة.

- لا عليك، سيد جْواوْ - قاطَعَه الطالب.

- حسناً، يا سيدي، إنني أدين لأبيك بفضلٍ عليّ، وهو فضلٌ عظيم. ذات مرة وقعت فوضى عند باب بيتي، بسبب ركلة وجَّهها بغل يملكه أحد المُكَارين إلى فَرسٍ كنتُ أُنعلها، وكانت ضربة قوية كسرت ساقها إلى هذا الحدّ.

أشار جْواوْ إلى ساقه وإلى النقطة التي تعرَّضت فيها الفرس إلى الكسر، ثم تابع قائلاً:

- كنتُ أحمل المطرقة في يدي، ودون أن أتحكّم في نفسي نزلتُ على البغل بضربة في رأسه فأرديته طريحاً على الأرض. وقامَ مكاري كارْساوْ، الذي كان مُتنمِّراً، بأخذ مسدس، كان يحمله مع أمتعته، ودون سابق إنذار، رماني بالرصاص. «أيها اللعين -قلتُ له- ألم ترَ أنّ بغلك شوَّه هذه الفرس، التي كلّفت صاحبها عشرين

قطعة من النقود الذهبية[1]، عليّ أن أدفعها له، وأنت تطلق عليّ الرصاص لأنني ضربت بغلك فأُصيب بدوار؟!»

- وهل أصابتك الطلقة؟ - قاطَعَه سيماوْ.

- نعم أصابتني. لكن، لا تظنّ حضرتك، أنها قتلني. أصابتني رصاصتان هنا في ساعدي الأيسر. فذهبتُ إلى البيت، عند رأس سريري، وجلبتُ بندقية وجَّهتها إليه مِلأ صدره. فسقط المُكاري مثل زرزور، دون أن ينبس ببنت شفة. ألقوا عليّ القبض، وأخذوني إلى فيزيوْ حيث كنتُ قبل ثلاث سنوات، عندما حلَّ بها والدك قاضياً، يا سيدي. كان الكثير من الناس ضدّي، وكلهم يقولون لي إنني سأموت معلَّقاً في المشنقة. وكان معي في الحبس سجين يقضي عقوبته وأخبرني أنّ السيد قاضي المدينة مُخلصٌ في وَرَعه وتقواه إلى سيدة الآلام السبعة. وذات مرة، كان يمرّ مع أسرته في طريقه إلى القُداس، فقلت له: «سيدي قاضي المدينة، أتوسّل إليك، بحقّ صاحبة الآلام السبعة، سيدتنا العذارء المقدّسة، أن تستدعيني أمام حضرتك لأشرح لك سبب اعتقالي». فنادى أبوك على المأمور القضائي، وطلبَ منه أن يسجِّل اسمي. في اليوم التالي، مَثُلْتُ أمام السيد قاضي المدينة، وحكيتُ له كلّ شيء، بل وأرَيتُه أيضاً آثارَ الجراح على ذراعي. استمعَ لي أبوك، وقال لي: «اذهب الآن، وسأرى ما في وسعي القيام به». والحال أنني، سيدي النبيل، خرجتُ بريئاً ممّا نُسِبَ إليّ، بينما كان العديد من الناس يقولون إنني

---

(1) كانت العملة السائدة آنذاك في البرتغال هي الريال، والقطعة الذهبية الواحدة منه تساوي 8000 ريال. (المترجم)

سأُعدَم شنقاً. فهل تظنّ أنه ليس من واجبي أن أقبِّل الأرض التي يطأها أبوك بقدميه؟

- إنّ لديك، سيد جْواوْ، سبباً وجيهاً لتكون ممتنّاً له، ما في ذلك من شكّ.

- والآن، اسمع بقية الحكاية. قبل أن أكون بيطاراً، كنت أشتغل خادماً في بيت نبيل كاشْتْرو دايْري، الذي هو السيد بالْتازارْ. هل تعرفه، يا سيدي؟ حسناً، أظنّ أنك تعرفه!...

- أعرفُه بالاسم.

- هو مَن أسلفني عشر قطع ذهبية لأنشىء محلّ البيطرة؛ لكني أدَّيتها له، بفَضل الله.

قبل ستة أشهر تقريباً استدعاني إلى فيزيوْ، وأخبَرَني أنه سيقدِّم لي ثلاثين قطعة ذهبية، لو أسديتُ إليه خدمة. «ما الذي تريده، يا سيدي النبيل». فقال لي إنه يريدني أن أقتل رجلاً. فشعرتُ برجّة تهزّ دواخلي، لأنّ مَن يقتل رجلاً في ورطة، ليس، في الحقيقة، قاتلاً محترفاً، أظنّ. أليس كذلك؟

- هذا أكيد... أجابه سيماوْ، وهو يتكهّن بنهاية الحكاية. - ومَن هو الرجل الذي كان يريد أن يصفيه؟

- كان هو أنت، يا سيدي... يا إلهي! -قال البيطار مندهشاً- إنّ لون وجهكَ لم يتغيّر حتى!

- إنّ لون وجهي لا يتغيَّر أبداً، سيد جْواوْ - قال الطالب.

- هذا أمرٌ مدهش!

- وأظنّ أنك لم تقبَل هذه المهمة، بحسب ما أرى - قال سيماوْ.

- لا، يا سيدي. ما أنْ أطلَعَني على ذلك حتى شعرتُ برغبة في أن أحطِّم رأسه على الطريق.

- وهل أخبركَ بالسبب الذي دفعه أن يأمركَ بقتلي؟

- لا، يا سيدي النبيل، سترى. في الأسبوع الموالي، عندما علمتُ أنّ السيد بالْتازارْ (ليذهب إلى الجحيم!) قد غادر فيزيوْ، ذهبتُ لأتحدّث مع السيد قاضي المدينة، وحكيتُ له عن كلّ شيء. ظلَّ السيد قاضي المدينة يفكِّر لحظة، ثم قال لي، واعذُرني إن قلتُ لكَ ما قاله لي أبوك حرفيّاً.

- تفضَّل يا رجل، قُلْ.

- بدأ أبوك يحكّ أنفه، ثم قال لي: «أعرف الأمر. ولو أنّ ذلك الوغد سيماوْ ابني كان لديه شرف، لما نظرَ إلى وجه ابنة عمّ هذا المجرم. يظنّ السافل أنني سأقبَل أن يرتبط ابني بابنة تادِيو دي ألْبوكيرْكي!...». ثم قال لي أشياء أخرى لا أذكُرها؛ لكني خرجتُ وأنا على علم بكلّ شيء. وهذا كلّ ما حدَث. والآن أنت قد حضرتَ إلى هنا، يا سيدي، وبالأمس ذهبتَ إلى فيزيوْ. اعذُرني عن الثقة، لكني ظننتُ أنك ذهبتَ لترى تلك الفتاة، وكنتُ أرغب في أن ألحَق بك؛ لكن، بما أنك كنتَ رفقة صهري، الذي يعادِل ثلاثة رجال، فقد بقيتُ مطمئناً. وقد حكى لي عن لقائك بالشابة عند باب الحديقة. إذا عدتَ إلى هناك، يا سيدي، فاذهَب وأنتَ مستعدّ لما هو أسوأ. أعرف أنّك لست جباناً، يا سيدي، لكن لا أحد ينجو من خيانة محتَمَلَة. إن أردتَ أن أذهبَ معك، فأنا رَهن إشارتكَ؛ وتلك البندقية التي وجَّهتُها إلى المُكاري لا تزال هناك، وهي تقتل في أقلّ من رمشة عين، كما يُقال. لكن، إن كنتَ تسمح بأنْ أدْلي لك

برأيي، يا سيدي، من الأفضل ألّا تزجّ بنفسك في هذه الورطة. إنْ كنتَ تريد الزواج بها، فاذهَب واطلُب إذنَ أبيك، واترُك ما بقي على حسابي؛ وإن هي عبَّرت عن موافَقتها، سأحملُها في رمشة عين فوق صهوة مُهر سريع، أملِكه هناك، وأترك الأب وابن العم تحتَ صدمة خيبة كبيرة.

- شكراً لك، يا صديقي -قال سيماوْ.- سوف ألجأ إلى خدماتك إنْ كانَ ذلك ضرورياً. هذ الليلة، سأذهب إلى فيزيوْ كما ذهبتُ ليلة أمس. لو استجدّ أمر، سنرى ما يجب القيام به. إنني أعوِّل عليك، واعتبرني صديقاً لك.

لم يردّ جْواوْ دا كْروشْ على ذلك. ومن هناكَ ذهبَ لتفقّد حالة البندقَية، ويتّفق مع صهره على ما يجب اتخاذه من احتياطات، بينما كان يفرِّغ شحنة البندقية، ثم يُعيد شَحْنها برصاص خاصّ، كان يسميه «لوز المتنمِّرين».

في أثناء ذلك، دخلت مارْيانا، بنت البيطار، إلى الغرفة، وقالت بغُنج إلى السيد سيماوْ بوتيلْيو:

- هل أنتَ عازم على الذهاب، يا سيدي؟

- سأذهب، لماذا لن أقوم بذلك؟

- فلتذهَب في رعاية سيدتنا العذراء - ردّت عليه، وهي تخرج لتخبّئ دموعاً في عينيها.

6

عند الساعة العاشرة والنصف من ذلك اليوم، قَدِمَ ثلاثة أشباح من جهات مختلفة والتقوا في الزقاق المقفر المؤدّي إلى باب حديقة تادِيو دي ألْبوكيرْكي. وهناك توقّفوا بضعة دقائق يتحدّثون ويعبِّرون بحركات كثيرة من أيديهم. ومن بين الأشباح الثلاثة كان واحدٌ تُسمع كلماته في صمت ومن دون ردّ من الآخرين. وكان يقول لواحد من الآخريْن:

- لا ينبغي أن تظلّ قرب الباب. لو ظهَرَ الرجل ميتاً هنا، فإنّ الشكوك ستحوم حولي أو حولَ عمّي. ابتعِدا من بعضكما وأصخّا السمع لوقع خطوات الفرس. بعد ذلك، أسرِعا الخطى حتى تجدانه، كي يُطلَق الرصاص بعيداً عن هذا المكان.

- لكن... -قاطَعَه واحد منهما- مَن يقول لنا إنه إنْ كانَ جاء بالأمس على متن الفرس لن يحلّ اليوم مشياً على الأقدام؟

- هذا صحيح! - أضافَ الآخر.

- إنْ جاء مشياً على الأقدام، سأخْطِرُكما كي تتعقّباه وتطلقا

عليه الرصاص حين تكونان في وضعية مناسبة، لكن بعيداً عن هذا المكان، هل فهمتما؟ - قال بالْتازارْ كوتينْيو.

- نعم، يا سيدي؛ لكن ماذا لو غادرَ بيت والده، ثم دخل من دون أن يُمهلنا وقتاً؟

- أنا على يقين أنه ليس في بيت والده، لقد قلتُ لكما هذا. كفى ثرثرة. اذهبا واختبئا خلف الكنيسة، ولا تغفَلا.

تفرَّقت الجماعة، وظلّ بالْتازارْ متَّكئاً على السور لبضع لحظات. دقّ جرس الكنيسة مشيراً إلى الحادية عشرة إلّا ربعاً. وضعَ نبيل كاشْتْرو دايْري أذنه على الباب، ثم تراجع مسرعاً، عندما سمع خشخشة الأعشاب اليابسة لتي كانت تدوسها تيريزا.

ما إنْ اختفى بالْتازارْ، الذي كان ملتصقاً بالسور، حتى ظهرَ شبحٌ آخر في الجهة الأخرى، وتقدَّمَ بسرعة. لم يقِفْ، بل توجَّه مباشرة نحو ظلّ قد يكون رجلاً. طافَ حول الكنيسة التي كانت على بُعد مائتي خطوة. رأى الشبحين اللذين كانا يقفان في زاوية المصلى الأكبر، ويغطيهما ظلّ البرج. حدَّق فيهما شزراً، فانتابَه الشكّ؛ لم يكن يعرفهما، لكنهما قالا فيما بينهما، بعد أن اختفى:

- إنه جْواوْ دا كْروشْ، البيطار. ليَذهب إلى الجحيم!...

- ماذا يفعل هنا في مثل هذه الساعة؟!

- مَن أدراني أنا!

- ألا تظنّ أنه متورّط في هذا الأمر؟

- آه! ربما جاء ليُساعدنا. هل تعلم أنه كان يشتغل خادماً في بيت السيد؟

- عجباً! وأقامَ محلّه بالمال الذي أعطاه السيد بالْتازارْ.

- إذاً، لماذا أنت خائف؟

- لستُ خائفاً، ولكني أعرف أيضاً أنّ قاضي المدينة هو مَن أنقذَه من حبل المشنقة...

- إنه لا يفعل مثل هذه الأمور، ولا تهمّه، بل إنه لا يعلَم أنّ ابنه يوجد هنا...

- هذا ممكن... لكن الأمر لا يروق لي... جْواوْ رجلٌ فظيع...

- لا يهم... الرصاص قد يخترق جسمه مثل أيّ إنسان آخر...

واستمرَّ الحديث حول عدّة احتمالات أخرى. ومن كلِّ ما دار بينهما من كلام، كان اليقين الواحد أنّ الشبح هو جْواوْ دا كْروشْ، البيطار.

وكان جْواوْ قد قطَعَ ثلاثمائة خطوة عندما سمع خادما بالْتازارْ وَقْع خطوات الخيل بعيداً.

وفي الوقت الذي كانا يغادران مخبَأهما، تقدَّم جْواوْ دا كْروشْ أمام الفارس. هيأ سيماوْ المُسدّسيْن، وأعدَّ البغّالُ بندقيته.

- ليس هناك من مستجدّات -قال البيطار-، لكن عليك أن تعرف، يا سيدي، أنه كان من الممكن أن أكون الآن قد سقطتُ من فوق فرسي وأربع رصاصات في صدري.

تعرَّف البيطار على صهره، وقال:

- جْواوْ، أهذا أنت؟

- نعم، أنا جْواوْ. وصلتُ قبلك.

مدّ سيماوْ يده إلى البيطار، وقال بتأثّر:

- أعطني يدك؛ أريد أن ألمسَ بيدي يدَ رجلٍ نزيهٍ.

- في الشدائد يُعرف الرجال -أجابه البيطار- والآن، هيا بنا... لا وقت للكلام. هناك مَن هم في انتظاركَ، يا سيدي.

- في انتظاري؟ - قال سيماوْ.

- هناك خلف الكنيسة رجلان لم أتعرّفهما، لكني أكاد أقسم أنهما خادمان من خدم السيد بالْتازارْ. ترجّل يا سيدي، فالأمر يُنذِرُ بمعركة وشيكة. طلبتُ منك ألّا تأتي، يا سيدي، لكنكَ أتيت، والآن يجب أن نُواجه الأمر، دون النظر إلى الوراء.

- اسمع، إنني لا أعرف ما هو الخوف، سيد جْواوْ - قال ابن قاضي المدينة.

- أعرفُ ذلك، لكن العدو ليس بعيداً.

كان سيماوْ قد ترجّل. أمسَك جْواوْ زمام الفرس، تراجَعَ بضع خطوات في الزقاق، وذهب ليشدّه إلى حلقة في سور أحد الفنادق.

عادَ وطلب من سيماوْ أن يتبعه هو وصهره على مسافة عشرين خطوة، وإن رآهما يتوقّفان قرب حديقة ألْبوكيرْكي، فعليه ألّا يتقدم وألّا يتجاوز النقطة التي رآهما فيها.

أراد الطالب أن يحتجّ على خطّة تهينه وتجعله تحت حماية الرجلين، لكن البيطار لم يقبَل احتجاجه.

- قُمْ بما آمركَ به، أيها النبيل - قال جْواوْ بحَزم.

وهما يراقبان كلّ أركان الزقاق، وصَلَ جْواوْ دا كْروشْ وصهره أمام حديقة تيريزا، ولمحا شبحاً يختفي عند زاوية السور.

- لنهاجمهما الآن -قال البيطار- فقد انتقلا إلى فناء الكنيسة،

وبينما نقوم نحن بذلك، سيصل السيد سيماوْ إلى باب الحديقة ويدخل، ثم نعود بعد ذلك وننتظر خروجه.

ولهذا الغرض تحرَّكا بسرعة، ومشى سيماوْ يحمل مسدسيْنِ باتجاه الباب.

أمام سور الحديقة كانت هناك طريق مغطّاة بالحصى، تؤدّي إلى ممرٍّ مظلمٍ تحفّه أشجار الحور.

حين توقف وقْع خطى الفرس، تذكَّر خادما بالْتازارْ أوامر السيد، في حالة ما إذا جاء سيماوْ ماشياً. بَحَثا عن مكانٍ مناسب ليراقبا خروجه، ثم ولَجا الممرّ المظلم، عندما كان الطالب يصلُ إلى باب الحديقة.

- ها قد أصبَح بين أيدينا - قال أحدهما.

- إن لم يمكُث بالداخل - أجابه الآخر، وهو يراه يدخل ويغلق الباب من ورائه.

- لكن، ألا ترى أن هناك رجلان قادمان؟... - قال أكثرهما خوفاً، وهو ينظر إلى المدخل الآخر للممرّ المحفوف بأشجار الحور.

- إنهما يتّجهان نحونا... هيّئ بندقيتك.

- من الأفضل أن ننسحِب. إننا في انتظار الآخر، ولسنا في انتظار هذين الرجلين. لنغادر هذا المكان...

ولم ينتظر هذا الأخير ليُقنع زميله حتى نزل عبر المنحدر المغطى بالحصى. لكن أكثرهما شجاعة فكَّر بالاحتراز المعهود لدى القتلة المأجورين. تَبِعَ خطى زميله الجبان، وأيّد رأيه، حين سمع

خلفه الخطوات السريعة لمن يلاحقانهما. فخرج سيّدهما ليقف أمامهما عندما كانا يتجاوزان زاوية الحديقة، وقال لهما:

- وأنتما ممّا تهربان، أيها الجبانان؟

توقف الرجلان خجلاً، وهيآ المسدسين.

ظهر جْواوْ دا كْروشْ والبغّال، ثم تقدّم بالْتازارْ نحوهما، وهو يصيح:

- توقّفا!

فقال البيطار لصهره:

- تحدَّث معه أنت، لأنني لا أريده أن يعرفني.

- مَن ذا الذي يأمرنا بالتوقف؟ - قال البغّال.

- إنها ثلاث بنادق - أجابه بالْتازارْ.

- حاوِل أن تلهيهم بعض الوقت ريثما يخرج النبيل - قال جْواوْ دا كْروشْ هامساً في أذن البغّال.

- أريد أن أعرف ما الذي تفعلونه هنا في هذا المكان.

- وأنتم ما الذي تفعلونه هنا؟

- إنني لا أقبَل الأسئلة -قال سيد كاشْتْرو دايْري، وهو يجازف بخطوات متردِّدة نحو الأمام.- أريدُ أن أعرفَ مَن أنتم.

فقال جْواوْ هامساً في أذن صهره:

- قلْ له إنْ تقدَّم خطوة أخرى ستطرحه قتيلاً. فردّد البغّال تلك الجملة وتوقّف بالْتازارْ.

فنادى عليه أحد الخادمين إلى جانبه وأخبره أن واحداً من الاثنين، ذلك الذي لا يتكلم، يبدو أنه هو جْواوْ دا كْروشْ. شكَّ

النبيل في الأمر، فأرادَ أن يتأكد؛ لكن البيطار كان قد سمع كلام الخادم، فقال لصهره:

- هيّا معي، إنهما يعرفانني.

وهو يقول هذا أدار ظهره للمجموعة، ومشى بمحاذاة حديقة تادِيو دي ألْبوكيرْكي. اعتبر خادما بالْتازارْ تراجُعَه انتصاراً مؤكّداً، فأسرَعا الخطى، وهما يتعقّبان الهاربين المحتملين. أمرهما بالْتازارْ ألّا يتعقبانهما؛ لكنهما، بعد أن أبانا عن جُبنٍ كبير قبل لحظات، كانا يرغبان الآن بالانتقام، وهما يجريان خلف العدو بقدر ما هربا منه من قبل.

سمع سيماوْ بوتيلْيو خطوات خفيفة، وأمام خوف تيريزا وذُعرها، فتح باب الحديقة، حتى دون أن يعرف مَن يكون صاحب تلك الخطوات. ثم قال جْواوْ دا كْروشْ مازحاً، عندما رأى الملاحقين قادمين، إنْ كان الزواج أمراً مرتّباً سلَفاً فإنه لا مكان لإضاعة الوقت.

أدركَ سيماوْ خطورة الموقف، فشدَّ على يد تيريزا بانفعال كبير، ثم انسحب. كان يريد أن يتعرَّف الشبحين الواقفين على مسافة منه، لكن جْواوْ دا كْروشْ، وبلهجة آمرة تُجبِر على الخضوع، قال لابن قاضي المدينة:

- اذهب من حيث أتيت، ولا تنظُر وراءَك.

فتابع سيماوْ سيرَه حتى وجد الفرس. امتطاها، وانتظر حارسَيه الباسلين اللذان كانا يمشيان وراءه بخطى بطيئة. استغربوا لاختفاء خادمَي بالْتازارْ المفاجئ، وخشوا أن يتعلق الأمر بكمين ينتظرهم خارج المدينة. كان البيطار يعرف الطريق المختصر الذي يمكن أن

يسلكه مَن كانا يخطّطان للمكيدة، فعبّر لسيماوْ عن تخوّفه، وأمره أن يعدو سريعاً بفرسه، وأنه سيلحق به رفقة صهره. تلقى الطالب هذا التحذير بغضب، ونبّههما ألّا يقلّلا من قدره وشجاعته، ثم شدَّ عن قصدٍ لجام الفرس حتى لا يُجبرهما على السير بسرعة.

- اذهب كما تشاء -قال جْواوْ- نحن سنمشي خارج الطريق.

وصعدا عبر مدرج به أشجار زيتون، ثم نزلا يتواريان خلف باقات من نبات الوزّال، ملتصقين بحائطٍ بموازاة الطريق.

- إنّ مختصر الطريق يتواصل عبر الجبل، هناك حيث المنعطف -قال البيطار لصهره- لا بد أنهما سيمرّان من هناك، أو ربما يكونان قد مرّا. إنّ الطريق يمرّ عبر منحدر ذلك التل. والرجلان سيطلقان النار من هناك، مختبئين في الأجمة. هيا بنا، بسرعة...

ثم سارا، أحياناً مكشوفين، وأحياناً مقوّسين تحت طيف الأسوار المحيطة بالمراعي، حتى بلغا مزرعة مُسيَّجة حيث سمعا خطوات رجلين كانا يقطعان قنطرة صغيرة فوق جدول ماء.

- لقد تأخرنا -قال جْواوْ دا كْروشْ قلقاً- سوف يطلق عليه الرجلان الرصاص، لأنّ الفرس ما زالت تركض بعيداً في الخلف.

وأخذا يركضان دون خوف من أن يراهما أحد، لأنّ الآخريْن كانا قد تجاوزا التل، الذي تمرّ الطريق عبر واديه.

- سوف يطلق عليه الرجلان الرصاص... - قال البيطار.

- سنصيح من هنا وننبّهه ألّا يسير قُدُماً.

- لقد فات الأوان... إما يقتلانه أو لا يقتلانه، حين يعودان ستتكلّف بأمرهما.

كانا قد تجاوزا القنطرة الصغيرة، وأخذا يصعدان المنحدر حين سمعا طلقتين ناريتين.

- إلى أعلى! -صاح جْواوْ دا كْروشْ- حتى لا يدخلا إلى الطريق إن كانا قد قتلا النبيل.

كانا قد ذلّلا عقبة السهل، لاهثين وخائفين، يحملان البندقيتين؛ بينما كان خادما بالْتازارْ، عكس تكهنات البيطار، يتراجعان عبر المختصر نفسه، وهما يفترضان أنّ رفيقي سيماوْ كانا يسيران أمامهما يستكشفان الطريق، أو أنهما قد تأخّرا.

- ها هما قادمان! - قال البغّال.

- ونحن هنا في انتظارهما -أجابه البيطار، وهو يجلس مختبئاً وراء أجمة،- اجلس أنتَ أيضاً، فأنا لم أعُد قادراً على الجَري وراءهما.

وعلى بُعد عشر خطوات، رأى القاتلان شبحَين ينهضان، ثم هربَ كلّ واحد منهما في اتجاه، فقفز الأول فوق كَرْم، وارتمى الآخر وسط الشجيرات.

- أطلِقْ النار على الرجل على اليسار! - قال جْواوْ دا كْروشْ.

كان صوت الطلقتين متزامناً. أصابت طلقةُ البيطار واحداً منهما فأردته قتيلاً. لكن طلَقات البغّال لم تُصِب الآخر الذي اختبأ بين الأدغال.

في تلك اللحظة، ظهر سيماوْ عند أعلى التل حيث أطلقوا عليه الرصاص، وأخذ يجري نحو المكان الذي سمعَ فيه صوت الطلقات الأخيرة.

- أهذا أنت، يا سيدي؟ صاح البيطار.

- نعم، أنا.

- ألمْ يقتلانك؟

- لا أظنّ ذلك - أجاب سيماوْ.

- لقد أفلتَ الداهية من هذا الغبي -ردّ جْواوْ دا كْروشْ- لكني طرحتُ الآخر قتيلاً وسط الكروم. وما زلت متلهفاً لرؤية وجهه.

نزل النبيل مدارج الكرْم الثلاثة، وانحنى على الجثة، وقال:

- أيها اللعين، لو كنتُ أملك بندقيتين، لما ذهبتَ لوحدكَ إلى الجحيم.

- هيا، يا رجل! -قال البغّال- اترك هذا اللعين وشأنه، إنك قد أُصبتَ بجرح في كتفك. هيا بنا بسرعة، لأنّ الدم ينزف.

- رأيتُ رأسين يرقُبانني من أعلى المنحدر، فظننتُ أنهما أنتما -قال سيماوْ، بينما كان البيطار، بدقّة جرّاح بارع، يضمِّد بأثواب ذراعه الجريح- أوقفت الفرس وقلتُ: «حسناً، هل من جديد؟»، وبما أنهما لم يُجيبا، ارتميت على الأرض؛ وكانت إحدى قدمي لا تزال في الركاب عندما أطلقا عليّ النار. حاولتُ أن أصعد المنحدر لكني لم أستطِع قَطْع الأحراش؛ فقطعتُ مسافة طويلة كي أجدَ مكاناً للصعود، وحينئذٍ انتبهتُ إلى أنني جريح...

- هذه ليست سوى خدوشٍ - قال جْواوْ دا كْروشْ، إنني أعرف هذا، أيها النبيل! لقد تعوَّدت على علاج كلّ أنواع الجراح.

- جراح الحمير، سيد جْواوْ؟ - قال الجريح، مبتسماً.

- وجراح البشر أيضاً، سيد سيماوْ. اسمَع، يُحكى أنه كان في البرتغال ملكٌ لا يريد من طبيبٍ غير البيطار. سأريكَ جسدي الذي

صار شباكاً من كثرة ضربات السكين، ولم أذهب يوماً عند الجَرّاح. فبالشمع والخلّ أستطيع أن أبعث روح ذلك اللعين الذي يستمع الآن إلى حديثنا.

في أثناء ذلك سُمعَت خشخشة أوراق خفيفة في الأدغال التي قفز منها زميل القتيل.

ومثل سلوقي ذي شمّ حادّ، أصخّ جْواوْ دا كْروشْ السمع ثم غمغم قائلاً:

- أتريدان أن تريا كيف تُهيّأ البنادق؟... هل لا يزال الآخر هناك يرتعد خوفاً!؟

واستمرّ صوت الخشخشة، وسرعان ما ارتفع من بين الأوراق سرب من الطيور، وهي تزقزق.

- إنّ الرجل هناك -ردّ البيطار- أعطني مسدساً، سيد سيماوْ.

ركض جْواوْ، فحدث ضجيج كبير بين الشجيرات ونبات الخلنج.

- إنه يفتح الطريق أمامه كما لو كان خنزيراً بريّاً! -قال البيطار متعجباً- يا صهري، القِ بعض الحجارة على تلك الأدغال؛ أريد أن أرى الخنزير يخرج من وجاره!

وفي الجهة الأخرى من الأدغال، كان ثمة حقلٌ به زرع. قام سيماوْ بجولة حول الحاجز، وتمكّن من الوصول إلى الحقل بعد أن عبرَ فوق حجر إحدى السواقي.

- حذار! -صاح سيماوْ باتجاه البيطار- لا تطلق النار عليّ أنا.

- ماذا إذاً؟ هل وصلتَ إلى هناك، يا سيدي؟ ها قد دخل

الحيوان إلى جحره. وسأبقى هنا لأقوم بدور ابن مقرض. لو أفلت منّا، يمكن القول إنه لا يوجد أيّ شيء مضمون في هذا العالم!

ولم يكونا على خطأ. عندما ألقى خادم بالْتازارْ كوتينْيو بنفسه يائساً في العُلّيق، انفكّت رجله من ركبته، وسقط فأغميَ عليه. لم ينتبه البغّال لأثر الطلقة، لأنه لم يصوّب بندقيته نحو أيّ اتجاه، وظنّ أنّ الهارب لن يعبأ بطلقاته. بعد أن استيقظَ من الإغماء، زحف الرجل حتى وجد أشجاراً كثيفة، تتّخذ منها الطيور مَبيتاً. وحين زقزقت الطيور مرفرفة، تراجع خادم بالْتازارْ نحو الأدغال، وهو يحسب أنه سينجو مختبئاً هناك، لكن البغّال كان يرمي أحجاراً ضخمة في كلّ الاتجاهات، وأصابَت بعضها الهدف أحسن ممّا فعلَت رصاصات المسدس. أخرج جْواوْ دا كْروشْ من جيب سترته مشذباً وراح يقطع الأدغال والأحراش الملتفّة حول المخبأ. لكنه، حين تعبَ وهو لا يرى ثمرة لما كان يبذله من مجهود، قال للبغّال:

- علينا أن نشعل النار، اذهب وابحث عن بعض النبات اليابس. سوف نضرم النار في الأدغال، وسيموت هذا اللص مشوياً.

عندما سمع الطريد ذلك، استشعرَ الخطر واستجمع قواه، فحطّم الأدغال الكثيفة وقفزَ فوق السور نحو حقل الأعشاب اليابسة حيث كان البغّال يجمع التبن وسيماوْ ينتظر نهاية ذلك القناص. فداهمه البغّال والطالب في الوقت ذاته. وحين شعر الهارب أنهما قد أدرَكاه، جثى على ركبتيه ورفع يديه، يطلب العفو ويقول إنّ سيده هو مَن أجبره على القيام بذلك العمل المشين. وكان البغّال على وشك أن يوجّه إلى صدره مقبض المسدس، حين أمسك سيماوْ بذراعه.

- لا يليق قتلُ رجلٍ يجثو على ركبيته هكذا! -قال الشاب- انهض أيها الفتى!

- إنني لا أستطيع أن أنهض، يا سيدي. لقد كُسرت رجلي، وأصبحت مشلولاً مدى الحياة!

في أثناء ذلك، وصلَ البيطار، وقال متعجّباً:

- ألا يزال هذا الوغد حياً؟!

وانقضّ عليه بالمشذب.

- لا تقتل الرجل، سيد جْواوْ! - قال ابن قاضي المدينة.

- لا أقتله!؟ هذا كلام غريب! إنك تريد، يا سيدي، أن أدفع ثمن مرافقتك على حبل المشنقة... أليس كذلك؟

- على حبل المشنقة؟ قاطَعَه سيماوْ.

- هذا أكيد! أتريد أن يبقى هذا الرجل على قيد الحياة ليذهب ويحكي كل شيء؟ هل يُعجبك هذا الأمر؟ طبعاً، أنت يا سيدي، ابن قاضي، ولن يصيبك سوء، لكني أنا، البيطار، يمكن أن أكون على يقين من أنّ الحبل سيوضَع حول عنقي. هذا الحلّ لا يعجبني. دعني أُجهِزُ على هذا الرجل.

- لا تقتله، سيد جْواوْ، أطلبُ منك أن تتركه يذهب. لا يمكن لشاهد واحدٍ أن يلحق بنا أيّ ضرر.

- ماذا؟ -ردّ عليه البيطار- أنت يا سيدي، طالب ومثقّف، تعرف أشياء كثيرة، لكن لا تعرف شيئاً عن العدالة، واسمح لي عن هذه الجرأة. يكفي شاهد واحد ليُنير طريق العدالة في أثناء التحقيق. يكفي شاهد عيان وأربعة يُدْلون بما سمعوا، ويتدخّل سيد كاشْتْرو

دايْري في القضية لتصبح المشنقة أمراً يقيناً، كما أنّ اثنان واثنان يساوي أربعة.

- لن أقول شيئاً، لا تقتلوني، لأنني لن أعود إلى كاشْتْرو دايْري - صاح الرجل.

- اتركه وحاله، يا جْواوْ دا كْروشْ... هيّا بنا حالاً...

- هذا، إذاً! - ردّ البيطار، إنك تناديني جْواوْ دا كْروشْ حتى يكون هذا الوغد متأكداً أنني فعلاً جْواوْ دا كْروشْ... لا أفهم كيف يمكنك، يا سيدي، أن تترك على قيد الحياة شخصاً لعيناً أطلقَ عليك ناراً بنيَّة القتل!

- إنك على حقّ، لكني لا أعرف كيف أعاقب شقيّاً لا يُبدي أيّ مقاومة.

- لو أنه قتلَك، هل كنت ستُعاقبه؟ هيا، أجبني عن هذا السؤال، يا سيدي.

- هيا، لنذهب حالاً -ردّ سيماوْ- ولنترك هذا الشقيّ وشأنه.

ظلّ جْواوْ يفكّر لبضع لحظات، يحكّ رأسه ويغمغم غاضباً.

- هيّا بنا!... من ينقذ روح عدوّه، قد يموت على يديه.

كانوا قد خرجوا من السهل، وقفزوا فوق السور، وأخذوا ينزلون نحو الطريق، عندما صاح البيطار:

- لقد تركتُ هناك بندقيتي مسندَة إلى الشجيرات... تابِعا السير، سألحق بكما.

كان البغّال يقود الفرس، التي كانت تقضم في هدوء العشب العالق فوق الأسوار المحيطة بالطريق، عندما سمع سيماوْ صياحاً. فخمَّن في ما كان يجري وهو متأكد من الأمر.

- إن جْواوْ يصفي حساباته -قال البغّال- اتركه وشأنه، يا سيدي. إنه يعرف جيداً ما يقوم به.

وما لبثَ جْواو أن لحقَ بهما بعد ذلك بقليل، وهو ينظِّف بالأعشاب المشذب الذي كان يقطر دماً.

- إنك قاسٍ، سيد جْواوْ - قال الطالب.

- إنني لست قاسياً -قال البيطار- إنك مخطِئ يا سيدي، وكما يُقال «إن كانَ لا بد أن يموت أحدٌ فليمُت أبي الذي عاشّ وعمَّر». أن نقتل واحداً أو نقتل اثنين، الأمر سيان. إذا همّ المرء بتحضير العجين فلا يهم إنْ كان مقدار الطحين صاعاً أو صاعين. يجب على المرء أن يُتمّ ما بدأه من عمل، أو لا يبدأه من الأساس. الآن أنا عائدٌ إلى بيتي بضمير مرتاح. ولِتُبَرهن العدالة على ذلك، إنْ شاءت، لكن ليس بواسطة وشاية يحملها إليها أيّ واحد من هذين اللذين أرسَلْتُهُما هديةً إلى الجحيم.

وانتابَ سيماوْ للحظة رعبٌ من هذا القاتل، وخالَجَه الندم على الارتباط برجلٍ مثله.

7

مكتبة
t.me/t_pdf

تجاوزت خطورة جرح سيماوْ ما كان يقدِّمه البيطار من علاج وعناية، رغمَ خبرته وتضلّعه في البيطرة. اخترقَت الرصاصة عضلة ساعده الأيسر، فتمزّق أحد الأوعية الدموية واستعصى توقيف نزيف الدم المتدفّق منه رغم كلّ الضمادات. وبعد عدّة ساعات على إصابته، نام الطالب محموماً، وقد أسلَمَ نفسه لعلاج البيطار. وذهب البغّال إلى كُويمْبْرا لينشُر هناك خبر أنّ سيماوْ بوتيلْيو بقيَ في بورْتو.

لكن أكثر ما كان يؤرق سيماوْ لم يكن الألم أو الخوف من البتر، بل التلهّف إلى أخبار تيريزا. وظلّ جْواوْ دا كْروشْ حَذراً متيقظاً ضدّ أيّ إجراء قضائي قد يجعَله مشتبهاً فيه. كان كلّ الوافدين إلى المدينة للبيع والشراء يحكون أنّ رجلين قد ظهرا مقتولين، ويقولون إنهما خادمان لدى نبيل كاشْتْرو دايْري. لكن لم يسمع أيّ واحد منهم أنّ الجريمة قد نُسبَت إلى شخص بعينه.

وفي زوال ذلك اليوم تلقى سيماوْ هذه الرسالة من تيريزا:

«أتمنى أن تكون قد وصلتَ بخير إلى بيت أولئك الناس الطيبين، بمشيئة الله. من جهتي، لا أدري ما يحدث هنا، لكن ثمة شيء لا

أستطيع التكهّن به. لقد قضى أبي كل هذا الصباح يتحدث على انفراد مع ابن عمي، ولا يسمَح لي بمغادرة غرفتي. أمرَ بسحب المحبرة من حوزتي، لكنني أتوفر على محبرة أخرى لحُسن الحظ. وشاءت إرادة السيدة العذراء أن تأتي المتسوّلة وتطلب الصدقة عند أسفل نافذتي، ولولا ذلك لما استطعتُ أن أخبرها لتأخذ هذه الرسالة. لا أدري ما قالته لي. حدَّثتني عن خادمين قُتلا، لكنني لم أفهم... أُختُك ريتا تُحدثني بالإشارة من وراء زجاج نافذة غرفتِكَ...

أخبَرَتني أن خادمَيْ ابن عمي قد ظهرا مقتولين قرب الطريق. الآن فهمتُ كلّ شيء. كنتُ على وشك أن أقول لها إنكَ هناك، لكنهم لم يمهلوني. من حين إلى آخر يأتي أبي فيذرع الممرّ جيئة وذهاباً وهو يُصدر تنهيدات عميقة.

آه يا حبيبي سيماوْ، مَن أدراني كيف أحوالك الآن؟... هل تكون جريحاً؟ هل أكون أنا سبَب موتك؟

أخبرني بما يجري. إنني لم أعُد أطلب من الله سوى أن يحفظ حياتك. اهرب من هذه الأماكن، اذهب إلى كُويمْبْرا، وانتظر هناك حتى تتحسّن أحوالنا مع مرور الوقت. وضَعْ ثقتك في هذه البائسة الجديرة بحبك وعطفك... لقد جاءت المتسولة، ولا أريد أن أؤخرها أكثر من اللازم... سألتها إن كان الناس يقولون عنكَ شيئاً، فأجابتني بالنفي. فليكن ما شاءه الله».

ردّ سيماوْ على رسالة تيريزا وهو يريد أن يهدّئ من روعها. لم يتحدَّث عن جرحه إلّا لماماً وكأنّ العلاج لم يكن أمراً ضرورياً. وعَدَها بالذهاب إلى كُويمْبْرا، ما إنْ يستطيع ذلك دون أن يخشى

على تيريزا أن تعاني من غيابه. وطلبَ منها أن تنادي عليه إن نفَّذ والدها تهديده بإدخالها إلى الدير.

في أثناء ذلك، استدعَت السلطات القضائية بالْتازارْ كوتينْيو في إطار التحقيق الذي فتحته، فقال إنّ الرجلين القتيلين هما خادميْه بالفعل، وقد رافقاه وأسرتَه من كاشْتْرو دايْري. وأضاف أنه لم يكُن على علم بأيّ أعداء لهما في فيزيوْ، وأنه ليست لديه أدنى شكوك في أيّ كان.

وصرّح سكان القرية التي ظهرت بها الجثتان أنهم سمعوا، في ساعات متأخرة من الليل، طلقتين لرصاصتين متزامنتين، وطلقة أخرى بعد ذلك بقليل. وأكّد آخر شيئاً لم يكن لينير طريق العدالة في شيء، حين قال إنّ الأدغال، قرب المكان، قد تمّ قصُّها. وأمام هذا الغموض، لم تُحرز العدالة أيّ تقدُّم يُذكر.

وكان تادِيو دي ألْبوكيرْكي مشاركاً في محاولة قتل سيماوْ بوتيلْيو. فقد كان هو مَن دبَّر هذا الأمر، حين اكتشفَ ابن العم سبب الخروج المتكرِّر لتريزا ليلة الحفلة الراقصة. وكان من مَصلحة العجوز كما من مصلحة النبيل أن يطمسا أيّ دليل قد يورطهما في لغز تلك الجريمة. فالخادمان لا يستحقّان انتقاماً يورِّط سمعة سيّديْهما. لم يكن بإمكانهما تقديم حججٍ ضد سيماوْ بوتيلْيو، وكانا يظنان، في تلك اللحظة، أنه كان في طريقه إلى كُويمْبْرا أو مختبئاً في منزل والده. كان أملهم الأخير هو أن يكون قد أصيب بجرح وأن يموت بعيداً عن المكان الذي تعرَّض فيه للهجوم.

أمّا تيريزا، فقد قرَّر ألْبوكيرْكي أن يحبسها في دير بمدينة بورْتو، فاختار دير مونْشيكي، حيث كانت إحدى قريباته تشغَل منصب الراهبة

الرئيسة. فكتبَ إلى رئيسة الدير يطلب منها أن تهيّئ لها غرفة، وراسَلَ محاميه ليطلب تراخيص الكنيسة بالدخول إلى الدير. لكن، خشية وقوع أيّ حادث في انتظار الحصول على التراخيص، قرَّر ألّا يحتفظ بتيريزا إلى جانبه، وطلب وضعها مؤقتاً في دير بمدينة فيزيوْ.

كانت تيريزا قد انتهت للتوّ من أن تدسّ في صدرها جواب سيماوْ الذي مدّته إليها المتسوّلة مع حلول الليل، معلّقاً في خيط، عندما دخل والدها إلى الغرفة، وأمرها أن ترتدي ملابسها. فأذعنت الفتاة لأبيها، وارتدت عباءة ومنديلاً.

- ارتدي من الملابس ما يليقُ بك. لا تنسي أنّك تحملين اسمي - قال العجوز بصرامة.

- ظننتُ أنه لا داعي لملابس أحسَن من هذه للخروج ليلاً...

- قالت تيريزا.

- وهل تعرفين إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- لا أعرف... يا أبي.

- إذاً، ارتدي ملابسك، وكفى من التعليقات.

- لكن، يا أبي، اسمعني لحظة.

- تكلمي.

- إذا كنتَ تفكّر في أن تُرغمني على الزواج من ابن عمي...

- ماذا؟

- فلن أتزوّج؛ أفضّل أن أموت، وسأموت سعيدة، لكني لن أتزوّج.

- وهو لا يرغب فيك زوجة. إنك لا تستحقين الزواج من بالْتازارْ كوتينْيو. إنّ رجلاً من دمي لا يقبَل أن يقترن بامرأة تتحدّث

ليلاً مع عشاقها في الحديقة. ارتدي ملابسك بسرعة، لأنك ذاهبة إلى الدير.

- حالاً، يا أبي. تلك هي رغبتي، ولطالما طلبتُ منك ذلك.

- لا أريد منكِ أيّ تعليق على كلامي. أريد أن أراكِ بعد لحظة وقد ارتديتِ ملابسك. إنّ بنات عمك ينتظِرْنَك لمرافَقَتك.

حين بقيَت لوحدها، أجهَشَت تيريزا بالبكاء، ورغبَت في أن تكتب إلى سيماوْ. لكن، مَن سيحمل له الرسالة في تلك الساعة؟ فلجأت إلى صورة العذراء التي جعلت منها أمينة أسرار حبها. جثَت على ركبيتها وتوسَّلت إليها أن ترعاها، وتُعطيها القوة على تجاوز المِحن، والصبر والثبات على ما يتوالى عليها من مصائب. بعد ذلك، ارتدَت ملابسها، ودسَّت في صدرها رزمة وضعَت فيها المحبرة والقرطاس وحزمة رسائل سيماوْ. غادرت الغرفة، وهي تُلقي نظرات خاطفة بعينيها الدامعتين على صورة العذراء، ثم وجدت أباها فاستأذنته أن تأخذ معها صورة ذلك الوجه الوقور.

- سأبعث بها إليك -أجابها- لو كنتِ تخجلين بقدر ما أنت ورعة وتقية، لكُنتِ أسعدَ ممّا تتصورين.

ونادَت عليها إحدى بنات عمها، من أخوات بالْتازارْ، على حدة، وقالت لها سراً:

- أيتها الفتاة، ما زال بين يديك حلّ لكلّ ما أصاب هذا البيت من فوضى...

- أيّ حلّ؟! - سألَتها تيريزا بجدية مُفتعَلة.

- أخبري أباكِ أنك مستعدة للزواج من أخي بالْتازارْ.

- لكن ابن عمي بالْتازارْ لا يريدني زوجة - ردَّت وهي تبتسم.

- مَن قال لك هذا، يا عزيزتي تيريزا؟

- هذا ما قاله أبي.

- دعي أباكِ يتحدّث كما يشاء. لقد فقد صوابه من فرط حبّه لك. أتريدين أن أتحدث معه؟

- ولماذا؟

- حتى نجد حلاً لما أصابنا جميعاً.

- هل تسخرين مني، يا ابنة العم؟ -أجابتها تيريزا- قد أصبح سِلْفتك فقط إن لم يكن لي قلب. أخوك يعرف جيداً أنني أحب رجلاً آخر. أريد أن أعيشَ لأجله، لكن، لو أرادوا موتي، فسأباركُ عمل كلّ الجلادين. يمكنك أن تقولي هذا لابن عمي بالْتازارْ، وأخبِريه بذلك قبل أن تنسَي.

- إذاً، هيا بنا!؟ - قال العجوز.

- إنني مستعدّة، يا أبي.

فُتح باب الدير، ودخلت تيريزا من دون أيّ دمعة في عينيها. قبّلت يد والدها الذي لم يجرؤ على سحب يده في حضور الراهبات. عانقَت بنات عمّها بوجه بشوش، وبعد أن أُغلق الباب صاحت متعجّبة أمام اندهاش الراهبات:

- إنني أشعر بالحرية أكثر من أيّ وقت مضى. حرية القلب هي كلّ شيء.

تبادَلت الراهبات فيما بينهن النظرات، وكأنهن قد سمعن في كلمة «قلب» هَرطقة أو تجديفاً في حقّ بيت الرب.

- ماذا تقولين، يا ابنتي!؟ - سألتها رئيسة الراهبات، وهي

تحدِّق من فوق نظّارتيها، وتنظِّف بخرقة ثوبٍ أحمر تقطير التبغ المسحوق.

- قلتُ إنني أشعر بالراحة في هذا المكان، يا سيدتي.

- لا تقولي «سيدتي» - قاطَعَتها الكاتبة.

- وماذا أقول؟

- قولي «أمي الراهبة الرئيسة».

- حسناً، قلتُ إنني أشعر بالراحة في هذا المكان، يا «أمي الراهبة الرئيسة».

- لكن مَن يأتي إلى بيت الرب لا يأتي ليَشعر الراحة - ردّت عليها الراهبة الكبرى.

- لا يشعر بالراحة!؟ قالت تيريزا بتعجّب صادق.

- مَن يدخل هذا المكان، يا ابنتي، عليه أن يقهر نفسه ويترك خارج أسواره أهواء الدنيا ونزواتها. حسناً، ها قد جاءت المسؤولة عن الراهبات المبتدئات، وهي المنوط بها أن تُرشدكِ وتدلّكِ على الطريق المستقيم.

لم تردّ تيريزا، وأومأت بحركة احترام تجاه المسؤولة عن الراهبات المبتدئات، ثم مشت في الطريق الذي دلّته عليها الراهبة الرئيسة.

دخلت الأم الكبرى إلى الغرفة، وقالت لتيريزا إنها ضيفتها طالما ظلّت هناك، وأضافت إنها لا تعرف إن كان أبوها سيختار هذا الدير أو ديراً آخر.

- ماذا يهم إنْ كان هذا الدير أو غيره؟ - قالت تيريزا.

- هذا يتعلّق برغبة أبيك. ربما يرغب أن تنذري حياتك

للرهبانية في صفوف جمعية القديس بينْتو الغنية أو في صفوف جمعية القديس بيرْنارْدو.

- أن أنذر حياتي للرهبانية! -قالت تيريزا متعجّبة- إنني لا أريد أن أكون راهبة هنا، ولا في أيّ مكان آخر.

- عليكِ أن تكوني، يا سيدتي، كما شاء لكِ أبوك أن تكوني.

- راهبة!؟ لا أحد يمكنه أن يُجبرني على هذا الأمر! - ردّت تيريزا بتمرّد.

- هذا كلّ ما في الأمر -ردّت الراهبة الكبرى- لكن بما أنّ فترة التمرين تصل إلى سنة كاملة، فلديك ما يكفي من الوقت كي تتعوّدي على هذه الحياة، وسترين أنه لا توجد حياة أكثر راحة من هذه للجسد، ولا أكثر منها نفعاً للروح.

- لكن، أيتها الأم الكبرى -ردّت تيريزا مبتسمة، كما لو أنّ السخرية كانت دوماً من عاداتها- لقد قلتِ من قبل إنه لا أحد يأتي إلى هذا المكان ليشعر بالراحة!

- تلك طريقة في التعبير، يا ابنتي. الكلّ يمارس قهر النفس، يشارك في الترانيم، ويحيي الطقوس حتى تشعر الروح بالراحة. إنّ الدير جنة إذا ما قورن مع ما يجري هناك في هذا العالم. هنا تنتفي الأهواء، ويغيب كلّ ما يحرم المرء من النوم، حتى لو كان ذلك رغبة في الأكل. حمداً للرب! نعيش الواحدة مع الأخرى، مثل الرّب مع الملائكة. ما تحبّه الواحدة، ترغب في الأخريات. هنا، يا ابنتي، لن تجدي النميمة، ولا الدسائس. فالرّب يصنع الأشياء بمشيئته. سأذهب إلى المطبخ لأُحْضر لك طعام العشاء وأعود بسرعة. وأتركك هنا مع الأم عازفة الأرغن، هذه الحمامة وديعة؛

ومع مربية المُبتدئات التي تعبِّر أحسنَ مني عن الفضيلة في هذا البيت.

وما أن أدارت رئيسة الدير ظهرها، حتى قالت عازفة الأرغن إلى مربية المبتدئات:

- يا لها من مخادِعَة!

- ويا لها من بلهاء! -أضافت الأخرى- يا ابنتي، لا تثقي بهذه المحتالة، وحاولي أن يَضعك أبوك رفقة راهبة أخرى غير الرئيسة ما دُمتِ مقيمة هنا، لأنّ الرئيسة هي أكبر دسّاسة ماكرة. بعد أن بلغت ستين عاماً، صارت تتحدث عن أهواء الدنيا كمَن يَخبر الأهواء أحسن خبرة. في أثناء شبابها، كانت أكثر راهبة جَلْباً للعار والخزي لهذا البيت؛ وحتى بعد تقدّمها في السن كانت أكثرهن سخافة لأنها كانت دائماً تبحث عن مَن تحبّ ومَن يُحبها. الآن، وقد هرمت، أصبحت هذه البلهاء لا تكف عن ممارسة الوساطة وعلاج التخمة.

ورغم ما بها من ألم، لم تتمالك تيريزا نفسها ولم تستطِع أن تكبت ضحكة وهي تتذكر «حياة الرب مع الملائكة» التي تعيشها الراهبات في ذلك المكان، بحسب تعبير رئيسة الدير.

بعد ذلك بقليل، دخلت رئيسة الدير تحمل العشاء، وخرجت الراهبتان الأخريان.

- ما رأيكِ في الراهبتين اللتين بقيتا في صحبتك، يا ابنتي؟ - قالت لتيريزا.

- إنهما طيبتان.

وضعَت العجوز النشوق بين شفتيها، وغمغمت قائلة:

- إحم! حسناً، حسناً... إنهما ليستا من أسوأ ما يوجد هنا،

وإن كانتا من خيرة الراهبات فلن نخسر شيئاً... حسناً، لديك هنا، يا ابنتي، فخذَي دجاجة ومرقاً يُغري الملائكة بالأكل.

- لن آكل أيّ شيء، يا سيدتي - قالت تيريزا.

- عجباً! ألا تأكلين أيّ شيء؟ عليكِ أن تأكلي. لا أحدَ يستطيع أن يقاومَ من غير طعام. أمّا الأهواء... فلتذهَب مع الشيطان!... النساء دائماً ما تقَعن في الخطأ، أمّا الرجال فليس لديهم ما يخسرون! شخصيّاً، إلى حدّ اليوم، وبفضل الرّب، لا أعرف ما هي الأهواء، لكن مَن في جعبتها خمسة وخمسون عاماً من حياة الدير لها ما يكفي من التجربة للتأمل فيما يجري لكلّ البَلْهاوات الأخريات. وحتى لا نذهب بعيداً، فهاتان اللتان غادرَتا للتو أدَّيتا غالياً ثمن غرورهما؛ وليغفر لي الرّب إن ارتكبتُ خطيئة بهذا القول. فعازفة الأرغن التي تجاوزَت الأربعين، ما زالت، مع ذلك، تذهب إلى قاعة الدير وتطلب ودّ الرجال؛ أما الأخرى، رغم أنها مربّية المبتدئات، لأنه لم ترغب أيّ واحدة أخرى في القيام بهذه المهمة، فقد تُفسد الفتيات إنْ لم أراقبها من كثبٍ ليل نهار.

وانقطع هذا الخطاب الباعث على التقوى حين جاءت الراهبة الكاتبة، وهي تكشط أسنانها، وتطلب من الرئيسة كأساً من خمرٍ يساعد على الهضم اعتادَت أن تقدِّمه لها كلّ ليلة.

- كنتُ أحدِّث هذه الشابة عن مكانة وقيمة عازفة الأرغن ومربية المبتدئات - قالت رئيسة الدير.

- آه! إنهما تحفتان نادرتان! لقد ذهبتا إلى غرفة البوّابة. إنهما الآن تهشِّمان لحمكِ بلسانيهما اللذين لا يرحمان أحداً.

- اذهبي أنتِ، وحاولي أن تلتقطي شيئاً ممّا تقُلنه، يا عزيزتي.
- قالت الرئيسة.

ابتهجَت الكاتبةُ لهذه المهمّة، وذهبت في صمتٍ عبر ممرّ غرف النوم حتى بلغت باباً تخترقه ضحكات مدوية.

في أثناء ذلك، كانت الرئيسة تحدِّث تيريزا قائلة:

- هذه الكاتبة ليست امرأة سيئة. عيبها الوحيد أنها تقرَع الخمرة، وحين تفعل ذلك لا أحدَ يطيقها. لها دخلٌ محترم، لكنها تُنفق كلّ مالها في الخمر، وأحياناً تأتي إلى جوقة الترانيم تتمايَل، فيُغري منظرها بالمشاهدة. لا أعرف لها عيباً آخر؛ وهي أيضاً متواضعة وتقدِّر صديقاتها. صحيح أنها، أحياناً... (وهي تقول هذا، نهضت الرئيسة لتُنصت إلى الغرف، ثم عادت وأغلقت الباب من الداخل) أحياناً، حين تكون سكرانة، تقوم ببعض الحماقات، وتكشف عن عورات صديقاتها. فقد أطلقَت عني دعاية تقول إنني حين أغادر الدير لأستنشق الهواء، لا أخرج للتنزّه فقط، بل أفعل ما تفعله الأخريات. يا للوقاحة! أن تقول ذلك أخرى، لا يهمّ، أمّا أن تقول ذلك هي، التي لديها عشاق يشربون معها الخمر في الدير، فأمر لا يُطاق، لكن، الكمال لله... إنها طيبة، مع ذلك، لولا هذه الرذيلة اللعينة...

وبما أنّ الأجراس قد دقّت لحظتها مُنادية إلى صلاة الترانيم، وبعد أن شربَت كأس خمر أخرى، طلبت الرئيسة المحترمة من تيريزا أن تنتظر ربع ساعة، لأنها ستذهب إلى الصلاة ولن تتأخر كثيراً. وكانت قد خرجت حين دخلت الكاتبة، بينما وضعت تيريزا وجهها بين يديها وأخذت تقول مع نفسها: «دير، يا إلهي! هذا دير؟!».

- هل أنتِ لوحدك؟ قالت الكاتبة.

- نعم، إنني لوحدي، يا سيدتي.

- هل ذهبَت تلك الفظّة لحالها وتركَت ضيفة لوحدها؟ إنها بنت سمكري، هذا صحيح!... لكن كان لديها ما يكفي من الوقت لتَخبر الدنيا وأحوالها، لأنها عاشت حرّة طليقة أكثر من اللازم. عليّ أنا أيضاً أن أذهب إلى الصلاة، لكني سأبقى برفقتك، يا ابنتي.

- اذهبي، اذهبي، يا سيدتي، أنا مرتاحة لوحدي - قالت تيريزا وهي تصبو إلى تخفيف كربها بالبكاء.

- لا، لن أذهب!... قد تموتين من الخوف هنا، لكن الرئيسة لن تتأخّر كثيراً. يمكنها أن تنسلّ وتغادر الصلاة، لأنها لا تقضي وقتاً كثيراً هناك. أراهن بأيّ شيء على أنها كانت تتحدّث عني بسوء.

- لا، يا سيدتي، على العكس من ذلك...

- حسناً، قولي الحقيقة، يا ابنتي. إنني أعرف تلك اللقلاقة العجوز، إنها لا تذكُر أيّ أحد بخير. في نظرها، كلّ الراهبات فاجرات وسكيرات.

- لا، لا، يا سيدتي، لم تقُل شيئاً عن أية راهبة.

- وإن قالَت، دعيها تقول. إنها لا تشرب الخمر، بل تمتصّه مصّاً. إنها إسفنجة حيّة. أما الفجور، فلو أعطوني ما يساوي عدد عشاقها نقوداً لأصبحتُ من الأثرياء! إنك لا تتصورين قدر فجورها، يا ابنتي.

شربت الكاتبة كأساً من خمر الرئيسة، وتابعت قائلة:

- إنك لا تتصورين قدر فجورها، يا ابنتي! إنها أكبر سناً من الكنيسة. عندما دخلتُ إلى الدير كانت عجوزاً آنذاك كما هي الآن، لا فرق. الآن، وقد أصبحت راهبة منذ ست وعشرين سنة، لك أن تتصوري يا ابنتي أطنان النشوق الذي استنشقته! حسناً، صدِّقي، أو لا تصدِّقي، عرفت أنه كانت لها دزينة من العلاقات الغرامية، دون احتساب علاقتها مع الكاهن الأول، الذي ما زال إلى يومنا هذا يزوّدها بهذا الخمر، على حسابنا نحن، بالطبع. إنها تبذِّر مداخيل هذا البيت. أنا كاتبة الدير، وأعرف أنها تختلس. يؤسفني، يا ابنتي، أن أراك في رعاية هذه المنافقة. لا تنخدعي بكلامها الجميل، يا ملاكي. أعرف أنّ أباكِ تحدّث معها وأمرَها ألّا تتركك تكتبين أو تتلقين الرسائل؛ لكن، انظري، يا ابنتي، إن أردتِ أن تكتبي، فسأوفِّر لك الحبر والقرطاس وعجين الختم، وأضعُ غرفتي رهن إشارتك، إنْ شئتِ أن تذهبي إليها لتكتبي. إن كان هناك أحدٌ يودّ أن يُراسلك، فاطلبي منه أن يوجِّه رسائله باسمي: دْيونيزْيا دا إنْماكولادا كونْسيساوْ.

- أشكركِ جزيل الشكر، يا سيدتي -قالت تيريزا وقد شجَّعها هذا العرض- أودّ أن أبعث رسالة إلى متسوِّلة تسكن بزقاق...

- كما تشائين، يا ابنتي. أبعثها إليها ما إن يبزغ نور يوم جديد. لا تشغَلي بالك. ولا تَثِقي بأيّ أحد غيري. احذَري عازفة الأرغن ومربية المبتدئات، لأنهما منافقتين. لا تفسحي لهما المجال، لأنه لو وَثقتِ بهما ستهلكين. ها قد جاءت تلك البزّاقة، لنغيِّر موضوع حديثنا...

وحين اقتربت الرئيسة، تابعت الكاتبة كلامها قائلة:

- لا شيء أحسن من حياة الدير، عندما نحظى برئيسة مثل رئيسة ديرنا... أأنتِ هنا، أيتها الملاك! أرأيتِ إنْ كنا نذكرك بالسوء؟

- أعرف أنك لا تذكرينني بالسوء أبداً -قالت الرئيسة وهي تغمز تيريزا بعينها- وها هي ذي هذه الفتاة شاهدة على ما ذكرتُ من مناقبكِ...

- أمّا ما قلته أنا عنك -أجابتها الأخت دْيونيزْيا دا إنْماكولادا كونْسيساوْ- فلا حاجة لك أن تسألي عنه، لأنك سمعتِ، لحسن الحظ، ما كنتُ أقوله. ليتنا نستطيع قول الشيء نفسه عن أولئك اللواتي يجلبن العار والخزي لهذا البيت ويَحكن الدسائس، التي تُعتبر خطيئة من الخطايا!

- إذاً، ألن تذهبي إلى صلاة الترانيم، يا ابنتي؟ قالت الرئيسة.

- لقد فات الأوان الآن... إنك تغفرين لي هذا الخطأ، أليس كذلك؟

- أغفره لك، أغفره، لكني أطلب منك أن تشربي كأساً تكفيراً عن ذنبك...

- كأساً من الخمر المساعد على الهضم؟

- طبعاً!...

وأدّت دْيونيزْيا كفّارتها، ثم خرجت لتترك -بحسب قولها- السيدة الرئيسة لتؤدي صلواتها.

لن نُطيل في وصف هذا النموذج الإنجيلي من حياة الدير الذي أرسل إليه تادِيو دي ألْبوكيرْكي ابنتَهُ لتستنشق أنقى هواء الملائكة،

بينما كان يحضِّر لها في دير مونْشيكي خليطاً أقوى لتخليص الذات ممّا علق بها من الرذائل والخطايا.

وخلال ساعتين قضَتهما بين أسوار ذلك الدير امتلأت نفس تيريزا مرارة وفاضت اشمئزازاً. كانت لا تعرف أنّ في الدنيا شيئاً كهذا. سمعَت الناس يتحدَّثون عن الأديرة كملجأ للفضيلة، والبراءة والآمال الخالدة. قرأَت بعض الرسائل التي بعثَتْها عمتها، رئيسة دير مونْشيكي، ومن خلالها كانت تَعتبرها قديسة. وسمعت كبار سيدات فيزيوْ ونبيلاتها يَحكين عن فضيلة وإحسان أولئك الراهبات الدومينيكيات، اللواتي كانت في ضيافتهن؛ بل سمعت أيضاً عمّا يقمن به من معجزات. فيا لها من خيبة حزينة، ويا لها من رغبة عميقة في الهروب من ذلك المكان!

كان سرير تيريزا في غرفة رئيسة الدير نفسها، لكنه وُضِعَ في مخدع منعزل عُلِّقت ستائرَ عند بابه.

عندما قالت لها رئيسة الدير إنه يمكنها أن تَنام متى شاءت، سألتها تيريزا إنْ كان بإمكانها أن تكتب رسالة إلى أبيها. قالت الرئيسة إنه يمكنها أن تكتب الرسالة في اليوم الموالي، رغم أنّ السيد ألْبوكيرْكي أعطى تعليماته بألّا تكتب ابنته رسائل، وأضافَت أنها تسمَح لها بذلك إن كانت تتوفر على حبر وقرطاس في الغرفة.

نامت تيريزا، وجثت الرئيسة على ركبتيها أمام المصلى، وراحت ترنِّم تسبيحة بصوت خفيض. وإذا كان صوت الصلاة يزعج الوافدة الجديدة، فلم يكن ثمة من داعٍ للشكوى، لأنّ الراهبة الوقور راحت مع بداية الصلاة الربانية تميل رأسها حتى أنها لم تُدرك

السلام الملائكي. نهضت متمايلة، انحنت إجلالاً أمام صور القديسين، وذهبت لتنام وتشرع في الشخير.

سحبت تيريزا بحذرٍ ستائر مخدعها، وأخذَت من ملابسها الحبر والقرطاس.

كان شعاع ضوء باهت ينبعث من مصباح المصلى ويسقط على الكرسي حيث وضعت تيريزا ملابسها. نزلت من السرير وجثَت على ركبتيها قرب الكرسي، ثم كتبت رسالة إلى سيماوْ تحكي له مستفيضة أحداث ذلك اليوم. وتنتهي الرسالة بهذه الكمات:

«لا تقلق عليّ، يا سيماوْ. كل هذه المحن تبدو لي أهون، إن قارَنتها بما عانيْتَه في سبيل حبي. فالمصائب لا تَنال من عزيمتي، ولا ينبغي لها أن تحبط أحلامَك. إنها عاصفة بضعة أيام وستمضي. سأخبرك بما قد يتّخذه أبي من قرارات جديدة في أسرع وقت وكلما كان ذلك ممكناً. واعلم أنه كلما انقطعت عنك أخباري فإنّ مانعها عنك هو أنني لا أستطيع تزويدك بها. عليك أن تحبّني أكثر وأنا شقية، لأن الأشقياء هم أحوج الناس للحب والعطف. سأرى إن استطعت أن أجد في النوم عزاء وسلوى. ما أتعس كلّ هذا، يا عزيزي سيماوْ!».

8

حين رأت مارْيانا، بنت جْواوْ دا كْروشْ، أباها يضمِّد جراح ساعد سيماوْ، أُغمي عليها. ضحك البيطار مقهقهاً من ضعف الشابة، ورأى الطالب أنّ هذه الحساسية غريبة بالنسبة إلى امرأة اعتادَت على علاج الجراح التي صَنَعَت مجد أبيها وشَهَرَته عبر مختلف الأسواق والمواسم الدينية.

- قبل أقلّ من سنة، أُصبتُ بضربة في الرأس نتَجت عنها ثلاثة ثقوب، حين ذهبت لأزور سيدة ريميدْيوس في لا ميغو، وكانت هي مَن حلق رأسي بالموسى -قال البيطار- بحسب ما أرى، فإنّ دم النبيل قد حرَّك معدة الشابة! ها قد أصبحنا مستعدين! أنا منهمك في أشغالي، وأريدُكِ أن تعتني بالجريح وتكوني ممرّضته... فهل أنتِ مستعدة لذلك أم لا يا ابنتي؟ - قال لابنته، حين فتحت عينيها، وهي خجولة من ضعفها ووهنها.

- سأكون ممرّضته، بكل فرح، إن سمحتَ لي بذلك يا أبي.

- إذاً، يا ابنتي، بدل أن تقومي بالخياطة عند الباب، اجلسي قرب السيد سيماوْ. أطعِميه حساء كثيراً، وعالجي جرحه، بكثير من

الخلّ حتى يصبح لونه داكناً. تحدّثي معه، ولا تتركيه يجترّ أفكاره كالمجنون، أو يكتب كثيراً، لأن ذلك لا يشفي العقل العليل. وأنتَ، يا سيدي، لا تكُن متكلّفاً ولا تقُل لمارْيانا «هلّا فعَلت هذا من أجلي، إن سمحت؟» أو «أيتها الفتاة، أعطيني حساء، اغسلي ذراعي، هاتي الضمادات». هكذا، من دون تكلّف. إنها هنا مثل خادمتك، لأنه كما أخبرتك، لولا فضل والدكَ عليّ لكانت تتسول منذ زمان، أو ربما أسوأ من هذا... صحيح أنني كنتُ سأترك لها شيئاً ممّا ربحته بعرق جبيني المتصبِّب بسبب نار السندان قبل عشر سنوات، بالإضافة إلى أربعمائة ألف ريال وَرِثتُها عن أمي، رحمها الله، لكن حضرتك تعرف أنه لو حُكم عليّ بالمشنقة أو بالنفي، لجاءت العدالة وأخذت كلّ شيء.

- يا رجل، بما أنّ أحوالك المالية لا بأس بها -قاطعه سيماوْ- يمكنك أن تُزوِّج ابنتك لأيّ فلاح ميسور.

- لو شاءت، فإنّ الأزواج كُثُر؛ حمداً لله، بل إن ملازماً من عائلة عريقة كان يرغب في الزواج منها، شريطة أن أتخلّى لها عن كلّ ما أملك، وهو ما لا يمثِّل شيئاً كثيراً، ولكن قيمته مع ذلك تتجاوز أربعة آلاف كروزادو، بكاملها. الحقيقة أنّ الشابة لا تريد أن تتزوج، ومن جهتي لا أريد أن أبقى دون صحبتها، لأنه ليس لي سواها، وأنا أكدّ وأتعب كالعبد من أجل سعادتها. لو لم تكُن بجانبي، كَم من الحماقات كنتُ سأرتكب! حين أذهب إلى الأسواق والمواسم الدينية، إنْ أخذتُها معي لا أتخاصَم ولا أتشاجر، أمّا إنْ ذهبتُ لوحدي فالفوضى والصخب يُلازمانني. إنّ الشابة تعرف جيداً متى تلعب الخمرة بعقلي، فتجرّني من المعطف، وتُخرجني برفقٍ من

وسط الحشد. وإذا ما دعاني أحدٌ لشرب كأس أخرى، تمنعني من الذهاب، وأستحسن فكرة الامتثال لأوامرها، لأنها تطلب مني ألّا أفعل ذلك وفاءً لروح أمها، لأنه ما إن يذكر أحد روح زوجتي، التي كانت وقوراً وتقية، حتى لا أدري ما يحدُث لي.

كانت مارْيانا تستمع لأبيها وهي تدسّ خجولاً وجهها بين ثنايا مريلتها البيضاء. وكان سيماوْ يستمتع ببساطة ذلك البيت القروي، العظيم بتلقائيته وعفويته.

نادوا على جْواوْ دا كْروشْ ليُنعل فرساً، فودّع بهذه العبارات:

- لقد قلتُ، يا ابنتي، أنني أستودعك مريضنا، فعامليه كما هو، كما لو كان أخاك أو زوجك.

واعتلَت الحمرة وجه مارْيانا حين سمعت تلك الكلمات، التي صدَرَت من فم أبيها طبيعية وعفوية.

ظلَّت الفتاة متّكئة على عتبة باب غرفة سيماوْ.

- إنها ليست مصيبة عظمى هذه التي حلَّت بك يا مارْيانا -قال الطالب- حين عيَّنوك ممرضة لهذا المريض، وحَرموك من الخياطة عند باب البيت والحديث مع مَن يمرّون من الناس...

- وماذا يهمّني ذلك؟ أجابَت وهي تنفض المريلة وتُعيدها إلى موضعها نحو الأسفل بحركات تكاد تكون طفولية.

- اجلسي، يا مارْيانا؛ لقد أمركِ أبوك بالجلوس... اذهبي وخُذي ما تخيطين، وأعطيني قرطاساً وقلماً من محفظتي.

- لكن أبي أمَرني أيضاً ألّا أتركَكَ تكتب - أجابته وهي تبتسم.

- سأكتب قليلاً. لا ضَرَر في ذلك. سأكتب بضعة أسطر فقط.

- أنتَ أدرى بما تقوم به. . . -ردّت وهي تقدِّم له القرطاس والقلم- حذار أن تضيع أية رسالة وينفضح كلّ شيء.

- كلّ شيء! ماذا تعنين بكلامك، يا ماريانا؟ هل تعرفين شيئاً؟

- هل تظنّ أنني بلهاء؟. . . ألم أخبرك أنني أعرف أنك تحبّ شابة نبيلة من المدينة؟

- نعم، لقد قلتِ لي ذلك. لكن، ما علاقة هذا بـ. . .؟

- وقع ما كنتُ أخشاه. إنك الآن جريح، وكل الناس يتحدّثون عن رجُلين وَجدوهما قتيلين.

- وما علاقتي بهذين الرجلين اللذين وجدوهما قتيلين؟

- لماذا تحاول أن تخفي عني؟ حسناً، هل تظنّ أنني لا أعرف أنهما كانا خادمين لدى ابن عم تلك السيدة؟ يبدو أنكَ لا تثق بي، وتحاول أن تحتفظ بسرّ، سأحفظه أكثر منك حتى لا أتسبَّب لكما، أنتَ وأبي، في مشاكلَ أكبر من هاته.

- أنتِ على حق، يا ماريانا، لا ينبغي لي أن أخفي عنك ذلك الحادث الذي وقع لنا. . .

- وأتمنى من الله أن يكون هو الأخير!. . . لكَم دعوتُ الرب أن يشفي آلامك!. . . لكن، أظن أن الأسوأ لم يحدُث بعد.

- لا، أيتها الفتاة، لقد انتهى كلّ شيء. سأذهب إلى كُويمْبْرا ما إن أتماثل للشفاء، وشابة المدينة ستبقى في بيتها.

- لو كان كذلك، فقد وعدتُ السيدة العذراء بشمعَتين من الحجم الكبير، لكن قلبي يُخبرني أنك لا تفعل ما تقول.

- أشكركِ على كلّ ما تتمنّينه لي من خير -قال سيماوْ متأثراً- لا أدري ما أسديتهُ لكِ حتى أحظى بصداقتكِ.

- حسناً، ألا يكفي ما قام به والدك تجاه أبي -قالت وهي تكفكف دموعها- ماذا كنت سأصير لو أنه مات وأُعدم في المشنقة كما كان يقول كل الناس!... كنتُ لا أزال صغيرة عندما دخل إلى السجن. كان عمري ثلاث عشرة سنة، لكني كنتُ مصمِّمة على أن ألقي بنفسي في البئر لو حكموا عليه بالموت. ولو حكموا عليه بالنفي كنتُ سأرافقه إلى منفاه، لأموت إلى جانبه. ولا يمرّ يوم لا أدعو فيه الرب ليغدق على والدك من الرضى ما يفوق عددَ نجوم السماء. ذهبت عمداً إلى المدينة لأُقبِّل قدمَي أمك، فرأيتُ أخواتك، وخاصة أختك الصغرى التي أهدَتني تنورة مُطرّزة ما زلت أحتفظ بها بكلّ حرص وعناية. بعد ذلك، كلما ذهبتُ إلى السوق، كنتُ أقوم بجولة كبيرة علّني أجد السيدة ريتا عند نافذة البيت، وكثيراً ما كنتُ أراكَ أنت، يا سيدي. ولعلّك لا تعرف أنني كنتُ أشرب من النافورة، عندما قمتَ يا سيدي، قبل ثلاث سنوات تقريباً، بإشباع أولئك الخدم ضرباً، وقد أحدثَ ذلك صخباً كبيراً كأنه نهاية العالم. حكيتُ ما جرى لوالدي، فانبطحَ على الأرض ضاحكاً كالمجنون... لم أرك بعد ذلك قط، إلّا عندما عدتَ رفقة عمي من كْويمْبْرا، وكنتُ أعرف ما سيقع، لأنني رأيتُ في الحلم دماً كثيراً، وكنتُ أبكي لأنني رأيتُ شخصاً عزيزاً على قلبي يسقط في حفرة سحيقة...

- يا لها من أحلام، يا مارْيانا!

- إنها أحلام، نعم، يا سيدي، لكني لم أرَ قط في حلمي شيئاً لم يتحقّق. عندما قَتَل أبي ذلك المُكاري، كنتُ قد رأيته في الحلم يُطلق النار على رجل؛ وقبل أن تموت أمي، استيقظتُ ذات يوم وأنا

أبكي فقدانها، ثم ماتت شهرين بعد ذلك... أهل المدينة يسخرون من الأحلام، لكن الله وحده يعلم ما تخفيه هذه الأشياء... ها قد جاء أبي... يا إلهي، أرجو ألّا يحمل لنا أخباراً سيئة!

دخل جْواوْ دا كْروشْ يحمل معه رسالة سلَّمتها إياه تلك المتسوّلة المعهودة. عندما كان سيماوْ يقرأ تلك الرسالة الوافدة من الدير، حدَّقت مارْيانا مليّاً بعينيها الزرقاوين الكبيرتين في وجه الطالب، وكان قلبُها ينقبض عند كلّ تقطيبة تعلو تقاسيم جبينه. لم تتمالك قلقها، فسألته:

- هل هي أخبار سيئة؟

- لا، لا -قاطَعَها الطالب- إنه ليس خبراً سيئاً، يا مارْيانا. سيد جْواوْ، اسمح لي أن أتّخذ من ابنتك صديقة، فالأشقياء هم مَن يدركون معنى الصداقة ويقدِّرون قيمتها.

- هذا صحيح؛ لكنها لن تتجرأ لتسألك عن محتوى الرسالة.

- ولم أسأله، يا أبي؛ لكن بدا لي أنّ السيد سيماوْ كان قلقاً وهو يقرأها.

- ولم تكن مخطِئة -أجاب المريض، وهو يلتفت نحو البيطار- لقد زَجَّ والد تيريزا بابنته في الدير.

- يا له من وغد! - قال البيطار، وهو يقوم بحركات عفوية بذراعَيه كمن يخنق بيديه عُنقاً.

في أثناء ذلك، كان بإمكان أيّ ملاحِظٍ حذق أن يرى في عينَي مارْيانا بريقاً يتلألأ وضَوءاً ينمّ عن الفرح البريء.

نهض سيماوْ من سريره، وأخذَ يكتب على كرسي، قرّبته إليه مارْيانا بعفوية، وهي تقول:

- بينما أنت تكتب، سأتفقّد الحساء الذي وضعتُه فوق النار.
كانت رسالة سيماوْ تقول:

«لا بدّ أن أُخرِجكِ من هناك. لا بد أن لهذا الدير أبواباً سرية. ابحثي عنها، وأخبريني بالليلة واليوم الذي عليّ أن أنتظركِ فيه. وإذا لم تتمكّني من الهروب فيجب على هذه الأبواب أن تُفتح أمام غضبي. أما إنْ نقلوكِ من هناك إلى دير آخر بعيد، فأخبريني، وسأذهب لوحدي، أو رفقة أحد ما، لأختطفك في الطريق. لا بد أن تستجمعي قواكِ حتى لا تنفزّعي أمام اندفاع ولعي وصبابتي. أنتِ لي! لا أعرف ما جدوى الحياة إن لم أُضَحِّ بها لإنقاذك. إنني أؤمن بك، يا تيريزا، وبكِ لا غير. ستبقين وفية لي، حيّة أو ميتة. لا تعاني في صبر، بل كافحي مثل بطلة أبيّة. إن الطاعة عارٌ وذلّ إذا كانت سلطة الأب إهانة. اكتبي لي متى استطعتِ. أنا بخير، على أيّ حال. كلمة منكِ تناديني بها وأشعر أنّ الدم الذي فقَدته لا ينال من قوة القلب».

طلب سيماوْ محفظته، أخرجَ منها بعض النقود ثم أعطاها للبيطار، وطلبَ منه أن يقدِّمها إلى المتسوّلة مع الرسالة.

ثم ظلّ يقرأ مرة أخرى رسالة تيريزا، وهو يتذكّر ما جاء فيها.

ذهب جْواوْ إلى المطبخ وقال لمارْيانا:

- إنني أتوجّس شيئاً، يا ابنتي.

- ما هو هذا الشيء، يا أبي؟

- مريضُنا لم يعُد معه مال.

- لماذا؟ كيف عرَفت ذلك، يا أبي؟

- إنه طلب المحفظة ليأخذ منها نقوداً، ولم يكن وزنها يفوق وزن مئانة خنزير مملوءة بالريح. وهذا يؤسفني ويحزّ في نفسي! أريد أن أقدِّم له مالاً، لكني لا أعرف كيف أفعل ذلك...

- سأفكّر في الأمر، يا أبي - قالت مارْيانا، وهي تفكّر.

- حسناً، فكّري أنتِ في ذلك، أفكارك أحسن من أفكاري.

- إذا كنتَ لا ترغب في أن تنفق شيئاً من الأربعمائة ريال، لديّ بعض النقود وفّرتها من العجول التي بعتُها، وهي إحدى عشرة قطعة ذهبية تقريباً.

- نعم، سوف نتحدّث في الأمر، فكري في طريقة يقبل بها النقود دون وخز ضمير.

وكانت كلمة «وخز ضمير» في لغة جْواوْ دا كُروشْ غير الدقيقة، مرادِفة لعبارة «حرج» أو «اشمئزاز».

ذهبت مارْيانا تحمل الحساء لسيماوْ، الذي رفض أن يتناوله وهو شاردٌ في تفكير عميق.

- إذاً، ألا تريد الحساء؟ - قالت بحزن.

- لا أستطيع، ليس لديّ رغبة، يا مارْيانا؛ سأرى بعد ذلك. اتركيني لوحدي بعض الوقت؛ اذهبي، اذهبي؛ ولا تقضي وقتك قرب سرير مريض ضَجِر.

- ألا تريدني أن أبقى هنا؟ سأذهب، وأعود حين تنادي عليّ.

قالت مارْيانا ذلك وعيناها تطفحان دموعاً.

لاحظ سيماوْ دموعها، وفكّر لحظة في تفاني الشابة؛ لكنه لم يقُل لها كلمة تُذكر.

وظلّ يفكر في وضعيته الشائكة. وكانت تخطر بباله أفكار من ذلك النوع الذي قلّما يَنسبه الكُتّاب إلى أبطال رواياتهم. فالرواية تشرح كلّ الأزمات، عدا أزمة المال المُخجِلَة. يرى كُتّاب الرواية أنّ الموضوع حقير ويرتبط برعاع القوم. ويأبى الأسلوب أن يساير الأمور الغريبة. إنّ بَلْزاكْ يتحدث عن المال، لكنه يتحدّث عن مالٍ يُعدّ بالملايين. لا أذكر أنني صادفتُ في كتبه، ولديَّ منها خمسون مؤلّفاً، بطلاً واحداً يتوقّف في لحظة من مآسيه ليفكّر في طريقة يجمع بها مالاً ليسدِّده للخياط، أو ليتخلص من شِباك ينصبه له مُقرض المال في كلّ الأماكن انطلاقاً من منبر القاضي، فيُلاحقه شبح رأس مال القرض وأرباح نسبة الفائدة التي تفوق ثمانين في المائة. هذا ما يتحاشاه كبار الروائيين دائماً. إنهم يَعلمون أنّ اهتمام القارئ يفتر بقدر ما يتقلّص حجم البطل حتى يصل إلى قامة أولئك الأبطال الذين ينفر منهم القارئ الميسور بالغريزة، ويهجره القارئ الآخر بدوره، لأنه لا يليق به. إنّ المسألة مبتَذَلة وتافهة بشكلٍ حقير، وأنا أعترف بذلك بكلّ صدق. إنه ليس أمراً جميلاً أن يترك المرء بطل روايته يصير تافهاً لدرجة أنه يفكِّر في حاجته للمال، لحظات بعد أن كتب إلى المرأة التي يعشقها رسالة كتلك التي خطَّها سيماوْ بوتيلْيو. مَن يقرأها قد يظنّ أنّ الشاب قد وَضَع في كلّ طرقات البلد ومختلف محطاتها عربات مغلّفة وخيولاً قوية لتأخذ تلك الجميلة الهاربة إلى باريس أو البندقية أو إلى اليابان! لا بدّ أنّ الطرق كانت تصلح لهذا الغرض آنذاك، لكني لستُ متأكداً أنه كانت ثمة طرق تذهب إلى اليابان. ربما أصبحت متوافرة، لأنهم أخبروني أن كلّ شيء صار متوافراً اليوم.

لقد أخبرتكم، أعزائي القراء، بحسب ما جاء على لسان جْواو، أنّ ابن قاضي المدينة في حاجة إلى المال. والآن أقول لكم إنه كان يفكّر في المال عندما أتته مارْيانا بالحساء الذي رفض أن يتناوله.

وأظن أنّ هذه الأفكار لا بد أنها كانت تكدِّر صفو باله:

كيف يكافئ جْواوْ دا كْروشْ على ضيافته؟

كيف يشكُر مارْيانا على عنايتها؟

وإذا ما هرَبت تيريزا، فكيف سيعيلها ويُعيل نفسه؟

لقد غادر سيماوْ كْويمْبْرا ومعه مبلغ الشهرية، الذي لم يكن كبيراً، واستنفذه بالكامل تقريباً في أداء ثمن كراء الخيل، والإكرامية السخيّة التي قدّمها إلى البغّال الذي يعود إليه الفضل في تعرّفه المفيد على البيطار.

وما تبقّى من ذلك المبلغ أعطاه لحاملة الرسالة في ذلك اليوم. وضعية سيئة!

فكّر في أن يكتب إلى أمه. وماذا سيقول لها؟ كيف يشرح إقامته في ذلك البيت؟ ألن يقدِّم بهذه الطريقة إشارة على الموت الغامض لخادمَي بالْتازارْ كوتينْيو؟

وبالإضافة إلى ذلك، كان يعرف حقّ المعرفة أنّ أمه لا تكنّ له عطفاً كبيراً، وحتى لو بعثت إليه ببعض المال خلسة فبالكاد سيغطي مصاريف السفر إلى كْويمْبْرا. وضعية أسوأ!

تعبَ من التفكير، فأنعمَت عليه العناية الإلهية، الرفيقة بالأشقياء، بنومٍ عميق.

دخلت مارْيانا إلى القاعة تمشي على رؤوس أصابع رجليها،

فسمعته يتنفّس بهدوء وانتظام، ثم تجرّأت ودخلت إلى غرفة النوم. ألقت منديلاً رقيقاً على وجهه الذي غطته سحابة من الذباب. لمحت المحفظة فوق الكرسي، فأخذَتها وخرجت من الغرفة تمشي على رؤوس أصابع رجليها كما دخلت. فتحت المحفظة، فوجدت أوراقاً، لم تعرف قراءتها، وفي جيب من الجيوب وجدَت قطعتين نقديتين نحاسيتين. وضعَت المحفظة من جديد في مكانها، وأخذت من المشجب سروال ضيفها، وصدريته، وسترته الإسبانية. فتّشت كلّ الجيوب، فلم تعثر على نقير.

توارَت إلى ركن مُظلم من المطبخ، وراحَت تفكّر. ظلت هناك على هذا الحال نصف ساعة، وهي تفكر قلقة تلك الفتاة النبيلة. نهضَت بعد ذلك وتحدَّثت طويلاً مع أبيها. أصغى جْواوْ دا كْروشْ لكلامها، وردَّ عليها حتى أفحَمَته بأجوبتها في النهاية، فقال:

- لكِ ما شئت، يا مارْيانا. أعطِني ما لديكِ من مال، لأنني لن أذهب الآن لأرفع البلاطة وأخرج صندوق الأربعمائة ألف ريال. الأمر سيان: كل شيء في ملكك.

فأسرعت مارْيانا نحو الصندوق، الذي أخرجَت منه كيساً من الثوب به قطع نقدية من الفضة والذهب، وسلاسل، وخواتم، وأقراط. احتفظت بالذهب في علبة، وقدَّمت الكيس لأبيها.

أسْرَج جْواوْ دا كْروشْ الفرس، وانطلق. وعادت مارْيانا إلى غرفة المريض.

استيقظ سيماوْ.

- هل تعلم ما حدث؟! - قالت متعجِّبة والفرح والخوف يتقاسمان تعابير محياها، الذي لم يكن صادقاً تماماً.

- إنّ أمك قد علِمَت بمقامك في بيتنا.

- هل علِمَت؟! هذا غير ممكن! ومَن أخبرها؟

- لا أدري؛ كلّ ما أعرف أنها بعثت تطلب حضور أبي.

- هذا أمر يدهشني!... ولَم تُراسِلني؟

- لا، يا سيدي!... ربما كانت تعلَم بوجودك هنا، ولمّا ظنّت أنك قد غادرت لم تكتب إليك... هل هذا ممكن؟

- ممكن، لكن مَن يكون قد أخبَرها؟ لو عُرف ذلك، فقد يثير شكوكاً حول مَقتل الرجلين.

- وربما لن يحدث ذلك، بل حتى إنْ شكوا في الأمر، فليس ثمة شهود. قالَ أبي إنه لا يشعر بأيّ خوف. وليكن ما يكن. لا تفكِّر في الأمر الآن... سوف آتيك بالحساء، أتريده الآن؟

- اذهبي، يا مارْيانا. لقد أنعمَ عليّ الله فيكِ بحبّ أخت شقيقة.

ولم تعثُر الشابة في قلبها الفرح عن كلمات تردّ بها على ما ارتسم على وجه الشاب من عذوبة وانشراح.

ثم عادَت تحمل الحساء اللذيذ. ربما تكون كلمة «لذيذ» نعتاً يستحبه الكلام الرقيق، لكنه لا يصمد أمام نصف دجاجة محمرة وسمينة.

- كلّ هذا الطعام! - صاح سيماوْ متعجّباً وهو يبتسم.

- كلّ ما استطعت -قالت والحمرة تعلو وجهها- أعرف أنّ أهل المدينة لا يأكلون في أطباقٍ كبيرة كهذه، لكني لا أملك صحناً صغيراً؛ كُلْ من دون اشمئزاز، لأنّ هذا الطبق لم يُستعمل من قبل،

وقد ذهبتُ بنفسي واشتريته من الدكان، فقد ظننتُ أنك لم تأكل البارحة لأنك شعرت بالاشمئزاز من الطبق الآخر.

- لا يا مارْيانا، لا تكوني ظالمة. لم آكل بالأمس للسبب نفسه الذي يمنعني من الأكل الآن: لم تكن لي بالأمس وليست لي الآن أيّة رغبة في الأكل.

- لكن، كُلْ لأنني أطلب منك ذلك، على الأقل... واسمح لي عن هذه الجرأة... واعتبِر أنّ أختك هي مَن تطلب منك ذلك. ألم تقُل لي قبل قليل أنّ...

- أن الله قد أنعمَ عليّ فيكِ بحبّ أخت شقيقة...

- نعم، يا سيدي...

وجد سيماوْ أنّ التضحية ضرورية للحفاظ على صحته، وإرضاء مارْيانا الحنونة. وخطر بباله، دون أدنى غرور، إمكان أن تكون تلك الشابة العذبة تحبّه. وفكّر في قرارة نفسه أنه قد يكون من باب القسوة أن يكون على علمٍ بذلك الشعور ولا يستطيع أن يردّ عليه لا بالجزاء ولا بالكذب. لكنه، بدل الشعور بالندم، كان يستحلي عناية تلك الشابة الطيبة. لا أحد يشعر في ذاته بثقل الحبّ الذي يوحي به للغير ولا يتقاسَمه معهم. وعند أكبر الآلام، وآخر ساعات القلب والحياة، لا يزال يستحلي أنه محبوب، رغم أنه لم يعُد يجد في الحبّ عزاء لشقائه. غرور قلب الإنسان أو رغبته الملحَّة، أو أيّ شيء كان، حبّ الآخرين هو الذي يسمح لنا بتقدير قيمتنا في قرارة أنفسنا.

لكنّ حبُّ مارْيانا لم يكن يزعج عاشقَ تيريزا الولهان. سيكون هذا جناية تنظر فيها محكمة قارئاتي العزيزات؛ لكن إن سمَحتم لي

بإبداء رأيي، سأقول إنّ الذنب يكمُن في طبيعة سيماوْ الهشّة. طبيعة كلّها زينة في السماء، والبحر والبرّ، وكلها براءة، وعبث ورذائل في الإنسان الذي نصّب نفسه مَلِكاً على كلّ المخلوقات، وهو بهذا الإيمان يحيا ويموت.

9

ظلّ جْواوْ دا كْروشْ متوقفاً ساعتين أمام بيته، ولم يصل إلّا حين استحالَ فضول الطالب عذاباً.

- هل ألقوا القبض على أبيكِ؟ - سألَ مارْيانا.

- إنّ قلبي لا يُخبرني بذلك، وقلبي لا يخدعني أبداً - أجابته.

فردّ سيماوْ قائلاً:

- وماذا يقول لك قلبك عني، يا مارْيانا؟ هل ستنتهي محني وآلامي عند هذا الحدّ؟

- سأقول لك الحقيقة، سيد سيماوْ... لكني لن أقول...

- قولي، إنني أطلبُ منك ذلك، ولأنني أثقُ بالملاك الطيب الذي يتحدّث على لسانك. قولي...

- حسناً... قلبي يحدِّثني ويقول إنّ محنك وآلامك ليست سوى في بدايتها...

استمَعَ إليها سيماوْ باهتمامٍ ولم يُجِبْ. كدّر صفوَ مزاجِه أن تصدر مثل تلك الفكرة الملتوية والمشينة عن هذه الشابة البسيطة. «هل تريد أن تُبعدني عن تيريزا كي تظفَر بحبي؟» قال مع نفسه.

وبينما هو يفكّر في الأمر، وصلَ البيطار.

- ها قد عدتُ - قال بوجهٍ سعيد. لقد استدعتْني أمك.

- أعرف ذلك... وكيف علمَتْ أنني هنا؟

- كانت تعرف أنك هنا، لكنها ظنَّت أنك قد غادرتَ إلى كُويمْبْرا. لا أعرف مَن أخبرها بذلك، ولم أسألها؛ لأنه لا يليق سؤال شخصٍ من مقامها. قالت إنها تعرف الهدف من قدومك للاختباء هنا. غضبَتْ بعض الشيء، لكني حاولتُ أن أهدِّئها، فمضَت مرتاحة ومسرورة. سألتني ماذا كنت تفعلُ هنا بعد أن دخلت تيريزا إلى الدير. فقلت لها إنك مريض تعاني بعد أن سقطت من أعلى ظهر الفرس. ثم سألتني إن كنتَ تتوفّر على مال فأجبتُها أنني لا أعرف شيئاً. ثم دخلت إلى البيت وعادت بعد ذلك تحمل هذه الصرّة لأقدِّمها لك. وها هي كما سلَّمتْني إياها، لا أدري كم بها من نقود.

- ولم تكتُب لي أية رسالة؟

- قالت إنها لا تستطيع أن تدخل إلى المكتب، لأنّ والدك كان هناك -أجابه جُواوْ بحزم- ثم طلبت مني أن أقول لك بألّا تكتب إليها إلّا عندما تكون في كُويمْبْرا لأنه لو علم أبوك أنك هنا فإنّ الوضع سيزداد سوءاً.

- ولم تتحدَّث عن خادمَيْ بالْتازارْ؟

- لم تأتِ على ذكرهما بتاتاً!... ولا أحد في المدينة يتحدَّث اليوم عن هذا الموضوع.

- وماذا قالت لك عن تيريزا؟

- لا شيء، سوى أنها دخلت إلى الدير. والآن دعْني أُدثِّر هذه الفرس، التي ترتعش من البرد. هاتني الغطاء، يا بنت.

وبينما كان سيماوْ يعدّ الإحدى عشرة قطعة من النقود، وهو مندهش لكلّ هذا السخاء، كانت مارْيانا تعانق أباها في الغرفة المجاورة، وهي تصيح متعجِّبة:

- لقد نفَّذْتَ الكذبة على أحسن ما يرام!

- يا ابنتي، أنتِ صاحبة الكذبة! كلّ شيء كان من تدبير عقلك الصغير هذا! لكن كلّ شيء تمّ على أحسن ما يرام، أليس كذلك؟ لقد صدَّق بكلّ سهولة! وها أنتِ الآن بلا عجول، لكن سيأتي وقت يعطيك فيه ثيراناً مقابل العجول.

- إنني لم أقُم بذلك سعياً وراء مصلحة، يا أبي... - قاطَعَته مستاءة.

- طبعاً، أعرف ذلك. لكن، وكما يقول المثل «مَن جَدّ وَجَد ومَن زرع حصد».

ظلّت مارْيانا غارقة في أفكارها، وهي تقول مع نفسها: - لحُسن الحظ أنه لا يظنّ بي ما يظنه أبي. والله يعلم أنني لم أقُم بذلك سعياً وراء أية مصلحة.

نادى سيماوْ على البيطار، وقال له:

- عزيزي جْواوْ، لو لم يكُن معي مال لقبلتُ دون اعتبار جميلك، وأظنّ أنك قد تغدِق عليّ بجميلك دون طمع في جني أيّ ربح، لكن بما أنني توصلتُ بهذا المبلغ اسمَح لي أن أقدِّم لك قسطاً منه لتغطية مصاريف مؤونتي. لديّ ما يكفي من الأسباب لأظلّ مَديناً لك بأمور لا تقدَّر بثمن، ولديّ أيضاً من الأسباب ما يجعلني لا أنساك أبداً أنتَ وابنتك الطيبة. خُذْ هذا المال.

- الحساب عند الختم -أجابه البيطار، وهو يسحب يده- ولا

أحد يسمعنا، بمشيئة الله. لو احتجتُ إلى مالٍ سأطلبه منك. أمّا الآن، فما زال الخُمُّ يعجّ بالدجاج، والخبز يُطهى كلّ أسبوع.

- لكن، خُذه -ألحّ سيماوْ- وأنفِقْه كيفما شئت.

- في بيتي، أنا صاحب الأمر والنهي -ردّ عليه جْواوْ، بنوع من الحنق المكبوت- احتفظ بمالك أيها النبيل، ولنترك هذا الموضوع نهائياً، إذا أردتَ أن نتفاهم.

خلال الأيام الخمسة الموالية توصَّل سيماوْ بانتظام برسائل من تيريزا. بعضها حزينة تنمّ عن الاستسلام، وبعضها عاصفة تعبِّر عن الغضب والحنين. تقول إحداها:

«لا بد أنّ أبي يعلم أنك هناك، وما دمت هناك لن تستطيع أن تخرجني من الدير. قد يكون من الأحسن أن تذهب إلى كْويمْبْرا، ونترك أبي لينسى ما وقع من أحداث في الآونة الأخيرة. وإلا فإنه، يا حبيبي، لن يعطيني حريتي، ولا أنا أعرف كيف أفرّ من هذا الجحيم. إنك قد لا تتصور حياة الدير! لو استطعتُ أن أضحي بقلبي من أجل الرب لبحثتُ عن مكان أقل من هذا المكان رذيلة وإثماً. أظنّ أنه يمكن للمرء أن يصلي ويسعى إلى الفضيلة في أي مكان آخر غير هذا المكان».

وتعبِّر في رسالة أخرى بهذه الكلمات:

«لا تتركني لوحدي يا سيماوْ، ولا تذهب إلى كْويمْبْرا. أخشى أن يُخرجني أبي من هذا الدير ويأخذني إلى دير آخر أكثر صرامة. لقد أخبرَتْني إحدى الراهبات أنني لن أبقى هنا، وأكّدت لي أخرى

أنّ أبي يقوم بالترتيبات لأغادر نحو دير في مدينة بورْتو. لكن، ما يفزعني، رغم أنه لا يجعلني أرضخ، هو أنني أعلم أن أبي يريدني أن أنذر حياتي للرهبانية. ومهما تخيّل من أشكال العنف والاستبداد، لا أرى أنّ أيّ واحد منها يستطيع أن يحملني على القبول علناً بدخول الرهبانية. لا يمكن أن أنذر نذر الرهبانية دون أن أقضي سنة مع المبتدئات، ثم إنهم سيسألونني ثلاث مرات، وسأجيب دائماً بلا. آه لو استطعتُ أن أفرّ من هذا المكان!... بالأمس ذهبتُ إلى البستان ورأيتُ أنّ هناك باباً يؤدي إلى الطريق. علمتُ أنّ ذلك الباب يُفتح أحياناً لإدخال العربات المُحمَّلة بالحطب؛ لكنه، للأسف، لا يُفتح من جديد إلّا مع بداية فصل الشتاء. إذا لم أستطِع الهروب قبل ذلك، حبيبي سيماوْ، فسأهرب حينئذٍ».

في أثناء ذلك لَقِيَتْ ترتيبات تادِيو دي ألْبوكيرْكي نجاحاً سريعاً وفعالاً. ظنَّت رئيسة دير مونْشيكي، وهي راهبة تتمتع بفضيلة عالية، أنّ ابنة ابن عمّها تلجُ الدير بدافع التقوى وحبّ الرب، فهيَّأت لها غرفة، وهي تهنِّئ نفسها بابنة ابن عمّ اتخذت قرار التقوى والورع. لكنّ تيريزا لم تتوصل برسالة التهنئة التي تسلَّمها أبوها. وكانت تضمّ أفكاراً تروم ثنيها عن هذا القرار إذا ما كان حُزن أو استياء عابر هو ما يدفعها دون تدبّر إلى البحث عن ملجأ لن يزيد أهواءها إلّا هيجاناً وتفاقماً.

بعد اتّخاذ كل هذه الاحتياطات، أخطرَ تادِيو دي ألْبوكيرْكي ابنته أنّ عمّتها في مونشيكي تريدها بصحبتها لبعض الوقت، وأنّ السفر سيكون عند الفجر في اليوم الموالي.

عندما تلقَّت تيريزا النبأ المفاجئ كانت قد بعثَت برسالة ذلك اليوم إلى سيماوْ. ووسط حيرتها القلقة، قرَّرَت أن تتظاهر بالمرض، وكانت مريضة بالفعل لكثرة ما أصابها من حمى وانفعال، حتى إنّ التظاهر لم يكن ضرورياً. لم يتساهل العجوز مع المرض، لكن طبيب الدير أبدى معارضة شديدة لفظاظة الأب وقسوة رئيسة الدير، التي تَميل إلى هذا العمل العنيف. أرادت تيريزا تلك الليلة أن تكتب إلى سيماوْ، لكن مساعِدَة الرئيسة، خضوعاً لشكوك هذا الأخير، لم تبرَح رأس سرير المريضة. وكان الداعي إلى ذلك التجسُّس أنّ الكاتبة، حين استعصى عليها أن تستسيغ ذلك الخمر المساعِد على الهضم، قالت إنّ تيريزا تقضي الليل في الصلاة الذهنية، وتُراسل ملاكاً من السماء بواسطة إحدى المتسوّلات. وكانت بعض الراهبات قد رأينَ المتسولة في فناء الدير تنتظر صدَقة تيريزا؛ لكنهن ظننَّ أنّ تلك المتسوّلة تحظى برعاية تيريزا وتقواها. تمّ تَداولُ كلام الكاتبة الساخر، فأُمرَت المتسوّلة بالابتعاد عن بوابة الدير. عندما علمت تيريزا بالأمر، وفي نوبة من القلق، هرعت إلى النافذة ونادت على المتسوّلة التي كانت تنسحب مذعورة، وألقَت باتجاهها في الفناء ورقة كتب عليها: «**لقد أصبحَت مراسلاتنا مستحيلة. سيُخرجونني من هذا الدير نحو دير آخر. انتظر أخباري في كُويمْبْرا**». وسرعان ما علمت الرئيسة بما حدث، فقام البستاني، تنفيذاً لأوامرها، بتعقّب آثار المتسوّلة. تعقّبها حتى خارج الأبواب، فأوسعَها ضرباً، وأخذ منها الورقة وذهب ليسلِّمها إلى تادِيو دي ألْبوكيرْكي. لكن المتسوّلة لم تتراجع، بل اتجّهت نحو بيت البيطار وحكَت لسيماوْ كلّ ما وقع.

نهض سيماوْ مسرِعاً من سريره ونادى على جْواوْ دا كْروشْ. في

تلك اللحظات العصيبة كان يريد أن يسمع صوتاً، وينادي رجلاً ما صديقاً يمدّ له يداً قادرة على أن تُشهر سكيناً. استمع البيطار للحكاية وأدلى برأيه: «انتظر حتى ترى». رفض سيماوْ الاحتراس الفاتر لأمين سرّه، وقال إنه ذاهب إلى فيزيوْ حالاً.

وكانت مارْيانا هناك، فسمعَت كلّ ما دار بينهما، ورأت أنّ أباها على صواب. لكن، أمام قلق الضيف، طلبَت الإذن بأن تقول شيئاً في موضوعٍ لم يستَشِرْها فيه أحد، وقالت:

- إذا أردتَ، يا سيدي، سأذهب إلى المدينة وأبحث في الدير عن بْريتو. إنها فتاة أعرفُها، تشتغل مساعِدَة لإحدى الراهبات. أسلِّمها الرسالة كي تحملها إلى تيريزا.

- وهل هذا ممكن، يا مارْيانا؟! صاحَ سيماوْ متعجّباً، وهو على وشك أن يعانق الشابة.

- حسناً! -قال البيطار- يجب القيام بما هو ممكن. ارتدي ملابسكِ، يا ابنتي، وسأذهب لأُسرج الفرس.

جلس سيماوْ ليكتب. وكانت الأفكار تتضارب في ذهنه، حتى أنه لم يخرج بخطّة تلائم ظروف الطرفين. وبعد طول تردّد، أمر تيريزا أن تهرب، في ساعة من النهار يكون فيها الباب مفتوحاً، أو تُجبِرَ بالعنف البوّابة على أن تفتح لها الباب. وقال لها إنّ عليها أن تحدِّد ساعة في اليوم الموالي لينتظرها بالخيل استعداداً للهروب. وكحلٍّ أقصى، وعدَها بأن يهاجم الدير رفقة رجالٍ مسلّحين أو يُضرم فيه النار حتى يفتحوا الأبواب. وهذه الخطّة كانت أشبَه ما تكون بمزاج الطالب واندفاعه. لقد كان عقله المسكين يحترق ناراً! أغلق الرسالة، وراح يجُول مضطرباً، كأنّ دوافع متضاربة تتجاذبه. يغرس

أظافره في رأسه وينتف شعره. يضرب رأسه بالحائط، ثم يجلس للحظة قبل أن ينهض من جديد وقد ازدادَ اندفاعاً وهيجاناً. يُمسك المسدسين بشكلٍ آلي، ويحرِّك ذراعيه في دُوار. يفتح الرسالة ليقرأها من جديد، وكان على وشك أن يمزّقها، وهو يظن أنها ستصل متأخرة، أو أنها لن تتوصّل بها. وكان سيماوْ على هذه الحال من الأفكار المتضاربة في ذهنه حين دخلت مارْيانا، فلم ينتبه إلى الدموع في عينيها لشدّة ما كان يعاني من الهَلَس.

آه، كم كنتَ تعاني، يا قلب المرأة الطاهرة! إذا كان ما تقومين به من أجل هذا الشاب اعترافاً بجميلِ رجلٍ أنقذ حياة والدك، فما أغرب فضيلتك! وإذا كنتِ تحبّينه، ومن أجل تخفيف آلامه، تُعبِّدين له الطريق بنفسك ليهرب معها إلى الأبد، فماذا أسمي فضيلتك! أيّ ملاك نذرَ قلبك قرباناً لهذه التضحية الغامضة؟!

- أنا مستعدة - قالت مارْيانا.

- ها هي ذي الرسالة، يا صديقتي العزيزة. احرصي على ألّا تعودي إليّ من دون جواب - قال سيماوْ، وهو يقدِّم لها مع الرسالة صرّة من النقود.

- وهذا المال أيضاً من أجل السيدة؟ - قالت.

- لا، إنه من أجلكِ أنت، يا مارْيانا. اشتري لنفسك خاتماً.

أخذت مارْيانا الرسالة وأدارت ظهرها بسرعة، حتى لا يرى سيماوْ ما علا وجهها من تعابير الغيظ، بل والاشمئزاز.

لم يلحّ عليها الطالب، وهو يراها تنزل مسرعة إلى فناء الحظيرة، حيث كان البيطار يُبردع الفرس.

- لا تضربي الفرس كثيراً بالعصا - قال جْواوْ دا كُروشْ الذي جلسَ بقفزة واحدة على البردعة المغشاة بغطاء قرمزي.

- أنتِ صفراء كالليمونة، يا ابنتي! صاحَ متعجِّباً، وهو يلاحظ وجهَها الشاحب، - ماذا بكِ؟

- لا شيء؛ ما الذي قد يُصيبني؟! أعطني العصا، يا أبي.

انطلقَت الفرس تعدو حُضْراً، ووسط الطريق أمعَنَ البيطار النظر فيها وفي ابنته فناجى نفسه بكلامٍ سمعه سيماوْ:

- أنتِ، يا ابنتي لوحدكِ، أغلى من كلّ نبيلات فيزيوْ. لن أستبدل فرسي بأحسن فرس مرقطة، ولن أزوِّج ابنتي لسلطان المغرب إن جاء يطلب يدها. وليأخُذني الشيطان إلى الجحيم إنْ أنا فَعَلت! هذه هي ما نسمّيها امرأة، أما البقية فمجرّد حماقة!

10

توقفت مارْيانا أمام باب الدير، واتّجهت نحو الباب لتنادي على صديقتها بْريتو.

- يا لها من فتاة جميلة! - قال الأب الكاهن، الذي كان في البُويب الجانبي من المدخل، يتحدث مع رئيسة الدير حول خلاص الأرواح وعن بعض براميل الخمر التي توصّل بها في ذلك اليوم، والتي وضَع منها في القنينات عدّة ليترات لتنعش بها الرئيسة مَعدتها.

- يا لها من فتاة جميلة! - قال مرة أخرى، وهو يرمي عيناً على الفتاة وأخرى على البُويب، حيث ظلّت رئيسة الدير الغيور تعضّ شفتيها.

- دَعْ عنك الفتاة، وأخبِرني متى يمرّ الخادم ليأخُذ الخمر.

- متى شئتِ، سيدتي الرئيسة. لكن، انظري إلى ذلك القدّ، وانتبهي إلى ذلك الحسن!...

- انتبه أنت أيها الأخ جْواوْ - أمّا أنا فلديّ كثير ممّا عليّ أن أقوم به.

وانسحبَت بقلبٍ كسير، وهي تستشيط غضباً.

- من أين أنتِ؟ - قال الأب الكاهن بكلّ رقة لمارْيانا.
- أنا من القرية، أجابت مارْيانا.
- هذا ما أراه... لكن أية قرية؟
- لن أقوم بالاعتراف الآن.
- لا ضرَر في أن تعترفي لي، أيتها الشابة، فأنا كاهن...
- يا له من طبع سيئ!...
- عادي.
- مَن جئت تسألين عنه في الدير؟
- لقد أخبرتُهم هناك في الداخل بمَن جئت أسأل عنه.
- مارْيانا! أهذه أنتِ؟ تعالي!

حيّت الشابة الكاهن بإيماءة من رأسها، واتّجهت نحو قاعة المحادَثَة التي كان يصدر منها الصوت المنادي.

- أودّ أن أتحدث معكِ على انفراد يا جْواكينا - قالت مارْيانا.
- سوف أرى إن كنتُ أستطيع أن أجد نافذة. انتظري.

كان الأب قد خرجَ إلى الفناء، وبينما كانت تنتظر فحَصَت مارْيانا، واحدة واحدة، كلّ نوافذ الدير. وفي إحدى النوافذ، رأت من خلال القضبان الحديدية، سيدة لا تلبس مسوحاً.

- هل تكون هي تلك السيدة؟ -سألت مارْيانا قلبَها، الذي كان يخفق- آهٍ لو كنتُ أحظى بما تحظى به من الحب!...
- اصعدي تلك السلاليم، يا مارْيانا، وادخلي عبر أوّل باب في الرواق، أنا ذاهبة إلى هناك - قالت جْواكينا.

تقدّمت مارْيانا بضع خطوات، نظرت من جديد باتجاه النافذة حيث رأت السيدة التي لا ترتدي مسوحاً، وقالت مرة أخرى:

- آه لو كنتُ أحظى بما تحظى به من الحب!...

وما أنْ دخَلَت إلى قاعة المحادثة حتى قالت لصديقتها:

- أخبريني يا جُواكينا، مَن تكون تلك الفتاة الغرّاء، البيضاء بياض الحليب، التي كانت قبل قليل في إحدى النوافذ؟

- ربما تكون إحدى المبتدئات، هناك اثنتان جميلتان جداً.

- لكنها لم تكن ترتدي أيّ مسوح.

- آه، تلك هي السيدة تيريزا دي ألْبوكيرْكي.

- إذاً، لم أكُن مخطئة - قالت مارْيانا وهي تفكر.

- هل تعرفينها؟

- لا، ولكني جئتُ إلى هنا لأتحدّث معك من أجلها.

- مَن تكون؟ وما علاقتك أنتِ بتلك النبيلة؟

- من جهتي، لا علاقة لي بها، لكني أعرف شخصاً يحبّها حباً كبيراً.

- ابن قاضي المدينة؟

- نعم، إنه هو.

- لكنه الآن في كُويمْبْرا.

- لا أعرف إن كان هناك أم لا. هل تسدِين لي خدمة؟

- إنْ كنتُ أستطيع ذلك...

- إنك تستطيعين ذلك... أودّ أن أتكلّم معها.

- عجباً! لستُ أدري إن كان هذا ممكناً لأن الأخوات لا يغفَلْن عنها طوال الوقت، وستغادر الدير غداً.

- وأين ستذهب؟

- ستذهب إلى دير آخر، لا أعرف إن كان في لشبونة أو في

بورْتو. لقد أعدّوا الحقائب، وهي متلهّفة للذهاب. وأنتِ، ماذا تريدين منها؟

- لا أستطيع أن أخبركِ لأنني لا أعرف ذلك... أريد أن أقدِّم لها ورقة مكتوبة... حاولي أن تجعليها تأتي إلى هنا، وسأعطيكِ قماشاً تصنعين منه فستاناً.

- كم أنتِ غنية، يا مارْيانا!... -قاطعتها جْواكينا- إنني لا أريد قماشاً، أيتها الفتاة. إنْ استطعتُ أن أقول لها أن تأتي دون أن يسمعني أحد فسأفعل. والآن حان وقت الصلاة... دعيني لأذهب...

وأنجزت جْواكينا مهمّتها على أحسن وجه. كانت تيريزا لوحدها غارقة في أفكارها، وعيناها تحدّقان في النقطة التي رأت فيها مارْيانا.

- أيتها الشابة، هل تأتين معي الآن بسرعة؟ - قالت الخادمة.

تبعتها تيريزا، ودخلت إلى قاعة المحادثة، التي أغلقتها جْواكينا من ورائها، وهي تقول:

- اقرعي الباب من الداخل بأسرع وجهٍ ممكن كي أفتح لك. وإن سألوا عنك سأقول إنكِ ذهبت للنزهة في الحديقة.

وارتعش صوت مارْيانا، عندما سألتها السيدة تيريزا مَن تكون.

- إنني أحمل هذه الرسالة لحضرتك، يا سيدتي.

- رسالة من سيماوْ! - صاحت تيريزا متعجِّبة.

- نعم، يا سيدتي.

وقرأت حبيسة الدير مضطربة الرسالة مرتين، ثم قالت:

- إنني لا أستطيع أن أكتب إليه، فقد سرقوا مني المحبرة، ولا

أحد يعيرني واحدة. أخبريه أنني سأذهب غداً إلى دير مونْشيكي، في بورْتو. وأنّ عليه ألّا يقلق لأنني سأظلّ كما عهدني. وألّا يأتي إلى هنا، لأنّ ذلك أمرٌ خطير ولا جدوى منه. وليذهب إلى بورْتو، سأتدبر طريقة تمكّنني من لقائه والحديث معه. أخبريه بكلّ هذا، أفهمتِ؟

- نعم، سيدتي.

- لا تنسي أيّ شيء مما قلتُ. عليه ألّا يأتي إلى هنا، بأيّ شكل من الأشكال. يستحيل أن أفرّ، لكثرة مَن يرافقونني. يرافقني ابن عمي بالْتازارْ وبنات عمي، وأبي، ولست أدري كم من الخدم والمتاع والعربات. قد تكون حماقة غير محمودة العواقب إنْ هو حاول أن يختطفني في الطريق. أخبريه بكلّ هذا، هل ستفعلين؟

وجاءت جْواكينا لتقول من وراء الباب:

- أيتها الفتاة، إنّ السيدة الرئيسة تبحث عنك هناك في الداخل.

- وداعاً، وداعاً -قالت تيريزا متربكة- خذي هذا تذكاراً وعرفاناً لكِ بالجميل.

وخلعَت من أصبعها خاتماً ذهبياً وقدَّمته إلى مارْيانا.

- لا أستطيع أن أقبَله منك، يا سيدتي.

- لماذا لا تقبلينه؟

- لأنني لم أُسْدِ أيّ معروف لحضرتك. إن كنتُ سأقبل جزاءً فسيكون من يَد مَنَ أرسلني إلى هنا. أتركك في رعاية الله، يا سيدتي، وأتمنّى أن تكوني سعيدة.

خرجت تيريزا، ودخلت جْواكينا إلى قاعة المحادثة.

- هل أنتِ ذاهبة الآن، يا مارْيانا؟

- نعم، أنا ذاهبة، لأنني على عجل. سآتي يوماً لأتحدث معك طويلاً. وداعاً، جْواكينا.

- حسناً، ألن تُخبريني بهذا الأمر؟ هل حبيب النبيلة بالقُرب من هنا؟ احكِ، لن أقول أيّ شيء، أيتها الفتاة!...

- في مناسبة أخرى، في مناسبة أخرى، شكراً، يا عزيزتي جْواكينا.

وهي تمشي بسرعة، ظلّت مارْيانا تردِّد كلمات السيدة النبيلة؛ ولم يكُن يلهيها عن تمرين التذكُّر هذا غير ما كان يجول في ذهنها من أفكار حول ملامح حبيبة ضيفها، وهي تقول سراً لقلبها: «لا يكفيها أن تكون نبيلة وغنية؛ إنها أيضاً جميلة جمالاً لم يسبِق لي أن رأيتُ له نظيراً!». وكان قلب الشابة يبكي إذعاناً لِما يُمليه عليه ضميرُها.

وكان سيماوْ ينتظر متلهفاً وهو يُصغِّي السمع علّه يسمع حُضْر الخيل عبر الطريق.

حين رأى مارْيانا، نزل إلى فناء الحظيرة، غير عابئ بأيّ احتراز وناسياً جراحه، التي استفحلت آلامها في ذلك اليوم، الذي كان هو الثامن منذ أن أصيب بطلقة النار.

أبلَغَته بنت البيطار بالرسالة الشفوية، دون تغيير أو حذف. أنصَتَ إليها سيماوْ بهدوء حتى أتَت على ذكر أنّ ابن العم بالْتازارْ يرافق تيريزا إلى بورْتو.

- ابن العم بالْتازارْ!... غمغم بابتسامة مشؤومة. -دائماً ابن العم هذا يحفر قبره وقبري!...

- قبرك، يا سيدي؟! -قال جْواوْ دا كْروشْ متعجباً.- ليمُت هو، وليذهب إلى الجحيم! أمّا أنت، يا سيدي، فستحيا ما دام

اسمي جْواوْ. دعها تذهب إلى بورْتو، فلا خوف عليها في الدير. وربما يأتي الفرج من الرّب بعد ذلك. اذهب، يا سيدي، إلى كُويمْبْرا، وامكُث فيها بعض الوقت، وفي غفلة من العجوز، ستَخدعه النبيلة على حين غرة، وستكون بين يديك حقيقة وضّاحة مثل هذا الضوء الذي ينيرنا.

- عليَّ أن أراها قبل أن أذهب إلى كُويمْبْرا - قال سيماوْ.

- حذار، لقد ألحّت عليّ أن أنصحك بألّا تذهب إلى هناك - قالت مارْيانا.

- بسبب ابن العم؟ ردّ عليها الطالب ساخراً.

- أظنّ ذلك، وربما لأنه لا جدوى من ذهابك إلى هناك، يا سيدي - أجابت الشابة بخجل.

- إنْ شئتَ، يا سيدي -صاح جْواوْ- نختطف منه المرأة في الطريق؛ وانتهى الأمر.

- يا أبي، لا تزِدْ متاعبَ هذا الرجل صعوبة وتعقيداً - قالت مارْيانا.

- لا تشغلي بالك، يا مارْيانا -قاطعها سيماوْ- إنني حريصٌ على ألّا أورِّط أحداً معي في هذه المحن. أنا قادر على النضال لوحدي في محنتي، مهما كانت كبيرة.

وبعد أن اتّخذ وجهُه صرامة قلّما عُهدت فيه، قال جْواوْ دا كْروشْ:

- سيد سيماوْ، أنتَ رجل تنقصك تجارب الحياة. لا تُلقِ بنفسك وحيداً في دوامة المصاعب، لأنها، كما يُقال، إن تآلبت على المرء خنقَته وأخذَت أنفاسه. أنا ريفيّ من أهل البادية، لكني كما

يُقال، تعلَّمت البيطرة وأنا أعالج حمير حظيرتي. الأهواء... لتذهب إلى الجحيم ولتحمِل معها كلّ مَن تعلَّق بها وسعى إليها. لا يصحّ لرجل أن يفقد صوابه بسبب امرأة، ولو كانت بنت الملك. النساء كُثر، وعددهنّ يضاهي ضفادع المستنقع، تغطس واحدة فتطفو أربعة فوق سطح الماء. رجلٌ غني ونبيل مثلك، يا سيدي، أينما ولّى وجهه يجد امرأة جميلة كما يريد، ومعها مهر يملأ الأنظار ويشفي الأبصار. دعها تذهب لحالها أو إلى الجحيم؛ وإن كانت من نصيبك فستأتي بين يديك، وكما يُقال: لا يهمّ أن يمشي المَرء قُدُماً أو إلى الخلف. لأن جْواوْ دا كْروشْ يعرف كيف يسحَق رجُلين في رمشة عين. حذار، هذا ليس خوفاً، أيها النبيل. إذا أردتَ أن تعترض طريق الموكب، وتختطف تلك الفتاة من أبيها، وابن عمها، بل ومن كلّ حاشيتها وحَرَسها، إن كان ذلك ضرورياً، فسأمتطي فرَسي، وسأعود بعد ساعتين أو ثلاث رفقة أربعة رجال مثل وحوش ضارية.

حدَّق سيماوْ في البيطار بعينين يتطاير منهما الشرر، وصاحت مارْيانا متعجِّبة، وهي تضع يديها فوق صدرها:

- يا أبي، لا تقدِّم له مثل هذه النصائح!...

- اسكتي، يا بنت! -قال جْواوْ- اذهبي وانزعي البردعة عن الفرس، ثم دثِّريها وأطعميها. لا دخلَ لك في هذا الموضوع.

- لا تقلقي، سيدة مارْيانا -قال سيماوْ إلى الشابة التي انسحبت كئيبة- إنني لا أعمل بكلّ نصائح أبيك. أصغي إليه باهتمام، لأنه يريد لي الخير، لكن عليّ أن أقوم بما يمليه عليّ الشّرف والقلب.

ومع حلول الليل، وجدَ سيماوْ نفسه وحيداً فكتب رسالة مطوّلة، نقتطف منها هذه المقاطع:

«إنني أعتبركِ قد ضعتِ مني، يا تيريزا. ربما لن أرى شمس صباح يوم غد. كل شيء من حولي صار يحمل لون الموت. يبدو أنّ برودة القبر بدأت تنفذ إلى دمي وعروقي.

لا أستطيع أن أكون كما كنتِ تريدينني أن أكون. حبي لا يرضى بالبلوى وسوء الحظ. كنتِ حياتي: كنت متأكداً أن الأحداث لن تحرمني منك. ما يقتلني فقط هو الخوف من فقدانكِ. ما بقي لي من الماضي هو الشجاعة في البحث عن موتٍ يليقُ بي وبك. إن كنتِ تقدرين على الاحتضار البطيء، فأنا لا أطيقه.

قد أستطيع العيش مع حبّ مشؤوم؛ لكن هذا الحقد من غير انتقام جحيم. ولستُ مجبَراً على أن أقدِّم حياتي هباء، أليس كذلك! ستبقين من دوني، يا تيريزا؛ لكن لن يكون ثمة لئيم يلاحقك بعد موتي. إنني أغارُ من كلّ لحظاتك. سوف تذكرين بعطف زوجك في السماء، ولن ترفعي عينيك عن روحي لتنظري بجانبك إلى ذلك الحقير الذي اغتال حقيقة كلّ أحلامنا الجميلة.

سوف تقرئين هذه الرسالة حين أكون قد ولجتُ عالماً أفضل، أنتظر فيه صلوات دموعك. الصلوات! يدهشني هذا القبس من الإيمان الذي ينير قلبي!... أنتِ وَهبتني الإيمان مع الحب، يا تيريزا. إنني مازلتُ أؤمن، ولم ينطفئ نورك، لكن العناية الإلهية خذلتني.

تَذَكَّريني. عيشي، لتشرحي للعالم، واضعة وفاءَك جانباً، السبب الذي جعلَك تجذبينني إلى الهاوية. وستصغين بفخر إلى صوت العالَم، وهو يقول إنك جديرة بي.

حين ستقرئين هذه الرسالة...».

وحالت الدموع دون مواصلته قراءة الرسالة، حتى بعد قدوم مارْيانا. جاءت لتحضّر مائدة العشاء، وحين كانت تبسط الشرشف فوق المائدة قالت بصوت مكتوم، كما لو أنها تحدّث نفسها:

- إنها آخر مرة أحضِّر فيها المائدة للسيد سيماوْ في بيتنا.

- لماذا تقولين هذا، يا مارْيانا؟

- لأنّ قلبي يحدِّثني بذلك.

اعتبر الطالب، هذه المرة، تنبؤات قلب الشابة من باب التطيّر، وقدَّم لها بِصَمْتِه الغارق في التأمّل دليلاً على أنها لم تكُن مخطئة.

وحين عادَت تحمل قصعة الدجاج، كانت بنت جْواوْ دا كْروشْ تبكي.

- هل تبكين حزناً عليّ، يا مارْيانا؟ - قال سيماوْ متأثراً.

- أبكي لأنني أظنّ أنني لن أراك مرة أخرى؛ أو حتى لو رأيتكَ فستكون على حال أتمنى أن أموت قبل أن أراكَ عليها.

- ربما لن يكون كذلك، يا صديقتي.

- هل ستستطيع أن تقوم بشيء أطلبه منك، يا سيدي؟

- هذا يتوقف على طبيعة ما تطلبين.

- لا تسافر هذه الليلة، ولا غداً أيضاً.

- إنكِ تطلبين المستحيل، يا مارْيانا. عليّ أن أسافر، لأنه إنْ لم أفعل فسأقتل نفسي.

- إذاً أستسمحك على هذا التجرؤ. وليرعاك الله ويحفظك.

ذهبت الشابة وأخبَرَت والدها بنوايا الطالب. وجاء جْواوْ ليثنيه عن فكرة السفر، وهو يُهوِّل من أخطار الجرح. بعد ذلك، وحين لم

يفلح في ثنيه، قرَّر أن يرافقه. شكَره سيماوْ على العرض، لكنه رفض القرار. بَيْدَ أنّ البيطار لم يتراجع عن نيته، واستمرّ يهيئ البندقية ويحضِّر علف الفرس تحسّباً لما قد يقع، حين جاء الطالب وأخبَرَه أنه بعد تفكير عميق قرَّر ألّا يذهب إلى فيزيوْ وأن يلحق بتيريزا في بورْتو بعد أن تشفى نهائياً من المرض. صدَّق جْواوْ دا كْروشْ كلامه بسهولة، لكن مارْيانا، التي لا تؤمن سوى بما يُمليه عليها قلبها، ارتابت من هذا التحوّل، وطلبت من أبيها أن لا يغفَل عن النبيل.

عند الساعة الحادية عشرة ليلاً نهض الطالب وأصغى إلى الحركة داخل المنزل، فلم يسمع أدنى صوت إلّا من صليل الرسن في مذود الفرس. شحنَ المسدسين بذخيرة جديدة. كتب رسالة إلى جْواوْ دا كْروشْ، وأرفَقَها بتلك التي كتبها إلى تيريزا. فتح مصراعَي نافذة غرفته، ومنها مرَّ نحو الشرفة الخشبية، ثم قفزَ إلى الطريق دون خطر. بعد أن قفز وسار بضع خطوات، فتح نافذة أخرى، فسمع صوت مارْيانا يقول له:

- وداعاً، إذاً، سيد سيماوْ. سأظلّ هنا أطلب من السيدة العذراء أن تُرافقك وترعاك.

توقّف الطالب، وسمع في قرارة نفسه صوتاً يقول: «إنّ ملاكك الحارس يتحدّث على لسان تلك المرأة، التي لا تملك من ذكاء غير ذكاء قلبها، الذي ينيرُه حبُّها».

- أبلغي أباكِ تحياتي، يا مارْيانا -قال سيماوْ- ووداعاً... إلى اللقاء، أو...

- إلى يوم الحساب... - قاطعته هي.

- إنه لا ردّ للقدر... وليكن ما تشاءه السماء.

كان سيماوْ قد اختفى في الظلام، حين أشعلت مارْيانا فانوس المصلى، ثم جثَت على ركبتيها والدموع تسّاقط ساخنة من عينيها.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة، حين وقف سيماوْ أمام الدير، يتأمّل النوافذ واحدة واحدة. لم يرَ بريق ضوء في أيّ واحدة منها، باستثناء ضوء شمعدان القربان المقدّس الذي ينعكس شاحباً على زجاج نافذة المَعبد. جلس عند سلاليم الكنيسة، وهناك سمع جامداً الأجراس تدقّ مُعلنة الساعة الرابعة فجراً. ومن بين آلاف الصور التي داهمَت فكره، كانت صورة مارْيانا هي أكثرها تردّداً وإلحاحاً. كانت مارْيانا تظهر له متوسِّلة وهي ترفع يديها، لكنه يسمع، في الوقت ذاته، أنين تيريزا، يعذّبها الشوق والحنين، فيطلب من الله أن يُنجّيها من بطش جلاديها. لم يكن شبح تادِيو دي ألْبوكيرْكي، وهو يقتاد ابنته إلى الدير، يؤجّج عطشه إلى الانتقام؛ لكن كلّما خطرت بذهنه صورة بالْتازارْ كوتينْيو المقيتة، كانت يداه تمسكان غريزياً بالمسدسين لتتأكدا من حوزتهما.

عند الساعة الرابعة والربع، استيقظَت الطبيعة وهي تُنشد وتُهلل ببزوغ الفجر. كانت العصافير تصدَح قرب حديقة الدير ألحاناً يتخلّلها قرع أجراس السلام الملائكي في برج الكنيسة. وتحوّل لون الأفق من الحمرة إلى البياض. ومِثْل نار ضخمة، تلاشى أرجوان الفجر ذرات من الضوء، تتماوج على سفوح الجبال، وتنتشر في السهول والمروج كما لو أنّ ملاك الرّب، بأمرٍ من الخالق، كان يعرض أمام عيون الخلْق عجائب فجر يوم من أيام الصيف.

لكنّ أيّ واحدة من مفاتن السماء ومحاسن الأرض هذه كانت تسحر عيون الشاعر الشاب!

عند الساعة الرابعة والنصف، سمع سيماوْ صليل العربات، المتوجِّهة نحو ذلك المكان. غيَّر موقعه، ودخل زقاقاً ضيقاً، مجاوراً للدير.

مرّت العربات فارغة عبر البوابة، ثم تلتها ثلاث نساء يرتدين ملابس السفر، لا بد أنهن أخوات بالْتازارْ، يرافقهن خادمان يقودان البغال. ذهبَت النساء لتجلسن فوق الكراسي الحجرية، قرب الباب. بعد ذلك، فُتح الباب الكبير، الذي صرّت مفصّلاته، ودخلت النساء الثلاث.

لحظات بعد ذلك، رأى سيماوْ السيد تادِيو دي ألْبوكيرْكي يصل إلى البوّابة وهو يستند إلى ذراع بالْتازارْ كوتينْيو. كان العجوز يشي بالأسى والوهن من حين إلى آخر. أمّا نبيل كاشْتْرو دايْري، فكان يبدو حسن الهيأة وهو يتأنق في ملابسه القَشْتالية، يومئ بحركات مَن يقدِّم حججاً لا تُرد، ويواسي متهكّماً من آلام الغير.

- لا مجال للوهن والبكاء، يا عمي! -قال بالْتازارْ- المصيبة هي أن تتزوج! عامٌ في الدير هو خير علاج ضدّ أوجاع القلب والهوى. لا شيء أحسن من هذا لتطهير قلوب الفتيات المدلّلات من رواسب الرذيلة. لو أنك، يا عمي، أجبَرْتها منذ الصغر على الطاعة العمياء، لوَجَدْتها اليوم خنوعة مذعِنَة، ولن تسمح لنفسها باختيار الزوج.

- لقد كانت ابنتي الوحيدة، يا بالْتازارْ! - قال العجوز، وهو ينتحب.

- ولهذا السبب بالضبط -أجابه ابن أخيه- لو كانت لديك بنت أخرى لما صَعُبَ عليك فراقها، ولكان عصيانها أقلّ شؤماً، ولتركتَ

المنزل لابنتك المفضّلة، حتى لو تطلّب الأمر الحصول على رخصة مَلكيّة لحرمان البنت البكر من الميراث. هكذا، فإنني أرى أنه لم يتبقَّ لديك من علاج غير الكيّ، لأنّ اللزقات والضمادات لم تعُد تجدي نفعاً.

فُتحت البوابة من جديد، فخرجت ثلاث نساء، تَتْبَعهنّ تيريزا. كفكَف تادِيو دموعه، وتقدَّم خطوات ليسلِّم على ابنته، التي لم ترفع عينيها عن الأرض.

- تيريزا... - قال العجوز.

- نعم، يا سيدي - أجابت البنت، دون أن ترفع عينيها.

- لم يفت الأوان بعد - أجابها.

- أيّ أوان؟

- لم يفت الأوان لتكوني بنتاً صالحة.

- إنّ ضميري لا يتّهمني بأنني لست كذلك.

- أما زلتِ مصرّة على موقفك؟!... لماذا لا تعودين إلى البيت، وتنسين ذلك اللعين الذي كان سبباً في شقائنا جميعاً؟

- لا، يا أبي، قدَري هو الدير. لن أنساه حتى في الموت. قد أكون بنتاً عاقة، لكني لن أكذب أبداً.

جالت تيريزا ببصرها فرأت بالْتازارْ، وارتعشت متعجّبة:

- حتى في هذا المكان!

- أتتكلمين معي، يا تيريزا؟ - قال بالْتازارْ، مبتسماً.

- كنتُ أتحدث معك! ألا يفارقني حضورك المقيت حتى في هذا المكان؟

- أنا واحدٌ من الخدم الذين تأخذهم ابنة عمي في رفقتها. كان

لي خادمان قبل أيام، يجدران بمرافقة ابنة عمي، لكن مجرماً قتلهما وحرمني منهما. وفي غيابهما، أعرض عليكِ خدمتي.

- وأنا أعفيك من هذه الخدمة - قاطَعَته بقوة.

- أمّا أنا فلا أعفي نفسي من خدمتِكِ، في غياب خادميَّ الوفيين، اللذين قتلهما ذلك الشرير.

- عليك أن تفعل ذلك -أجابته ساخرة بدورها- لأنّ الجبناء يختبئون وراء خَدَمهم ويتركونهم عرضة للقتل.

- هذا حساب لم نصفِّه بعد... يا ابنة عمي العزيزة - أجابها النبيل.

جرى هذا الحوار بسرعة، بينما كان تادِيو دي ألْبوكيرْكي يحيّي رئيسة الدير وراهبات أخريات. وكانت النساء الأربع، يتبعهن بالْتازارْ، قد غادرن فناء الدير، فوجَدن أنفسهن وجهاً لوجه أمام سيماوْ بوتيلْيو، المتكّئ على زاوية الزقاق المجاور.

رأته تيريزا... بل استشعرته قبلهن جميعاً، وصاحت متعجِّبة:

- سيماوْ!...

ظلّ ابن قاضي المدينة جامداً في مكانه.

ارتعب بالْتازارْ لهذا اللقاء، وحدَّق في سيماوْ بعينيه، وهو لا يزال مرتاباً.

- هل يُصدَّقُ أن يكون هذا الحقير هنا - قال نبيل كاشْتْرو دايْري متعجباً.

تقدَّم سيماوْ بضع خطوات ثم قال بهدوء:

- حقير... أنا! ولماذا؟

- حقير، حقير وقاتل! -أجابه بالْتازارْ- اغرُبْ عن وجهي!

- هذا رجل أبله! -قال الطالب- إنني لا أتحدث معك أنت، يا سيدي. . . سيدتي -قال وهو يتوجه إلى تيريزا بصوت متأثّر ووجهٍ تهزّه مشاعرُ القلب- عليكِ أن تعاني في استكانة أقدِّم لكِ عنها المثل والنموذج. تحمَّلي ألمك دون أن تشتمي العنف، لربما ضاعفت العناية الإلهية قواكِ وأنتِ على طريق الآلام.

- ماذا يقول هذا الوغد؟! - صاح تادِيو متعجباً.

- لقد جاء ليسبّكَ ويشتمك، يا عمي! -أجابه بالْتازارْ.- بلغت به الوقاحة أن يأتي ليرى ابنتك ويشجّعها على طريق الضلال! لقد تجاوزَ حده! حذار، سأسحقكَ هنا، أيها السافل.

- السافل والحقير هو مَن يهدِّدني، دون أن يجرؤ على أن يتقدّم خطوة واحدة نحوي - ردّ عليه ابن قاضي المدينة.

- لم أفعل ذلك -أجابه بالْتازارْ هائجاً- لأنني أعتبر عقابكَ في حضور خدم عمّي شيئاً يحطّ من شأني، لأنك قد تظن أنهم يدافعون عني، أيها الوغد!

- إن كان كذلك -ردَّ عليه سيماوْ مبتسماً- أتمنى ألّا أجد نفسي يوماً ما معك وجهاً لوجه. إنني أعتبرك جباناً، ولئيماً، لذا سأكون مضطرّاً لأبعث بأول شخص فظّ أصادفه في الزقاق ليجلدكَ.

وارتمى بالْتازارْ كوتينْيو بكلّ ما أوتي من قوة على سيماوْ. وقبضَ على حنجرته بيديه؛ لكن أصابعه سرعان ما فقدت قوتها. عندما جاءت النساء لتُفرّقانهما، كانت رصاصة قد اخترقت جبهة بالْتازارْ وفتحت ثقباً في أعلى جمجمته. ترنّح لحظة ثم سقط منهاراً عند قدمَي تيريزا.

كان تادِيو دي ألْبوكيرْكي يصيح بأعلى صوته. تحلّق الخدم

والحوذيّون حول سيماوْ، الذي كان أصبعه لا يزال على زناد المسدس الآخر. شجع بعضهم البعض، وحمَّسهم صياح العجوز، فكانوا على وشك أن ينقضوا على القاتل، مخاطرين بحياتهم، عندما جاء من الزقاق المجاور رجلٌ ملثّم، ووقفَ بسرعة يحمل بندقية إلى جانب سيماوْ. فظلّوا جامدين في أماكنهم.

- اهرب فإنّ الفرس جاهزة عند نهاية الزقاق - قال البيطار لضيفه.

- لن أهرب . . . عليك أن تنسحب من هنا، وبسرعة - أجابه سيماوْ.

- اهرب، فإنّ الناس قد تجمهَروا ولن يتأخر الحرس في الحضور بين الفينة والأخرى.

- قلتُ لك إنني لن أهرب - أجابه عاشق تيريزا، وعيناه لا تفارقانها، وقد سقطت مغمى عليها عند سلالم الكنيسة.

- لقد أصبحتَ من الهالكين - ردّ عليه جْواوْ دا كْروشْ.

- منذ زمان وأنا هالك. اذهب الآن، يا صديقي، أرجوك بحقّ ابنتك. إنك قد تساعدني إن ذهبت، اهرب. . .

فُتحت كلّ الأبواب والنوافذ، حين همَّ البيطار بالهروب حتى امتطى صهوة الفرس.

وكان أحد جيران الدير، بسبب مهنته، أول من خرج إلى الزقاق. كان هو المأمور القضائي.

- القوا عليه القبض، القوا عليه القبض، إنه قاتل - قال تادِيو دي ألْبوكيرْكي وهو يصيح.

- أيّ رجل تعني؟ - سأله المأمور القضائي.

- أنا - أجابَه ابن قاضي المدينة.

- أنت، يا سيدي! - قال المأمور القضائي مندهشاً، ثم اقترب منه، وأضاف بصوت خفيض: - هيا، أنا أترككَ لتهرب.

- إنني لن أهرب -ردّ سيماوْ- أعتبر نفسي سجيناً. هذا سلاحي.

وسلَّم المسدسين.

وحين هدأ روعه، أمر تادِيو دي ألْبوكيرْكي بحَمل ابنته في إحدى العربات، وأمرَ خادمين أن يرافقانها إلى بورْتو.

وسارت أخوات بالْتازارْ وراء جثّة شقيقهن إلى منزل العم.

11

استيقظ قاضي المدينة على ضجّة ملأت البيت، وسأل زوجته، التي كان يظنّ أنها مستيقظة في الغرفة المجاورة، عن تلك الجلبة. وبما أنه لم يتلقَّ جواباً من أيّ أحد، قرع الجرس بعصبية، وزعق في الوقت ذاته، وهو يخشى أن يكون حريق قد شبَّ في البيت. وعندما جاءت السيدة ريتا كان يرتدي سرواله مقلوباً.

- ما هذه الجلبة؟ مَن يصيح؟ - قال دومينْغوشْ بوتيلْيو متعجباً.

- أنتَ من يصيح، يا سيدي - أجابته ريتا.

- أنا مَن يصيح؟! لكن مَن يبكي؟

- بناتك.

- ولماذا؟ قولي شيئاً ما.

- حسناً، سأقول: لقد قتل سيماوْ رجلاً.

- في كُويمْبْرا؟... ولهذا يُحدِثْن كلّ هذه الجلبة!

- لم يكن ذلك في كُويمْبْرا، بل في فيزيوْ - أجابته السيدة ريتا.

- إنك تهزئين مني!؟ الشاب في كُويمْبْرا ويقتل شخصاً في فيزيوْ! لدينا هنا حالة لا تتحدّث عنها قوانين المملكة وتشريعاتها.

- يبدو أنك تمزح يا منيزيشْ! لقد قتلَ ابنُك هذا الفجر بالْتازارْ كوتينْيو، ابن أخ تادِيو دي ألْبوكيرْكي.

ثم تغيَّرت تماماً ملامح وجه دومينْغوشْ بوتيلْيو.

- وهل أُلقي عليه القبض؟ سأل قاضي المدينة.

- إنه في بيت القاضي.

- اطلبي من المأمور القضائي أن يحضر. هل تعرفين كيف حدثَ القتل وما هي أسبابه؟... اطلبي من المأمور القضائي أن يحضر، دون تأخير.

- لماذا لا ترتدي ملابسكَ وتذهب إلى بيت القاضي؟

- وماذا سأفعل في بيت القاضي؟

- لتعرفَ من ابنك كيف وقع هذا.

- أنا لستُ أباً، أنا قاضي المدينة. ليس من اختصاصي أن أستنطقَه. سيدة ريتا، إنني لا أريد أن أرى دموعاً أو أسمع نحيباً. اطلبي من الفتيات أن يهدِّئن من روعهن، أو أن يذهبن للبكاء في الحديقة.

حضر المأمور القضائي، وحكى بالتفصيل كلّ ما كان يعرف، وقال إنه تمّ التأكد من أنّ حب ابنة ألْبوكيرْكي كان هو السبب في كلّ تلك المصيبة.

وبعد الاستماع إلى هذه الحكاية، قال دومينْغوشْ بوتيلْيو للمأمور القضائي:

- على القاضي أن يطبِّق القانون؛ وإن لم يكن صارماً سأجبره شخصيّاً على أن يلتزم بالصرامة.

وبعد أن ذهب المأمور القضائي قالت ريتا لزوجها:

- ما معنى هذه الطريقة التي تتحدث بها عن ابنك؟

- معناها أنني قاضي المدينة في هذا الإقليم، وأنني لا أحمي المجرمين الذي يرتكبون القتل بدافع الغيرة، خصوصاً إذا كانت غيرة عن بنت رجل أمقته. أفضِّل ألف مرة أن أرى سيماوْ ميتاً على أن أراه مقترناً بهذه لعائلة. لطالما كتبتُ إليه أقول له إنني سأطرده من البيت، إن أخبرني أحد خبر اليقين أنه يراسل تلك المرأة. لا تأمَلي أن أضحي بنزاهتي من أجل ابن متمرِّد، وقاتِلٍ فوق ذلك.

شيئاً ما بدافع الأمومة، وشيئاً ما بدافع الرغبة في الجدال، تشاجَرَت ريتا لوقت طويل، لكنها اضطرّت إلى التنازل عن مطلبها أمام عناد زوجها وغضبه. لم يسبق لها أن رأته في تلك الحالة من الهيجان، ولا أن سمعَت منه مثل تلك الكلمات القاسية. وحين قال لها: «سيدتي، في الأشياء البسيطة كان نفوذك مقبولاً، أمّا في أمور الشرف، فقد انتهى ذلك: اتركيني وشأني» انتبهت ريتا إلى تعابير وجهه، فشعرت أنها امرأة في نهاية المطاف، ثم انسحبت.

حينئذٍ دخل القاضي إلى قاعة الانتظار، فذهب قاضي المدينة لاستقباله، ليس بوجه لطيف كمَن يشكر جميلاً أو يطلب غفراناً، بل بملامح مقطّبة، وكأنه يريد أن يوبخ القاضي، لأنه يرى أن تلك الزيارة تجعل ميزان العدالة يرتعش بين يديه أحياناً.

- قبل كلّ شيء، أريد أن أواسيكم فيما أصاب ابنكم من مكروه - قال القاضي.

- شكراً، يا سيدي. أعرف كل شيء. هل تمّ رفع الدعوة؟

- لقد كان من واجبي أن أقبل الشكوى.

- إن لم تقبَلها، كنت سأجبرك على القيام بواجبك.

- إنّ وضعية السيد سيماوْ سيئة للغاية. يعترف بكلّ شيء. يقول إنه قتل جلّادَ المرأة التي كان يحبّها...

- حسناً فعل - قاطعه قاضي المدينة بصوت أجشّ.

- سألته إن فعل ذلك دفاعاً عن النفس، وأومأت له أن يُجيب بالتأكيد، فأجاب بالنفي، وقال إنه لو كان الأمر يتعلق بالدفاع عن النفس لاكتفى باستعمال حذائه، وما كان ليستعمل السلاح. استعملتُ كلّ الطرق المشروعة لحمله على أن يعطي أجوبة تفيد أنه يعاني من هذيان وجنون، لكن بما أنه كان يُجيب بكلّ حدة وبداهة فإنه يستحيل أن نفترض أنه لم يرتكب هذه الجريمة عن قصد وهو في كامل قواه العقلية. إننا، يا سيدي، أمام وضعية خاصة وحزينة. كان بودّي أن أساعده، لكني لا أستطيع.

- وأنا لا أستطيع ولا أرغب في ذلك أيضاً، سيدي القاضي. هل هو في السجن؟

- لم يدخله بعد، إنه في بيتي. جئتُ لأرى إن كنت تقرّر أن نهيّئ له سجناً محترماً يَليق بقدره.

- أنا لا أقرّر شيئاً. اعتبر أنّ السجين المدعو سيماوْ ليس له أيّ قريب هنا.

- لكن، سيدي قاضي المدينة -قال القاضي بشيء من الحزن والأسى- أنت والده.

- أنا قاضي.

- هذه قسوة مبالغة. واسمَح لي على هذا العتاب الودّي. إذا

كان هناك القانون ليعاقبه، فلا تعاقبه بحقدك. إنّ المصائب تخمد حقد الغرباء، فكيف لها ألّا تفعل ذلك بحفيظة أب حنون؟

- إنني لست حاقداً، يا سيدي القاضي، بل إنني لا أعرف هذا الرجل الذي تحدّثني عنه. قُم بواجباتك، التي يأمرك قاضي المدينة بتنفيذها، وسيكون هذا الصديق ممتناً لك بهذا الجميل.

خرج القاضي، وذهب ليجد سيماوْ هادئاً كما تركه.

- تحدّثتُ للتو مع والدك -قال القاضي- وجدته غاضباً فوق كلّ تصور. وأظنّ أنه إلى حدّ الساعة لا يمكنك أن تنتظر أيّ شيء من نفوذه أو حمايته.

- وما أهمية ذلك؟ - أجابه سيماوْ بكلّ هدوء.

- أهميته كبيرة جداً، سيد بوتيلْيو. لو أرادَ أبوك ذلك، ثمّة طرق للتخفيف من الحكم لاحقاً.

- وماذا يهمّني الحكم؟ - أجاب ابن قاضي المدينة.

- بحسب ما أرى، لا يهمّك يا سيدي إن ذهبتَ إلى المشنقة؟

- لا، يا سيدي.

- ماذا تقول، يا سيدي! - ردّ عليه القاضي مندهشاً.

- أقول إنّ قلبي لا يُبالي بمصير عقلي.

- وهل تعلم أنّ والدك لا يقدّم لك حتى الحماية، ولا يزوّدك بأدنى ما تحتاج إليه في السجن؟

- لم أكُن أعرف ذلك، وماذا؟ ما الفرق بين أن أموت جوعاً أو أن أموت في المشنقة؟

- لماذا لا تكتب إلى أمك؟ اطلب منها أن...

- وماذا أطلب من أمي؟ - قاطعه سيماوْ.

- اطلب منها أن تهدّئ من غضب والدك، وإلّا فما من أحدٍ سيَعولك، سيد سيماوْ.

- إنك، يا سيدي، تعتبرني بئيساً لا يفكّر سوى في أين سيتناول غداءه اليوم؟ أظن أن تفاهات المعدة ومشاكلها ليست من اختصاصك، يا سيدي القاضي.

- لا، بكلّ تأكيد -ردّ القاضي- وافعَل ما تشاء.

ثم نادى على المأمور القضائي، وسلّمه الظنّين، وأعفاه من طلب مزيد من الحرس لمرافقته.

استقبل السّجان السجين بكلّ احترام، وأسكَنَه في أحسن غرفة بالسجن، لكنها كانت غرفة خالية من أيّ أثاث وأي وسيلة من وسائل الراحة.

وأعارَه سجين آخر كرسيّاً خشبيّاً عادياً. جلس سيماوْ، ثم شبكَ يديه وراح يفكّر.

بعد ذلك، جاء أحد خدام والده يحمل الغداء، وهو يقول إنّ أمه قد بعثَت به إليه خلسة، ثم قدّم له رسالة. كانت رسالة من أمه يجدر الاطّلاع على محتواها. وقبل أن يلمس الغداء، الذي كان في سلّة وُضِعَت على الأرض، قرأ ما يأتي:

«لقد جُننت، أيها الشقي!

إنني لا أستطيع أن أساعدك، لأن قلب والدك قاسٍ لا يلين. أبعث لك بالغداء خفية عنه، ولا أدري إن كنت أستطيع أن أبعث لك بالعشاء!

يا له من قدرٍ هذا الذي أصابك! ليتك متّ عند الولادة!

أخبروني أنك وُلدتَ ميتاً؛ لكن قدرك المحتوم أبى إلّا أن يتشبث بضحيته[1]!

لماذا غادرتَ كُويمْبْرا؟ لماذا أتيت أيها الشقي؟ أعرف الآن أنك كنت خارج كُويمْبْرا منذ خمسة عشر يوماً، ولم تقل كلمة واحدة لأمك! . . .».

توقف سيماوْ عن القراءة، وقال مع نفسه:

- ما معنى هذا؟! إذاً أمي لم تستدعِ جُواوْ دا كُروشْ! وليست هي مَن بعث لي بالنقود؟

- حذار، لقد برد العشاء، يا سيدي! - قال الخادم.

وتابع سيماوْ القراءة، دون أن يسمع الخادم:

«لا بد أنك من دون مال، وأنا، مع الأسف، لا أستطيع أن أبعث لك اليوم ولو بفلس واحد. أخوك مانْويل يستنزف كلّ مدّخراتي منذ أن فرّ إلى إسبانيا. سنرى ما يمكنني القيام به بعد مرور بعض الوقت، لكني أخشى أن يرحل أبوك من فيزيوْ، ويأخذنا إلى فيلا رِيالْ، ليترك مسألة محاكمتك لصرامة القانون.

---

(1) ما يوضح قول ريتا هو شهادة ميلاد سيماوْ الموجودة أمام عينيَّ، وقد أخذها هرْكولانو هِنْريكي غارسْيا كاميلو غايارْدو، رئيس الكنيسة الملكية لسيدة أجودا، من الكتاب رقم 14، ورقة رقم 159، والتي تقول ما يأتي:
«في اليوم الثاني من شهر مايو من سنة 1784، قام الأب المبجل جُواوْ دومينْغيشْ شافيشْ بمسح سيماوْ بالزيوت المقدسة. وأشرف على تعميده في البيت، وهو على حافة الموت، الأخ المبجل أنْطونْيو دا سا بيلاجْيو. . . إلخ». (الكاتب)

عزيزي سيماوْ، المسكين! أين كنت مختبئاً خلال خمسة عشر يوماً؟! اليوم بالتحديد توصّل أبوك برسالة من أحد الأساتذة يُخبره فيها أنّك تغيّبت عن الدروس، وذهبت إلى بورْتو، حسب ما قاله البغّال الذي رافقك.

لم أعد أحتمل أكثر من هذا. لقد أشبع أبوك ريتا المسكينة ضرباً، لأنها كانت تريد أن تذهب إلى السجن.

فما عساها أن تفعل أم مغلوبة على أمرها أمام رجل غاضب كما هو حال والدك؟!».

فكر سيماوْ بوتيلْيو للحظات، واقتنعَ بأنّ المال الذي توصَّل به هو مال جْواوْ دا كْروشْ. ولمّا طال به التأمّل واستغرق في التفكير اغرورقت عيناه.

- لا تبكِ يا سيدي -قال الخادم- إنّ المحن بلاء للرجال، والله عنده فرج الشدائد. تناول طعامك، سيد سيماوْ.

- خذْ هذا الغداء - قال سيماوْ.

- ألا تريد أن تأكل!؟

- لا. ولا تعُد إلى هنا مرة أخرى. ليست لي أيّ أسرة. لا أريد أيّ شيء من بيت والديّ إطلاقاً. قلْ لأمي إنني قد هدأت، وإنني أسكن وأشعر بالسعادة والفخر بحظّي وقدري. هيا، اذهب حالاً.

خرج الخادم، وقال للسّجان إنّ سيده الشقي قد جُنّ. اعتبرت السيدة ريتا شكوك الخادم محتمَلَة، ورأت في كلمات ابنها دليلاً ساطعاً على جنونه.

عندما عاد السّجان إلى غرفة سيماوْ جاء مرفوقاً بفتاة بدوية:

مارْيانا. بنت جْواوْ دا كُروشْ، التي كانت إلى حدود الساعة بالكاد تُصافح ضيفها، أسرعَت نحوه بذراعين مشرعين ووجهٍ غارق في الدموع. انسحب السجّان وهو يقول مع نفسه: «هذه الفتاة أجمل من النبيلة!».

- إنني لا أريد أن أرى دموعاً، يا مارْيانا -قال سيماوْ.- إذا كان على أحدٍ ما أن يبكي هنا فهو أنا، لكن يجب أن أذرف دموعاً تليق بي، دموع الاعتراف بالجميل الذي حظيتُ به منكِ ومن أبيك. لقد علمت للتو أنّ أمي لم ترسل لي أيّ مال بتاتاً. لقد كان المال الذي توصَّلتُ به مال والدك.

خبأت مارْيانا وجهها في المريلة التي كانت تكفكف بها دموعها.

- هل تعرَّضَ أبوك لأيّ خطر؟ رد عليها سيماوْ بنبرة صوت لا يُدرِكُها أحد غيرها.

- لا، يا سيدي.

- هل هو في البيت؟

- نعم، ويبدو غاضباً. كان يريد أن يأتي إلى هنا لكني منعتُه.

- هل لاحَقَه أحد؟

- لا، يا سيدي.

- قولي له ألّا يخاف، اذهبي حالاً وطمئنيه.

- لا يمكن أن أذهب دون أن أقوم بما أمَرَني به. سأخرج الآن ثم أعود بعد قليل.

- اشتري لي طاولة، وكرسيّاً، وحبراً وقرطاساً - قال سيماوْ، وهو يمدّ إليها النقود.

- سأشتري كلّ شيء حالاً وأحضره؛ لكن أبي قال لي ألّا أشتري أيّ شيء من دون أن أعرف إن كانت أسرتك تبعثُ لك بما هو ضروري.

- أنا لا أسرة لي، يا مارْيانا. خذي النقود.

- أنا لا آخذ نقوداً من دون إذن أبي. معي ما يكفي لشراء هذه المقتنيات. وكيف هو حال جرحكَ الآن؟

- الآن فقط تذكرتُ أنّ بي جرح! -قال سيماوْ مبتسماً- لا بد أنه شفي، لم يعد يؤلمني... هل لديكِ من أخبار عن تيريزا؟

- علمتُ أنها ذهبت إلى بورْتو. يقولون هناك إن أباها أمرهم بوضعها في العربة وهي مغمى عليها، وثمّة العديد من الناس أمام باب بيت ألْبوكيرْكي.

- حسناً، يا مارْيانا ... لكلّ شقيّ مَن يحميه ويرعاه. اذهبي، فكّري في ضيفك، وكوني ملاك عنايته.

ومن جديد تسارعت الدموع إلى عينيها، ثم قالت هذه الكلمات وهي تنتحب:

- كن صبوراً. لن تموت مهمَلاً ومن دون عناية. واعتبر أنه جاءت لتزورك اليوم أختك وشقيقتك.

وهي تقول ذلك، أخرجت من جيبها علبة بسكويت وقنينة من شراب القرفة وضعتهما فوق الكرسي.

- إنه ليس غداء جيداً، لكني لم أجد شيئاً آخر جاهزاً - قالت ثم خرجت مُسرِعة، كأنا تريد أن توفّر على ذلك الشقي عبارات الشكر والامتنان.

12

وفي ذلك اليوم بالتحديد، أمرَ قاضي المدينة زوجته وبناته أن يتهيّأن للسفر في اليوم الموالي مباشرة إلى فيزيوْ وأن يحملن معهن كلّ ما يمكن نقله على ظهر الدواب.

سأقوم بوصف الذكرى البسيطة والحزينة لسيدة من تلك الأسرة، كما جاءت في رسالة توصلتُ بها قبل بضعة أشهر:

«مرت سبعة وخمسون سنة، وما زلت أذكر، كما لو أنّ كلّ شيء وقع البارحة، أحداث شبابي المؤلمة. لا أدري كيف صارت اليوم أكثر وضوحاً ذكريات الطفولة. يبدو أنه قبل ثلاثين عاماً لم أكن أتذكّرها بكلّ حذافيرها وتفاصيلها.

عندما أمَرتنا أمي أنا وأخواتي أن نحضر صناديق أغراضنا الخاصة، دخلنا في بكاء أثار حفيظة أبي. وسرعان ما هدأت أخواتي، لأنهن أكبر مني سناً وأكثر مراساً على تحمّل شدائد العقاب. أما أنا، التي لم أعرف العقاب إلّا مرة واحدة بسبب سيماوْ، فاسترسلتُ في البكاء، بل وتجرأتُ بكل براءة على أن أطلب

من أبي أن يسمح لي بزيارة أخي في السجن قبل أن نغادر فيزيوْ.
حينها نلتُ عقاباً آخر، قاسياً وفظاً.

عادَ الخادم يحمل العشاء الذي أخذه إلى السجن وحكى لنا أنّ سيماوْ كان يتوفر على بعض الأثاث في غرفته، وأنه كان يأكل هادئاً. وفي تلك الساعة، كانت كلّ أجراس فيزيوْ تُقْرَع ترحّماً على روح بالْتازارْ.

وإلى جانبه، قال الخادم، كانت تجلس فتاة قروية جميلة، حزينة تغطي الدموع وجهها. فأشار إليها سيماوْ، وقال للخادم: هذه هي أسرتي.

مع بزوغ صباح اليوم الموالي انطلقنا باتجاه فيلا رِيالْ. كانت أمي تبكي دائماً، فثار غضب أبي وخرج من العربة التي كان يركبها رفقة أمي، وأمرني أن أجلس مكانه، ثم قضى كلّ الرحلة على ظهر مطيتي.

وما أن وصلنا إلى فيلا رِيالْ، حتى كثُرت الشجارات في البيت بسبب سيماوْ، حتى أن أبي ترك الأسرة وذهب ليعيش وحيداً في مزرعة مونْتيزيلوشْ. وأرادت أمي بدورها أن تهجرنا وتذهب عند بعض أبناء عمها في لشبونة لتطلب منهم أن يساعدوها على إطلاق سراح سيماوْ. لكن أبي، الذي حدث تغيُّر مدهش في طبعه، حين علم بالأمر، هدَّد أمي بأن يُلزمها قضائياً بألّا تغادر البيت، وتترك زوجها وبناتها.

كانت أمي تراسل سيماوْ، لكنها لا تتوصَّل منه بأيّ ردّ. كانت تظن أنه لا يجيب على رسائلها: بعد مرور عدة سنوات وجدنا بين وثائق أبي كلّ الرسائل التي كتَبتْها. وبدا واضحاً أن أبي كان يعترض رسائلها.

وكتبت سيدة من فيزيوْ إلى أمي، تثني على الحب والشفقة التي تستجيب بها لحاجيات ابنها التعيس. وقد سلَّمها المُكاري تلك الرسالة، وإلّا لكان مصيرها مثل مصير الرسائل الأخرى. عبّرت أمي عن اندهاشها لرأي صديقتها، واعترفت لها أنها لم تساعده، لأنّ الابن رفض حتى الأشياء القليلة التي حاولت أن تقوم بها من أجله. وردَّت سيدة فيزيوْ تقول إن إحدى الفتيات، بنت بيطار، كانت تعيش قرب السجن، وكانت تعتني بالسجين أيما عناية، وتقول للجميع إنها تفعل ذلك بأمر من السيدة ريتا بْريسْيوزا وعلى نفقتها. وأضافت صديقة أمي أنها كانت تنادي أحياناً على الشابة وهي تريد أن تعطيها بعض الأطباق المحضَّرة بعناية كي تحملها إلى سيماوْ، فكانت ترفضها، وتقول إنّ السيد سيماوْ لا يقبَل أي شيء.

من حين إلى آخر، كانت تصلنا هذه الأخبار، الحزينة دائماً، لأنه في غياب أبي، وكما كان منتظراً كان كلّ أعيان فيزيوْ يتآمرون ضد أخي المغلوب على أمره.

كانت أمي تكتب إلى أقاربها في العاصمة تستجدي العفو الملكي في حقّ ابنها؛ لكن تلك الرسائل لم تكن تصل إلى البريد، بل تنتهي بين يدي والدي.

وماذا كان يفعل هذا الأخير، في المزرعة، من دون أسرة، ولا مجد، ولا جزاء مقابل كلّ هذا الغياب؟ أحاط نفسه بالعمال المياومين، وأخذ يحرث ذلك الجبل الكبير، حيث يمكن أن نرى إلى يومنا هذا، بين الأعشاب والأشواك، بقايا أشجار الكرم التي غرسها. كانت أمي تكتب إليه وهي تأسف على مصير ابنها؛ لكن أبي

بالكاد كان يجيبها قائلاً إن العدالة مسألة جدية، وأنه قديماً كان الآباء أنفسهم يُصدرون الأحكام ضد أبنائهم المجرمين.

وذات يوم تجرأت أمي وطلبت منه أن يسمح لها بالذهاب إلى فيزيوْ. فرفض أبي القاسي طلبها، وأهانها غاضباً.

بعد سبعة أشهر، علمنا أنّ سيماوْ قد حُكم عليه بالمشنقة، وأن تنفيذ الحكم سيجري في مكان القتل. أُغلقت نوافذ البيت لثمانية أيام؛ ارتدينا الحداد، ومرضت أمي.

عندما انتشر الخبر في فيلا رِيالْ، ذهب كل الأعيان إلى مونْتيزيلوشْ كي يقنعوا أبي باستعمال نفوذه لإنقاذ ابنه من هذا الحكم. ومن لشبونة جاء بعض الأقارب يحتجون على هذا الخزي، وما سيحلّ جرّاءه من عار بالعائلة. وكان أبي يجيبهم جميعاً بهذه الكلمات: - إنّ المشنقة لم تُخترع فقط من أجل أولئك الذي لا يعرفون اسم جدّهم. وأن عار العائلات يأتي من سوء أعمالها. أمّا العدالة فلا تُلحق العار إلّا بمَن ينالون عقابها.

كان عمّ أبي رجلاً عجوزاً ومحترماً يدعى أنْطونْيو دا فيغا. هو من جاءت المعجزة على يديه، وحدث ذلك كما يلي: جاء عند أبي وقال له: - لقد أطال الله عمري حتى بلغتُ ثلاثة وثمانين حولاً. هل يمكن أن أعيش سنتين أو ثلاث سنوات أخرى؟ انتهت حياتي، لكنها كانت حياة شريفة، لا تشوبها شائبة، وعليها أن تنتهي كما كانت. لا أريد لعَيْنيّ أن تريا الخزي يحلّ بعائلتي. دومينْغوشْ بوتيلْيو، إما أن تعدني بأنك ستنقذ ابنك من المشنقة وإما سأقتل نفسي في حضرتك. - قال هذا وهو يضع موسى حلاقة على عنقه. أمسكه أبي من يده ووعده أن سيماوْ لن يموت مشنوقاً.

في اليوم الموالي، ذهب أبي إلى بورْتو، حيث له عدة أصدقاء في المحكمة، ومن هناك اتجه إلى لشبونة[1].

وفي بداية شهر مارس من سنة 1805، علمت أمي بفرح كبير أن سيماوْ قد نُقل إلى سجن محكمة بورْتو، متجاوزاً تلك العقبات الكبيرة التي وضعَها المشتكون، وهم تادِيو دي ألْبوكيرْكي وأخوات القتيل. بعد ذلك. . .»

وهنا نُعلِّقُ قراءة هذا المقطع من الرسالة، حتى لا نستبق سرد أحداث الرواية، لأن قواعد الفن تُلزمنا باستئناف خطّ الحكي المتوقف.

برباطة جأش رأى سيماوْ كيف جاء يوم المحاكمة. جلس على دكة القَتَلة من دون محامٍ ولا شهود دفاع. وأجابَ عن الأسئلة بالبرودة نفسها التي أبانَ عنها أمام استنطاق القاضي. ولما كان مضطراً لشرح أسباب الجريمة، قام بذلك بكلّ صدق، دون أن ينطق باسم تيريزا كليمينْتينا دي ألْبوكيرْكي. عندما نطق محامي الاتهام بذلك الاسم نهض سيماوْ بوتيلْيو فجأة، وصاح:

---

(1) من بين وثائق قاضي مدينة فيزيوْ التي توجد بحوزتنا ثمة هذه الرسالة: «صديقي، وزميلي المحترم. أرجو أن تقدِّم لحامل هذه الرسالة، وهو الأب مانْويلْ دي أوليفيرا، تلك الخمسون قطعة نقدية التي حدَّثتك عنها لدى مروره بلشبونة. إن استئناف الحكم على ابنك تحت مسؤوليتي، وهو أمر شبه مضمون، رغم قوة الطرف الآخر. صديقك، القاضي المستشار أنْطونْيو جوزي دياشْ موشْكيرا. بورْتو، 11 فبراير 1805. عنوان المرسل إليه: إلى السيد النبيل دومينْغوشْ جوزي كورّيا بوتيلْيو دي ميشْكيتا إي منيزيشْ». (الكاتب)

- لِمَ يُذكر اسم امرأة نبيلة في وكر العار والدم هذا؟ أيّ محامي اتهام حقير هذا الذي لا يعرف أنه يكفي اعتراف الظنين حتى تصبح الحاجة إلى الجلاد أمراً قائماً وضرورياً، من دون تلطيخ سمعة امرأة؟ الاتهام أمرٌ مؤكّد: أنا هو القاتل. والآن ليتكلّم القانون، وليسكُت هذا الوضيع الذي لا يعرف كيف يوجّه التهم من دون إلحاق العار بالناس.

فألزمه القاضي بالصمت. جلس سيماوْ، وهو يهمهم:

- حقراء جميعهم!

وسمع الظنين قراءة الحكم عليه بالموت شنقاً في مكان الجريمة. وارتفعَت من بين الحشد أصوات صراخ تمزّق القلب. استدار سيماوْ نحو الجمع الغفير، وقال:

- سترون عرضاً رائعاً، أيها الناس! المشنقة هي احتفال الشعب الوحيد! خذوا تلك المرأة المسكينة التي تبكي: إنها الكائن الوحيد الذي لن يعتبر عذابي وآلامي فُرجة وتسلية.

ونُقلت مارْيانا على الأذرع إلى بيتها المجاور للسجن. وكان أبوها هو مَن حمَلَها بين ذراعيه القويتين.

بكلّ رشاقته وقوة شبابه وهو في الثامنة عشرة من عمره، سمع سيماوْ، وهو في طريقه من المحكمة إلى السجن، أصواتاً مختلفة تقول في تناوب:

- متى سيأتي دوره؟

- يستحق ذلك! سوف يؤدي ثمن الأبرياء الذين أمرَ أبوه بشنقهم.

- كان يريد أن يدافع عن النبلاء بقوة الرصاص!

- طبعاً! إذا كان هؤلاء النبلاء لا يؤمنون سوى بالقتل!...

- لو أنه قَتَلَ فقيراً، لرأيت كيف أنه سيكون الآن في بيته مرتاحاً!

- هذا صحيح أيضاً!

- انظر إليه، كيف يرفع رأسه إلى عنان السماء!

- دعه يفعل، قريباً سيأتي من يدفن رأسَه في الحضيض.

- يقولون إنّ الجلاد في طريقه إلى هنا.

- لقد وصل بالأمس، يحمل مُديتين في سلّته.

- أرأيته؟

- لم أرَه بعيني؛ لكن أخبرتني بذلك عرّابتي التي أخبرتها بذلك جارة صهر أختها، وأنهم عزلوا الجلاد في زنزانة.

- هل ستأخذ أطفالك ليشاهدوا تنفيذ الحكم؟

- طبعاً! هذه عِبَر لا يجب تفويت فرصة مشاهدتها.

- شخصيّاً، بحسب ما أذكر، حضرتُ شنق ثلاثة أشخاص، كلهم بسبب القتل.

- نعم، لهذا أزهقتَ روح أمارو لامْبيرا قبل سنتين وأرسلتَه إلى الآخرة!...

- كذلك كان، لكني لو لم أزهق روحه لأرسلني هو إلى الدار الأخرى.

- إذاً، في ما ينفعك مشاهدة تنفيذ الحكم؟

- في ما ينفعني؟ لستُ أدري. إنّ الأخ أنْسيلْمو، عن الرهبان الفرنسيسكانيين، هو مَن يدعو الآباء ويشجّعهم على أخذ أبنائهم لمشاهدة تنفيذ أحكام المشنقة.

- ربما حتى لا يتعرّض للعقاب، كما يعاقبنا هو بطلباته الملحّة.

وكان سيماوْ يمشي هادئاً متّزناً، حتى أنه أحياناً كانت تعلو شفتيه ابتسامة نابعة ممّا يسمعه من فلسفة الشعب حول المشنقة.

عندما دخل إلى غرفته في السجن، جاؤوا ليخبروه بأنّ له الحقّ في استئناف الحكم، في حدود الآجال القانونية. فأجاب أنه لن يستأنف الحكم، وأنه مرتاح لقدره، وراضٍ على قرار العدالة.

سأل عن مارْيانا، فأخبَره السجّان أنه قد بعثَ إليها مَن يستدعيها للحضور. جاء جْواوْ دا كْروشْ، يبكي ويتأسّف لأنه سيفقد ابنته، فقد رآها تهذي وتتحدّث عن المشنقة وتطلب أن يقتلوها هي أولاً. فكان ألم الطالب عميقاً وحاداً حين أدرك، كما لو أنّ الحقيقة قد تجلّت فجأة أمام عينيه، أنّ مارْيانا كانت تحبه حتى الموت من أجله. وربما تلاشت صورة تيريزا للحظات من قلبه، كما يمكن أن نظنّ. لأنه كان يراها حينئذٍ ملاكاً بلغ الخلاص وهو يتأمّل مطمئناً خالقه، وكان يرى مارْيانا رمزاً للعذاب، تموت يأساً، دون الفلاح بلحظات حبّ يجازي ما كابدته من تضحيات ويرفعها إلى مجد السماء. واحدةٌ تموت وقد نالت حظّها من الحب، وأخرى تُحتضر، دون أن تسمع كلمة «حب» من شفتين قلّما همستا لها بكلمات امتنان باردة.

حينئذٍ بكى ذلك الرجل الحديدي. وذرف دموعاً تساوي مرارة مارْيانا.

- اعتنِ بابنتك، سيد كْروشْ -قال سيماو بتوسّل حارّ إلى البيطار- اتركني وشأني، فأنا قويّ وعلى أحسن حال. اذهب وواسي

تلك المسكينة التي خُلقت تحت تأثير قدري المشؤوم. أخْرِجها من فيزيوْ، وخُذها إلى بيتها. أنقِذْها حتى تبقى في هذا العالم أختان تبكيان موتي. إنّ المساعدة التي لم تبخَل عليّ بها، لم تعُد ذات جدوى الآن بعد أن أضحَت نهايتي وشيكة. قريباً سيخبروننني بموعد تنفيذ الحكم، ومن الأحسن ألّا تعلم ابنتك بذلك.

حين عاد، وجد جْواوْ دا كْروشْ ابنته ممدّدة على الأرض، بها جروح في وجهها، تبكي وتضحك؛ جُنَّت، باختصار. أخذها مكبَّلة إلى البيت، وكلَّف شخصاً آخرَ بمساعدة السجين والعناية به.

وكانت ساعات ذلك الشقيّ الوحيد تمضي قاسية فظيعة. إلى غاية ذلك اليوم، كانت مارْيانا، التي تحظى باحترام السّجان وحماية صديقة السيدة ريتا بْريسْيوزا، تَلِجُ السجن دون قيود وفي كلّ ساعةٍ وحين، وقلَّما تركت السجين لوحده. تخيط بينما هو يكتب، أو تقوم بتنظيف الغرفة وترتيبها. وإذا ما لزم سيماوْ الفراش مريضاً أو منهكاً، كانت مارْيانا، التي تعرف بعض مبادئ الكتابة، تكتب مائة مرة اسم **سيماوْ**، الذي غالباً ما تمحوه دموعها المنهمرة. واستمرّت على تلك الحال سبعة أشهر دون أن تسمع أبداً كلمة «حب». هكذا دائماً، بعد أن تقضي الليل ساهرة، أحياناً تصلي، وأحياناً تعمل، وأحياناً في طريقها نحو بيتها، حيث تزور أباها في ساعات متأخرة جداً.

كان السجين يفكر في المشنقة القادمة، وحين صرّت مفصّلات الباب الحديدي، الذي كان يزوّده بالهواء مُقدّراً ومحسوباً في انتظار أن يحظى حبل المشنقة بمتعة الخنق الكامل، لم يعُد ليرى تلك الفتاة الوديعة تدخل غرفته مرة أخرى! أبداً!

وحين يتذكّر صورة تيريزا، كانت نزوة خياله ترسم أمام عينيه

طيف مارْيانا في الوقت ذاته. فيراهما باكيتين معاً. حينئذٍ يقفز من سريره، يقبض بتوتر على قضبان النافذة ويفكر في تكسير جمجمته على القضبان.

لم يكن له رجاء في الأرض ولا في السماء. لم يخترق أيّ وميض برقٍ إلهي يوماً أسوار زنزانته. لقد تجسَّد ملاك الرأفة في تلك المخلوقة السماوية، التي جُنّت أو عاد إلى السماء رفقة روحها. ما كان ينقذه من الانتحار ليس الأمل في الله، ولا في البشر؛ بل هذه الفكرة: «في نهاية المطاف، أيها الجبان! يا لها من شجاعة أن يموت المرء حين يفقد الأمل في الحياة! المشنقة انتصار، حين نجدها عند نهاية الطريق نحو الشرف!».

13

وماذا عن تيريزا؟

إنكن تتساءلن، سيداتي، دفعة واحدة. ولن أشتكي، لو أنكن اتهمتنني بنسيانها والتضحية بها من أجل عرض أحداث أقل أهمية.

نسيتها؟ كلا، إنني لم أنسَها، هناك أشياء كثيرة تحوم من حولي وترفرف بأجنحة كملائكة السماء، في غرفتي المظلمة هذه[1]. وكأنّ ذلك الطائر السماوي يطلب مني أن أنثر أزهاراً فوق آثار الدم التي يخلّفها وراءه. لكنكِ تركت دموعاً من الدم، يا ابنة المَرارة والأسى! نعم، دموعك أزهار، وأخبريني أنت من السماء إن كان عطرها لا يزيد قيمة أمام الرب عن صلوات العديد من الورعات التقيات، من تلك اللواتي يمُتن فيُقدِّسهن العالَم، رغم أنّ عطر القداسة لا يعدو أن يكون رائحة تشي بنفاق بني البشر وبلاهتهم.

لقد رأيتم كيف نقلوا تيريزا كْليمينْتينا من سلاليم الكنيسة حيث سقطت، إلى العربة التي أخذتها إلى بورْتو. بعد أن استفاقت

---

(1) كُتبت هذه الرواية سنة 1861 في زنزانة بسجن بورْتو، تحت ضوءٍ خافتٍ يتسلل عبر القضبان الحديدية، ويتلاشى في عتمة القُبة. (الكاتب)

واستعادت نَفَسها، ودنت منها خادمة تقول لها عبارات مواساة باردة ومبتذلة. إن كانت أيّ خادمة أخرى من خادمات أبيها تنال ودّ تيريزا فإنها لم تكن هذه، لذا اختارها أبوها عن دراية وقصد لتُرافقها. فلم يعُد بإمكانها حتى أن تُروّح عن آلامها بالشكوى والأنين. لكن، كما سنرى، رقّ قلب تلك الخادمة التي ظلّت إلى حين ذلك تجافي سيدتها.

وكانت تيريزا تتساءل مع نفسها إن لم تكن تلك الوضعية الفظيعة كابوساً! تشعر بقواها تخور، ثم تعود إلى الحياة، كأنّ وعيها بالمأساة يرجّها. فَرَقَّت الخادمة لحالها، وحثَّتها على أن تفتح قلبها، فبَكت معها وهي تقول:

- تحدّثي، يا سيدتي، فلا أحد يلاحقنا.
- لا أحد!؟
- لقد بقيت بنات عمك هناك، جاء الخادمان فقط.
- وأبي، ألم يأتِ؟
- لا، يا سيدتي... ابْك كما تشائين.
- هل سنذهب إلى بورْتو؟
- نعم، يا سيدتي.
- هل رأيتِ كيف حدث كلّ شيء، يا كونْستانْزا؟
- نعم، رأيت كلّ شيء مع الأسف...
- كيف حدث ذلك؟ حدثيني عن كلّ شيء...
- إنك تعرفين، يا سيدتي، أنّ ابن عمك قد مات.
- مات؟! رأيته يسقط أمام رجلي تقريباً، لكني...
- مات في الحين، وبعد ذلك أرادَ الخدم، بأمرٍ من والدك، أن يلقوا القبض على سيماوْ، لكنه بواسطة مسدس آخر...

مكتبة
t.me/t_pdf

- وهل هرب؟ - قاطعتها تيريزا بنبرة فيها فرح وقوة.
- لا، يا سيدتي، في النهاية هو الذي سلّم نفسه.
- هل هو سجين؟

ثم اختنقت في نحيبها، ودفنت وجهها في المنديل، فلم تسمع كلمات المواساة التي كانت تقولها كونْستانْزا.

بعد تلك النوبة الأولى من الأنين والبكاء، اقترحت تيريزا على الخادمة خطّة مجنونة. طلبت منها أن تتركها لتهرب عند أول فندق ينزلون به لتذهب إلى فيزيوْ وتودّع سيماوْ نهائياً.

وبصعوبة كبيرة أثْنَتها الخادمة عن تلك المحاولة، وهي ترسُم لها الأخطار الجديدة التي قد تتراكَم وتزداد على ما يعانيه حبيبها من شقاء. وشجَّعتها بأمل أن سيماوْ قد يتخلص من تلك الجريمة، بفضل نفوذ والده، رغم إصرار الأطراف الأخرى على متابعته أمام القضاء.

وشيئاً فشيئاً نَفَذت تلك الحجج إلى ذهن تيريزا.

باكية، قلقة ومغمى عليها من حين إلى آخر، قضت تيريزا طريق سفرها إلى مونْشيكي، حيث وصلت في اليوم الخامس من رحلتها.

كانت رئيسة الدير على علم بالأحداث بواسطة مبعوثين سبقوا العربة التي كانت تسير بطيئة.

واستقبلت العمة تيريزا برفق وحنان، رغم توصيات تادِيو دي ألْبوكيرْكي بوضعها في محبسة صارمة وحرمانها تماماً من كلّ وسائل الكتابة ومراسَلَة أيّ كان.

واستمعت رئيسة الدير على لسان ابنة أخيها إلى القصة الحقيقية للأحداث، واطّلعت على رسائل سيماوْ بوتيلْيو واحدة واحدة. بَكِيَتا

متعانقتين، لكن رئيسة الدير، بعد أن كفكفت دموعها بنار صرامة التديّن، تحدثت مع تيريزا ونصحَتها كراهبة. راهبة تُطوِّع الجسد بالتعذيب وتكبحُ القلب بقوة أربعين عاماً من الحرمان والعزلة.

كانت تنقص تيريزا القوة لتتمرّد. تركَت لعمتها المهمة الدينية لطرد شيطان الحب من نفسها، وابتسمت لملاك الموت، الذي كان يبسط بين حبّها وأملها جناحيه السوداوين، اللذين يلمعان أحياناً بضوء جِد ساطع في قلوب الأشقياء.

وسرعان ما عبَّرت تيريزا عن رغبتها في الكتابة.

- لمن ستكتبين، يا ابنتي؟ - سألتها رئيسة الدير.

فلم تُجِب تيريزا عن سؤالها.

- لماذا تريدين أن تكتبي إليه؟ -ردّت الراهبة- أتظنين، يا ابنتي أنه يتوصل برسائلك؟ ما الذي ستجنيه من ذلك غير مضاعفة غضب أبيك عليك وضدّ ذلك السجين الشقي؟ إن كنتِ تحبينه، كما أظنّ رغم كلّ شيء، فكّري في إنقاذه. إن كنت لا تريدين أن تسمعي ما أقول، فتظاهَري بالنسيان. إن كنتِ قادرة على التحكُّم في نفسك، فتكتَّمي عن ألمك، وحاولي أن تجعلي والدكِ يظنّ أنك ستكونين له مطيعة في كلّ صغيرة وكبيرة، علّه يرقّ لحالك ويشفق عن حبيبك المسكين.

لم تردّ عليها تيريزا شيئاً. وابتسمت مرة أخرى لملاك الموت، واستعطفته أن يلفّها هي، وحبيبها، وأملها، وكل شيء بسواد جناحيه.

كانت رئيسة دير مونْشيكي تتوصّل كل شهر برسالة من ابن عمها. كانت تلك الرسائل تعبيراً عن تعطّشه للانتقام. وفي كلّ

واحدة منها كان العجوز يقول إنّ القاتل سيذهب إلى المشنقة لا محالة. لم تكن تيريزا تطّلع على تلك الرسائل لكنها تلاحظ الدموع في عيون الراهبة الرؤوفة.

وكان جسد تيريزا النحيف يذبل وينحل بسرعة. فحكم عليها العِلْمُ بالموت القريب. وهو ما أُخبر به تادِيو دي ألْبوكيرْكي، فكان جوابه أنه لا يتمنى موتها، لكن إن أخذَها القدر، فسيموت مرتاحاً، لا تشُوب شرفه شائبة. كذلك كان الشرف الطاهر في نظر نبيل فيزيوْ!... الشرف، الذي كما يُقال، ينحدر مباشرة من فضيلة سقراط، ومن فضيلة المسيح، ومن فضيلة ملايين الشهداء الذين قدَّموا أنفسهم لمخالب الوحوش الضارية وهم يدعون الناس إلى الإحسان والعفو!

كم من لمسات العطف والشفقة تنافست راهباتُ دير مونْشيكي في الإعراب عنها أملاً في التخفيف من نار اللوعة التي تضطرم في صدر الحبيسة وتلتهمها بسرعة! كان كلّ شيء دون جدوى. كانت تيريزا ترى الشفقة في الدموع، وتفرح، في الوقت ذاته، وهي متأكدة من أنّ الأطباء يعتبرون مرضها غير قابل للشفاء.

وذات يوم، قالت لها إحدى الراهبات سهواً إن صديقة لها في دير ريميذْيوشْ دي لاميغو أخبرتها أنّ سيماوْ قد حُكِمَ عليه بالموت شنقاً.

فارتعشت تيريزا وهمهمت، وهي غير قادرة على أن تصيح:

- وأنا ما زلتُ حية!

بعد ذلك، صَلَّت وبكت؛ لكن حياتها تواصلت بين نفس النوبات العديدة والمتكررة.

وسألت الراهبةَ التي أتَتها بالخبر إن كان بإمكان صديقتها في دير ريميدْيوشْ أن تقوم بمعروف وتسلِّم سيماوْ رسالة. وأبدَت الراهبة استعدادها للقيام بذلك، بعد استشارة رئيسة الدير، وهي تعتقد أنّ آخر حوار بين عاشقيْن يُحتضران لا يمكن أن يضرّ بهما في الحياة الدنيا، ولا في الآخرة.

هذه هي الرسالة التي قرأها سيماوْ، بعد خمسة عشر يوماً على صدور الحكم في حقه:

«سيماوْ، يا زوجي العزيز. إنني أعرف كل شيء... الموت معنا. إنني أكتب إليك من غير دموع. لقد بدأتُ أحتضر قبل سبعة أشهر. كان الله رؤوفاً بي حين وفَّر علي مشاهدة تلك الجريمة. علمتُ بموتكَ الوشيك، فأدركتُ لماذا أموت ساعة بعد أخرى. فهل حانت نهايتنا، يا حبيبي سيماوْ؟... أين ذهبت أحلامنا؟! أتذكُر حين كنتَ تحدِّثني عن أحلامك بالسعادة وأحدثك أنا عن أحلامي؟... كيف يمكن أن تسيء أحلامُنا الصغيرة إلى الرب؟ لماذا لا نستحق نحن أيضاً ما يملكه الآخرون؟ فهل ينتهي كلّ شيء بهذا الشكل؟ إنني لا أصدق ذلك! إنّ الخلود يبدو مظلماً لأن الأمل كان هو النور الذي يحملني منك نحو الإيمان. لكن قدرنا لا يمكن أن ينتهي بهذا الشكل. حاول أن تبحث عن آخر خيط من حياتك لتُعلق عليه أيّ أمل مهما كان صغيراً. فهل نلتقي يوماً في عالم آخر، يا سيماوْ؟ هل سأحظى من الرب بسعادة لقائك؟ إنني أُصلي، وأدعو لكَ حين أتذكر احتضار وآلام عذابك الأخير. أما عذابي فيهون، أكادُ لا أشعر به. لا بد أنّ الموت لا يصعب على مَن له قلب

مطمئن. لكن الأصعب هو الذكرى، والحنين إلى تلك الآمال التي كنتَ تجدها في قلبي، وأنت تكشف عن آمالك. لا يهم، إن لم يكن أيّ شيء في الحياة الأخرى. الموت نسيان، على الأقل. لو كان بإمكانك أن تعيش الآن، فما جدوى العيش بالنسبة إليك؟ أنا أيضاً محكوم عليّ، من دون علاج. الْحقْ بي، يا سيماوْ! لا يشدّك الحنين إلى الحياة، تخلّص منه، رغم أن عقلك قد يقول لك إنك ربما كنت ستجد السعادة إن لم تصادفني في الطريق الذي قادك إلى الموت... ويا له من موت، يا إلهي!... ارْضَ به موتاً! لا تندم. لو كان ذلك جريمة، فإن العدالة الإلهية ستغفر لك لِمَا ستلاقيه من عذاب في السجن... وفي الأيام الأخيرة، في حضور تلك...»

كانت تيريزا تتأهّب لكتابة كلمة، حين سقطت الريشة من يدها، وسرى تشنُّج قويّ في كامل جسمها لمدة طويلة. لم تكتُب الكلمة! لكن فكرة المشنقة علّقت كل شيء في حياتها. دخلت الراهبة تطلب منها الرسالة، لأنّ البريد سوف يخرج. أشارت تيريزا إلى الرسالة، وقالت:

- اقرئيها إن شئتِ، ثم أغلقيها، أرجوك، لأنني لا أستطيع.

ولم تغادر تيريزا السرير خلال ثلاثة أيام متوالية. وكانت الراهبات يتوقّعن أن تغمض عينيها إلى الأبد في أي لحظة.

- كم يعزّ على المرء أن يموت! - كانت المريضة تقول أحياناً.

ولم تكن تنقصها خطابات الوعظ والتقوى التي تريد أن تسلي فكرها عن أمور الدنيا.

كانت تيريزا تسمعها، وتقول في قلق وخوف:

- لكن ما معنى هذا الأمل في الجنة من دونه!... فما الجنة إذاً، يا إلهي!

ولم يكن كاهن الدير يعرف إن كان عليه أن يقول إنّ خيرات الجنة لها علاقة بخيرات الدنيا التي تسمى كذلك من غير حقّ في هذه الأرض. وكانت تلك الفترات من رهافة الروح تأتي مصحوبة بنوبات مرض الصدر، مثل آخر وميض ينبع من شعلة الحياة، وتحْدُث حين تُحدِّثها الراهبات عن سعادة الروح ونعيم الآخرة. أحياناً، يدفع وعي تيريزا وذكاؤها كاهن الدير إلى الغوص في مواضيع الفلسفة، ليتحدّث عن خلود الروح، فتردّ الشابة الجاهلة بحججٍ مقتضبة وواضحة دفاعاً عن تآلف الأرواح، المنسجمة أصلاً في هذه الدنيا. فيظلّ الأب حائراً من أمره لا يعرف إنْ كان من باب الهرطقة رفضُ استنتاجٍ لا ينسجم مع ما جاء في الأناجيل الأربعة.

واحتارَ الطب في عناد تلك الشابة وإصرارها على الحياة. راسَلت رئيسة الدير ابن عمّها تادِيو، تحثّه على الإسراع بزيارة الملاك الذي كان يودّع هذه الدنيا. فتملَّك العجوز إحساس عارم بالشفقة، وسمع نداء الأبوة بداخله، فقرَّر أن يُخرج ابنته من الدير، آملاً أن ينقذها. وانضاف إلى هذا السبب الأول سبب آخر أهمّ وأقوى: نقْلُ المحكوم عليه إلى سجن بوزْتو. أسرع النبيل، فوصل إلى بوزْتو تزامناً مع وصول الراهبة، صديقة تلك الراهبة الأخرى من لاميغو، التي سلَّمت المريضة هذه الرسالة من سيماوْ:

«لا تهربي مني، بعد، يا تيريزا. إنني لم أعد أرى المشنقة، ولا الموت. أبي يحميني، والخلاص أصبح ممكناً. علِّقي قلبك بحبل

الحياة. استمري في احتضارك ما دمتُ أقول لك إنني آمل وأرجو. غداً سينقلونني إلى سجن بوڤرتو وهناك أنتظر العفو أو تخفيف العقوبة. الحياة هي كلّ شيء. يمكن أن أحبك في المنفى. في كلّ مكان، هناك السماء، والأزهار، والله. إن عشتِ، ستكونين حرة في يوم من الأيام، فحجر القبر هو الذي لا يتزحزح من مكانه أبداً. عيشي، يا تيريزا، عيشي، يا حبيبتي! قبل أيام، كنتُ أظنّ أن دموعك قد تمسح عن وجهي لطخات دم المشنقة. لقد أصبح هذا الكابوس الفظيع من الماضي. إنني أتنفس الآن في هذا الجحيم: لم يعُد حبل الجلاد يخنق حنجرتي في الأحلام. إنني أحدّق بعينيَّ في السماء، فأرى العناية الإلهية التي ترحم الأشقياء. بالأمس رأيتُ نجْميْنا، ذانك اللذان يحملان أسرارنا في ليالي الغياب. رجعتُ إلى الحياة، فصارَ قلبي يفيض أملاً. لا تموتي، يا ابنة روحي!».

كان الليل في عزّه، حين جلست تيريزا، وقرأت هذه الرسالة. نادَت على الخادمة لتساعدها على ارتداء الملابس. أمرَتها أن تفتح نافذة الغرفة ثم قرَّبت وجهها من القضبان. كانت النافذة تطلّ على البحر، وكان البحر في تلك الليلة شُعلة فضية واسعة، والقمر يرتفع رائعاً، فيحجب بريق نجومٍ كانت تيريزا تبحث عنها في السماء.

- إنها تلك! صاحت.

- ماذا، يا سيدتي؟ - قالت كونْستانْزا.

- نجومي! إنها شاحبة مثلي... الحياة! نعم، الحياة! - صاحت وهي تنهض وتمرِّر على جبينها يديها العجفاوين - أريد أن أعيش! اتركني لأعيش، يا إلهي!

- ستعيشين، يا سيدتي! ستعيشين، إن الله رؤوف رحيم! - قالت الخادمة- لكن، عليك أن تتجنّبي نسيم الليل. هذا الضباب المتصاعد من النهر قد يؤذيك.

- اتركيني، اتركيني، فكلّ هذا هو الحياة... إنني لم أرَ السماء منذ مدة! أشعر أنني أُبعث من جديد هنا، لماذا لم أستنشق هذا الهواء كل ليلة؟ هل يمكن أن أعيش لسنوات أخرى؟ هل أستطيع، يا كونْستانْزا؟ اطلبي ذلك، وتوسّلي إلى السيدة العذراء! لنُصَلِّ معاً! هيا، لأن سيماوْ لن يموت... حبيبي سيماوْ يريدني أن أعيش وأحيا. سيكون في بورْتو غداً، وربما يكون قد وصل...

- مَن يا سيدتي؟

- سيماوْ، سيماوْ جاء إلى بورْتو.

ظنَّت الخادمة أن سيدتها تهذي، لكنها لم تعاكسها.

- هل توصَّلتِ منه برسالة، يا سيدتي؟ - أجابتها، وهي تظنّ أنها تُذكي بذلك جذوة سعادة تلك اللحظة.

- نعم، توصلت برسالة منه... أتريدين أن تسمعي؟... سأقرأ...

وقرأت الرسالة، أمام اندهاش كونْستانْزا التي اقتنعت بالأمر.

- والآن سنصلي، أليس كذلك؟... إنك لا تكنين له العداء، أليس كذلك؟ اسمعي، يا كونْستانْزا، لو تزوجت به، فسترافقيننا. سترين كم هو سعيد. هل تريدين أن تأتي معنا، هل تريدين؟

- نعم، يا سيدتي، سآتي معكما. لكن هل سينجو من الموت؟

- سينجو؛ سترين أنه سينجو؛ أبوه سوف ينقذه... والسيدة

العذارء هي التي ستجمع شملنا. لكن، إن أنا مُتُّ... إن مُتُّ، يا إلهي!

ثم وضعت تيريزا يديها المتشنجتين فوق صدرها، وأجهشت بالبكاء.

- إن خارت قواي!... الجميع يقول إنني سأموت، والطبيب لم يعُد يصف لي الدواء!... لو كان كذلك، سيكون من الأفضل أن أموت قبل هذه الساعة! لأموت على أمل، يا أمّ الرب!

ثم جثت على ركبتيها أمام المذبح المقدس الذي جلبته من غرفتها في فيزيوْ، والذي صلَّت أمامه أُمها وجدتها، والذي انطفأ أمام وجه عذرائه الرؤوفة نور أعين سيدتين محتضرتين.

14

أُعلن عن قدوم تادِيو دي ألْبوكيرْكي أمام باب دير كونْشيكي، يوماً بعد الأحداث السابقة.

وكانت ابنة عمه من أوّل مستقبيله. جاءت للقائه في قاعة المحادثة وهي تكفكف دموع الفرح.

- لا تظنّ أنني أبكي من الغم والحزن، يا ابن عمي -قالت- إن ملاكنا يمكن أن ينجو، بمشيئة الله. هذا الصباح رأيتُها تتجوّل وهي تمشي بين أروقة الدير. يا له من تغيير طرَأ عليها اليوم! وهذا لا يمكن أن يكون إلّا معجزة من صنع هاتين القديستين اللتين يرقد رفاتهما داخل هذا الدير. لو استمرّ تحسّنها بهذا الشكل، ستعيش تيريزا، وستسمح السماء لهذا الملاك أن يبقى بيننا لسنوات أخرى...

- يُسعدني ما تقولينه، يا ابنة عمي الطيبة -قاطعها النبيل.- لقد قررت أن آخذها إلى فيزيوْ، وهناك ستساعدها أجواء أرض مسقط رأسها، الأكثر نقاء من أجواء بورْتو، على أن تصحّ وتتعافى.

- أظنّ أنه لم يحِن الوقت بعد للقيام برحلة طويلة وشاقّة كهذه،

يا ابن عمي. لا تظنّ أنّ حالتها تسمح لها بالسفر. تذكر أننا بالأمس فقط كنا نظنّ أننا سنجدها ميتة اليوم. اتركها هنا لبضعة أشهر، وبعد ذلك لن أمانعك في أخذها، لكن، في انتظار ذلك، لا أوافق على قرار متهوِّرٍ كهذا.

- إنّ التهور، كلّ التهوّر -ردّ العجوز- هو أن تبقى في بورْتو، حيث، في هذه الأثناء، ربما يكون قد وصل ذلك الشرير الذي قتل ابن أخي. ألا تعرفين، يا ابنة عمي؟... نعم، لقد خرجَ قاضي المدينة، ذلك الوغد، ليُدافع عن ابنه، وتمكّن من أن تقبل المحكمة استئناف الحكم، بعد مرور الوقت القانوني، ولم يكتفِ بذلك، بل نقل ابنه إلى سجن بورْتو. إنني أقوم الآن بكلّ ما في وسعي كي يتمّ تأكيد الحكم الأول وأتمنى أن أحقّق ذلك. لكن، ما دام القاتل هنا، لا أريد أن تبقى ابنتي في بورْتو.

- أنت الأب، وما أنا إلّا قريبة من الأقارب -قالت رئيسة الدير- ليكُن ما تشاء. تريد أن ترى البنت، أليس كذلك؟

- هذا ما أريده، إنْ كان ممكناً.

- حسناً، بينما سأذهب لأنادي عليها، ادخُل إلى شبّاك النافذة الأولى على يمينك، ستأتي تيريزا للقائك.

بعد أن أخبَروا تيريزا أنّ والدها ينتظرها، تغيَّر لون العافية الذي أفرح الراهبات إلى شحوبه المعتاد. ولمّا رأتها العمَّة على هذا الحال، ارتأت ألّا تتركها تغادر الغرفة، وأن تتكلّف بتأجيل مقابلة والدها.

- عليّ أن أقابله -قالت تيريزا- سأذهب، يا عمتي.

ولمّا رآها أبوها، ارتعش وتأثّر أيّما تأثر. كان يتوقع تغييراً، لكنه لم يكن ينتظر كلّ هذا التغيير. وظنَّ أنه لن يتعرّفها إن لم يُخبروه أنه سيقابل ابنته.

- أهذه أنت، يا تيريزا!؟ -قال متعجباً، ومتأثراً.- لماذا لم تخبريني بحالك منذ مدّة؟

ابتسمت تيريزا، وقالت:

- إنني لست مريضة جداً كما تتصور صديقاتي.

- تيريزا، هل تشعرين أن لديكِ ما يكفي من القوة لتأتي معي إلى فيزيوْ؟

- لا، يا أبي، لا أملك حتى القوة لأقول لك في كلمتين إنني لن أعود إلى فيزيوْ.

- لمَ لا، إنْ كانت صحتك متوقفة على ذلك!؟

- إنّ صحتي متوقفة على عكس ذلك. هنا سأعيش وهنا سأموت.

- ليس كذلك تماماً -أجابها تادِيو بلطف زائف- لو رأيتُ أنّ هذه الأجواء مضرّة بصحتك، ستذهبين، لأنه من واجبي أن أقودك وأساعدك في محنتك.

- لستُ بحاجة إلى ذلك، يا أبي. الموت يُصلح كلّ أخطاء الحياة.

- أعرف ذلك، لكني أريدكِ حيَّة ترزقين، وأتمنى أن لا تخذلك قواك في الطريق. ما إن تقطعي نصف الرحلة حتى ترين كيف ستسترجعين عافيتك مثل معجزة.

- لن أذهب، يا أبي.

- لن تذهبي؟! - صاح العجوز غاضباً وهو يرمي نحو القضبان يديه المرتعشتين غضباً.

- إنّ هذه القضبان التي تتكئ عليها تفرّق بيني وبينك يا أبي، وستفرّقنا إلى الأبد.

- وهل نسيتِ القانون؟ أتظنين أنه ليست لي حقوق مشروعة لأجبركِ على مغادرة الدير؟ ألا تعلمين أنكِ بالكاد تبلغين ثماني عشرة سنة؟

- أعلم أنني أبلغ ثماني عشرة سنة؛ لا أعرف ما تقوله القوانين، ولا يهمني أنني أجهلها. قد تأتي يدٌ وتنتزعني بالقوة من هذا الملجأ، لكن كُن متأكداً يا أبي أنّ تلك اليد لن تجدَ غير جثة. بعد ذلك، ليفعلوا بي ما شاؤوا. لكن ما دمتُ قادرة على أن أقول لا، أقسم لك أنني لن أذهب، يا أبي.

- إنني أعرف ماذا يعني كلّ هذا -صاح العجوز- أتعلمين أنّ القاتل يوجد في بورْتو؟

- نعم، يا أبي.

- وتقولين ذلك من دون خجل ولا حياء من نفسك! بل و...

- يا أبي -قاطعته تيريزا- لا أستطيع أن أستمرّ في الاستماع إليك، لأنني أشعر أنني لستُ على أحسن حال. امنحني إذنك... وانتقم كما تشاء. وسيكون فوزي العظيم في نهاية رحلة العذاب الطويلة هذه أن ينصبوا لي مشنقة قرب مشنقة القاتل.

غادرت تيريزا شباك النافذة، ومشَت بضعة خطوات باتجاه

زنزانتها، ثم اتكأت مغمى عليها على الحائط. فهبَّت العمة والخادمة لمساعدتها، لكنها أبعدتهما برفق وهمهمت:

- لا داعي... أنا بخير... هذه المصائب تزيد المرء قوة، يا عمتي.

ومشت لوحدها بخطى متمايلة.

وراح تادِيو يقرع باب الدير بضربات قوية غاضبة، أرعَبَت حارسة البوابة وبقية الراهبات، اللواتي اندهشن لهذا التصرّف الغريب.

- ما هذا، يا ابن عمي؟ - قالت رئيسة الدير بصرامة.

- أريد أن أُخرج تيريزا حالاً.

- كيف تريد أن تُخرجها؟ ومَن سيجعلها تخرج؟

- أنتِ، يا سيدتي، لأنه لا يمكن أن تحجزي هنا بنتاً ضد إرادة والدها.

- هذا صحيح، لكن عليك أن تكون حذراً، يا ابن عمي.

- لا تحدِّثيني الآن عن الحذر، أريد أن تخرج ابنتي الآن.

- وهل ترفض أن تذهب معك؟

- نعم، يا سيدتي.

- إذاً، انتظر بلياقة حتى نُقنعها بالخروج، لأنه لا يمكن أن نُجبرها ونُخرجها بالعنف.

- سأذهب لآخذها، إن كان ذلك ضرورياً -ردّ بغضبٍ زائد- افتحوا هذه الأبواب، سوف أخرِجها!

- إنّ هذه الأبواب لا تُفتح هكذا، دون إذن من الجهات العليا. إن قواعد الدير لا يمكن أن تُخترق إرضاء لنزوة حاقدة. هدِّئ من

روعك يا سيدي! هدِّئ من غضبك وعُد في وقتٍ آخر لأتّفق معك، ونتوصّل إلى حلٍّ يليق بنا جميعاً.

- لقد فهمتُ! -صاح العجوز، وهو يحرِّك يديه ويضرب قضبان نافذة قاعة المحادثة- إنكن تتآمرن جميعاً ضدي! لا عليكن، سوف أُلقنكن درساً جيداً. واعلمي أيتها الرئيسة أنني لا أريد أن تتوصل ابنتي بأية رسالة من ذلك القاتل، أفهمتِ؟

- لا أظنّ أن تيريزا تلقّت يوماً رسائل من قاتل، ولا أظنّ أنها ستتوصل بها من الآن فصاعداً.

- لا أدري إن كنتِ تعلمين أو لا تعلمين. سأراقب الدير. عليكن أن تُخرجن حالاً تلك الخادمة التي ترافقها، أفهمتِ؟

- لماذا؟ - ردَّت عليه رئيسة الدير غاضبة.

- لأنني كلَّفتها بأن تُخبرني عن كلّ صغيرة وكبيرة، لكنها لم تقُل شيئاً.

- لكن لم يكُن لديها ما تُخبرك به، يا سيدي!

- لا تروي لي أكاذيب، يا ابنة عمي! أريد أن أرى تلك الخادمة خارج الدير حالاً!

- ولكني لن أنزل عند رغبتك، لأنني لا أريد أن أظلم أحداً. إذا كنت تريد، يا سيدي، أن تكون لابنتك خادمة أخرى، فأرسِلها، لكن التي معها الآن، ما إن تكفّ عن خدمتها حتى تنتقل إلى جانب سيدات أخريات يرغَبن في خدماتها، وهي أيضاً تريد أن تبقى هنا.

- لقد فهمتُ -قال زاعقاً- إنكن تردن أن تقتلنني، لكن لن يكون لَكُنَّ ذلك، بل أفضِّل أن أتحالف مع الشيطان!

غادر تادِيو دي ألْبوكيرْكي غَضِباً فناء الدير. كان غضباً فظيعاً

ذلك الذي جعل تعابير وجهه تنقبض، والدم والعرق يغزوان عينيه الغائرتين.

وتوجّه إلى مدير الشرطة مُطالِباً باتّخاذ كلّ الإجراءات كي يتسلَّم ابنته. فأجابَه المدير أنه ليس من اختصاصه القيام بتلك الإجراءات، وحث السجّانَ على ألّا يترك أيّ رسالة تخرج من عند القاتل الذي جاء من إقليم فيزيوْ، والمدعو سيماوْ بوتيلْيو. وقال المدير إنه لا يستطيع أن يمنع السجين من مراسلة مَن يشاء، إلّا في ما له علاقة بالإجراءات القانونية المتعلقة بالقضية.

فازداد غضبه، وتوجّه من هناك نحو قاضي مدينة بورْتو عارضاً عليه المطالب نفسها، بنبرة متعالية. كان قاضي المدينة صديقاً لدومينْغوشْ بوتيلْيو، فطرَدَه بجفاء، وهو يقول إنّ عجوزاً يفتقد للحكمة يستحقّ السخرية والشفقة معاً. فكاد تادِيو دي ألْبوكيرْكي، حينئذٍ، أن يفقد رشده. كان يمشي جيئة وذهاباً في شوارع بورْتو، من دون أن يتوصّل إلى حلٍّ يليق بمقامه وقوة انتقامه. في اليوم الموالي، دقَّ باب بعض القضاة المستشارين فوجدهم أكثر ميلاً إلى الرأفة منهم إلى العدالة بخصوص سيماوْ بوتيلْيو. وكان أحدهم صديق طفولة السيدة ريتا بْريسْيوزا، التي توسَّلت إليه من أجل ابنها، فتحدَّث مع النبيل الغاضب بهذه العبارات:

- إنه لا يفصل المرء سوى خيط رفيع عن القتل، سيد ألْبوكيرْكي. كم من الناس كنت ستقتل اليوم لو وجدت خصوماً يقفون في وجه غضبك؟ هذا الشاب الشقيّ، الذي تصبّ عليه جام غضبك وقساوة صرامتك، يحتفظ بكرامته في مستوى ما حلَّ به من مصيبة وبلاء. تخلى عنه والده، وتركه ليُحكمَ عليه بالمشنقة؛ لكنه، حتى

في أقسى الظروف لم يصدَح قط بصيحة توسُّل أو طلب شفقة. لقد تفضَّل غريبٌ وتصدَّق عليه بإعالته لمدة ثمانية أشهر في السجن، فقَبِلَ الصدقة، لأنها كانت شرفاً له ولمن كان يقدِّمها إليه. ذهبتُ اليوم لأرى هذا الشقي، وهو ابن سيدة عرفتها في البلاط حين كانت تجالس الملوك. وجدته يرتدي لباساً متواضعاً من قماشٍ داكن. سألتُه إن كان لا يملك لباساً، فقال لي إنه يرتدي من الملابس ما تسمَح به وسائله وإمكاناته، وأنه يدين بذلك السروال وذلك المعطف إلى شفقة بيطار. فسألته لماذا لا يراسل أباه حتى يحصل على لباس لائق، فردّ أنه لن يطلب شيئاً من شخص يوافق على أنه يجب أن يكفِّر عن آثام قلبه وكرامته وشرف اسمه في المشنقة. ثمّة شموخ لدى هذا الشاب وهو في الثامنة عشرة من عمره، سيد ألْبوكيرْكي. لو أنكَ وافقت، يا سيدي، على أن تحبّ ابنتك السيد سيماوْ بوتيلْيو كاشتيلو بْرانْكو، لكُنتَ احتفظت على حياة ذلك الرجل من دون شرف الذي اعترض سبيله يشتم ويسبّ، ويعتدي عليه جسدياً. فما كان بوسع سيماوْ إلّا أن يردّ دفاعاً عن شرفه، وينتقم لنفسه كرجل شجاع وشريف. لو أنك، يا سيدي، لم تعترِض على حبّ ابنتك الشريف والبريء، لما أمَرَت العدالة بإقامة مشنقة، ولما تمَّت التضحية بحياة ابن أخيك في سبيل نزوات أبٍ شرير. لو أنّ ابنتك تزوجت من سيماوْ، فهل يلطِّخ ذلك شرفك وشعار نبالتك؟ لا أدري إلى أيّ قرن ترجع نبالتك، يا سيد تادِيو دي ألْبوكيرْكي، لكني أستطيع أن أخبرك عن أنباء في صفحات حقيقية تتحدث عن عرق سلالة السيدة ريتا مارْغاريدا بْريسْيوزا كالديراوْ كاشْتيلو بْرانْكو على امتداد تاريخ هذه المملكة. فمن جهة أبيه، يجري في عروق سيماوْ بوتيلْيو أحسن دم

من دماء منطقة تْرازوشْمونتيشْ، ويمكن أن ينافس دم سلالة ألْبوكيرْكي من فيزيوْ، الذي ليس هو دم سلالة آل ألْبوكيرْكي القُساة الذين يتحدث عنهم لويشْ دي كامويْشْ[1].

أهانَت هذه السخرية تادِيو دي ألْبوكيرْكي ونفذت إلى أعماق نفسه، فنهض فجأة، وأخذ قبّعته وعصاه الذهبية ثم حيّا مودِّعاً.

- الحقيقة مُرّة مؤلمة، أليس كذلك؟ - قال له القاضي المستشار موراوْ موسْكيرا مبتسماً.

- أنتَ تعرف ما تقول وأنا لديّ رأيي في كلّ ذلك - أجابه النبيل بنبرة متهكِّمة، وقد مُسَّ شرفُه وشرف أجداده الخمسة عشر.

فردَّ عليه القاضي المستشار قائلاً:

- احتفِظ برأيك، لكني أؤكّد لك، فقط لأخبرك، أن سيماوْ بوتيلْيو لن يذهب إلى المشنقة.

- سنرى ذلك... - دمدم العجوز.

---

(1) شاعر برتغالي من القرن السادس عشر. كتب عن أمجاد البرتغال، كما تغنى بنبلاء البلاد وملاحمها التاريخية في رائعة تحت عنوان **اللوزيادة**. (المترجم)

15

مرّت ثلاثة عشر يوماً من شهر مارس من سنة 1805.

سيماوْ في زنزانة بسجن بورْتو. منصة خشبية، مطرح للنوم، طاولة وكرسي من خشب الصنوبر، ورزمة من الملابس وُضِعَت مكان المخدة، هذا كلّ ما يملك من أثاث. وفوق الطاولة علبة خشبية سوداء تحتوي رسائل تيريزا، أزهار جافة، ما كتبه بخطّ يده داخل سجن فيزيوْ ومريلة مارْيانا، آخر شيء كفكفت به دموعها يوم صدور الحكم ثم خلعته عند أول لحظة من لحظات جنونها.

يُعيد سيماوْ قراءة رسائل تيريزا، يفتح الأظرفة التي تحتوي أزهاراً مجففة، ويتأمَّل مريلة ثوب الكتان، يبحث عن آثار دموع متلاشية. بعد ذلك يسند وجهه وصدره إلى قضبان النافذة، فيرى الأفق الذي تحدّه جبال فالونْغو وغْرالْييرا، وينتهي عند الضفاف الجميلة لغايا، وكانْدال، وأوليفيرا ودير جبال بيلارْ. إنه يوم جميل. زرقة السماء تعكس كلّ ألوان الربيع. امتلأ الجو عطراً، وصبَّت نسائم الحدائق الهاربة في الفضاء أريجاً فوّاحاً اختلسته من الأزهار. إنه ذلك الفرح غير المحدّد الذي يبدو لامعاً في تلك الأنفاس التي

تنشأ مع شمس مارس، فتفرح الطبيعة وتزهو بضوئها وأزهارها، وتعشق ذلك الدفء الذي يُخصِّبها.

يوم حبّ وأمل ذلك الذي أرسلَه الرّب إلى الكوخ المنعزل في عمق الجبل، وإلى البلاط الفاخر الذي يعكس تحت نور الشمس بهاءه، وإلى الغني الذي يمشي مزهواً بمتاعه الأنيق، يستنشق نسائم الجو العليل، وإلى الفقير الذي يحرّك أطرافه مستنداً إلى دعامات المعبد.

وسيماوْ بوتيلْيو يهرب من ضوء النور ورفرفة العصافير، ليتأمّل، ويبكي ويكتب تأمّلاته:

«رزق عمل كلّ يوم وصدْرُكِ لأريح عليه ساعة وجهي الذي لا تشُويه شائبة: لم أطلب من السماء أكثر من هذا.

وجدتُني وقد صرت رجلاً في السابعة عشرة من عمري. رأيت الفضيلة في نور حبكِ. اعتقدتُ أن العشق الذي يمتصّ كلّ أنواع الحب عشقاً مقدّساً، أو أنه يطهّرها بناره المقدسة.

لم تُدنس أفكاري يوماً رغبةٌ لا أستطيع أن أبوح بها بصوت عالٍ أمام الجميع. أخبريني، أنت يا تيريزا، إنْ كانت شفتاي قد دنّستا طُهر مسامعك. واسألي الرّب متى كنتُ أرغب يوماً في أن أجعل من حبّي خزياً وعاراً عليك.

أبداً، يا تيريزا! أبداً، أيها العالَم الذي غضبتَ عليّ!

لو شاء أبوك أن أمشي زاحفاً وأُقبِّل قدميه لأفوز بكِ، لهرعتُ إليه مسرعاً. لو طلبتِ مني أن أموت حتى لا أحرمكِ من أن تكوني سعيدة مع رجل آخر، سأموت يا تيريزا!

لكنك كنتِ وحيدة وتعيسة، فظننتُ أن جلّادك لا ينبغي له أن يعيش بعد موتك. أنا قاتل، لكني لا أشعر بالندم على ما فَعَلْت. إنّ شرّ الجريمة يُضيع الوعي، لكن وعيي لم يَضِعْ، فلم أخشَ يوماً سلالم المشنقة، ولم أستيقظ قط وأنا أتخبَّط في كابوس الخوف من الاختناق.

كنت أنتظر كلّ يوم ساعة الصلاة في المصلى، فأقول مع نفسي: سأتحدّث مع السيد المسيح.

من دون رعبٍ ظللتُ أتأمّل خلال ستين ساعة، كنتُ أنتظر فيها هذا الاحتضار المعنويّ، فأواسي النفس بكلمات لا تجرؤ هذه الجريمة على أن تحظى بها من دون أن تُغضب العدالة الإلهية.

لكني كنتُ أبكي لأجلك، يا تيريزا! وفوق ثمالة كأسي ومرارتها كانت تطفو مرارة آلاف الدموع التي ذَرَفْتِها.

كنتُ أسمع أنينك في أذني، أيتها المُعذَّبة! فأراكِ أمام عينيّ تتشنّجين بسكرات الموت وأنتِ تهذين. والموت نفسه يشمئزّ من فظاعة المأساة. سوف تموتين لاحقاً، لأنّ صورتي، بدل أن تتجلى لك في مجد الاستشهاد، ستكون شبحاً يطفو فوق منصّة المشنقة.

يا له من موت ينتظركِ، يا حبيبتي الطاهرة».

واستمرّ في تأملاته إلى أن جاء جْواوْ دا كْروشْ الذي دَخَلَ إلى الغرفة بإذن من المدير العام للشرطة.

- أهذا أنت هنا! -صاح سيماوْ، وهو يعانِقه- ومارْيانا؟ هل تركتها لوحدها؟ ربما ماتت!

- لا وحيدة ولا ميتة، يا سيدي! ليس بوسع الشيطان أن يقوم بكلّ أعمال الشرّ. . . لقد استرجعت مارْيانا رشدها.

- صحيح، سيد جْواوْ؟

- طبعاً، وهل أقول غير الحقيقة! . . . كان ذلك مثل عمل ساحر بالنسبة لي. . . خضعتْ لاستنزاف الدم، وفتيلة الجرح، وصبّ الماء البارد على الرأس، وحصص من التعاويذ وطرد الجن، لكنها في الأخير شُفيت وتعافت. وما إن تستعيد قواها حتى تنطلق في رحلتها لزيارتك.

- الحمد لله! - صاح سيماوْ.

- آمين -أضاف البيطار- ما هذا الأثاث؟ وما هذا الفراش غير المريح؟ لا بدّ من فراش لائق هنا، وشيء يمكن لرجل مؤمن أن يجلس عليه.

- هذا جيد هكذا.

- هذا ما أراه. . . وماذا عن الأكل والشراب؟

- ما زال معي نقود، يا صديقي.

- لا بدّ أن معك مال كثير، لا شك في ذلك، لكني أتيتُ بمال أكثر، انظر مَن يبعث إليك. اقرأ هذه الورقة.

قرأ سيماوْ رسالة السيدة ريتا بْريسْيوزا، التي كتبتها إلى البيطار، والتي تسمح فيها بمدّ ابنها بكل ما يحتاج من مصاريف، وتُخبره باستعدادها لأداء كلّ أمرٍ يحمل توقيعه.

- هذا طبيعي -قال سيماوْ، وهو يُعيد إليه الرسالة-، لأنه لا بد أنّ لي أماً شرعية.

- إذاً، كما رأيت ما عليك سوى أن تطلب ما تريد. وسأشتري لك كلّ ما تحتاج...

- افتح لي صدرك النبيل لتُسدي لي خدمة أسمى - قاطعه السجين.

- تفضّل، يا سيدي.

فطلب منه سياوْ أن يسلِّم في مونْشيكي رسالة إلى تيريزا دي ألْبوكيرْكي.

- يبدو أن الشيطان يثير المشاكل! -قال البيطار- هات الرسالة. - إنّ والدها هنا. هل تعرف ذلك؟

- لا.

- إنه هنا، ولو أنّ الشيطان وضعه في طريقي، لكسرتُ رأسه. لقد خطرَ ببالي أن أنتظره في الطريق وأعلّقه في غصن شجرة من عنقه... هل يجب أن أعود بجوابٍ عن هذه الرسالة؟

- إن سلّموك جواباً، يا صديقي.

وصلَ البيطار إلى دير مونْشيكي، في الوقت الذي كان يدخل فيه إلى فناء الدير مأمور قضائي، وطبيبان رفقة السيد تادِيو دي ألْبوكيرْكي.

تحدَّث المأمور مع رئيسة الدير، يطالبها باسم القاضي، أن تسمح لطبيبين بولوج الدير وفحص المريضة المدعوة تيريزا كْليمينْتينا دي ألْبوكيرْكي، بأمرٍ من والدها.

سألت الرئيسة الطبيبين إن كان معهما إذن من الكنيسة بولوج الدير. وأمام جوابهما السلبي ردّت الرئيسة بأن أبواب الدير لن

تُفتح. فأخبر الطبيبان تادِيو دي ألْبوكيرْكي بأنّ ذلك كان أمراً معتاداً في الأديرة، وأنه لا فائدة من معارضة أمر الرئيسة الصارمة.

خرجا، وحينئذٍ فقط فكّر البيطار في طريقة لتسليم الرسالة. فكانت أول فكرة خطرت بباله هي الأحسن. اقترب من الشباك، وقال:

- سيدتي الراهبة!

- ماذا تريد، يا سيدي؟ - قالت الرئيسة.

- هل يمكنك، يا سيدتي، أن تُخبري السيدة تيريزا من فيزيوْ بأنه قد حضر إلى هنا والد تلك الفتاة القروية التي تعرفُها؟

- ومَن أنت يا سيدي؟

- أنا هو والد تلك الفتاة التي تعرفُها.

- أعرف! - تعالى صوت تيريزا من الداخل، وهي تجري نحو غرفة المحادثة.

انسحبت الرئيسة إلى الجانب، وقالت:

- خذي حذركِ ممّا تقومين به، يا ابنتي...

- هل كتبَتْ لي ابنتُك رسالة؟ - قالت تيريزا لجْواوْ دا كُروشْ.

- نعم، يا سيدتي، وهذه هي الرسالة.

ووضع الرسالة في الدولاب، فلاحظت الرئيسة ذلك، وقالت مبتسمة:

- ما أكبر ذكاء الحب، عزيزتي تيريزا... أتمنى من الرب أن تُفرحك الأخبار التي تلقّيت من صديقتك القروية، لكن، حذار يا ابنتي، لا تظني أنّ عمتك العجوز أقلّ ذكاء من «والد تلك الفتاة القروية».

فردَّت تيريزا بقبلات على فرح الراهبة العطوفة، ثم اختفت لتقرأ الرسالة، وتردّ عليها. ثم قالت للبيطار، وهي تسلِّمه الرّد:

- ألا ترى متسوّلة تجلس هناك عند تلك السلالم؟

- نعم، يا سيدتي، إنني أراها، وأعرفها. كيف جاءت إلى هنا هذه المرأة؟ اعتقدتُ أنه بعد أن أشبَعَها البستاني ضرباً لم تعُد رِجلاها قادرتين على أن تحملاه إلى هنا! لكنها تبدو قوية.

- اخفض صوتك -قالت تيريزا- انظر... إن جئت برسالة فسلِّمها إياها. لقد أرسلتها إلى السجن لكنهم منعوها من الدخول.

- حسناً، هذا حلّ لا بأس به. أتركك بخير، يا سيدتي.

انشرح سيماوْ لهذا الخبر السعيد. وحَظِيَ يومها برفق العناية الإلهية. أن تستعيد مارْيانا رشدها ويستطيع أن يكتب إلى تيريزا كانتا أكبر فرحتين نزلتا عليه من السماء وسط ما كان يتخبّط فيه من سوء الطالع.

وراح سيماوْ يحمد الله ويشكره، في حضور جْواوْ دا كْروشْ الذي كان يضع في الغرفة أثاثاً مستعمَلاً اقتناه. فتوقّف عن عمله، وصاح:

- سأقول لك أمراً آخر، لم يكن في نيتي أن أقوله لك، حتى أفاجئك.

- ما هو؟

- لقد جاءت معي ابنتي مارْيانا، لكنها بقيت في الفندق، لأنّ ألماً أصابَها فمنعها من الحركة؛ لكنها ستكون هنا غداً لتحضِّر لك الأكل وترتِّب الغرفة.

فركّز سيماوْ مع هذا الإحساس الغامض الذي بعثه فيه هذا الخبر، ثم قال بنبرة حزينة ومتثاقلة:

- ربما يحمل تيار مصيري السيئ معه مصير ابنتك الشقية إلى كلّ هاوية سحيقة أسقط فيها! فيا ملاك الرأفة والشفقة، ما أجدرك بنعيم الجنة!

- أية صلاة تلك التي تتلوها الآن، يا سيدي؟ -قاطعه البيطار- يبدو أن هذا الخبر قد أصابك بشيء من الحزن!...

- سيد جْواوْ -قال السجين بنبرة مهيبة- لا تترك ابنتك هنا. إنني أريد أن أراها، أحضرها معك مرة إلى هنا، لكن لا تتركها هنا، لأنني لا أستطيع ولا أريد أن أغيِّر مصير مارْيانا. كيف لها أن تعيش في بورْتو لوحدها، لا تعرف أحداً، وهي امرأة جميلة، يتعقَّبها كلّ مَن وقعت عليها عيناه؟!...

- يتعقَّبها كلّ مَن وقعت عليها عيناه! نعم، نعم. وهي لا تريد أن يتعقَّبها أحد! يمكن أن يقتربوا منها، لكن عليهم أن يتركوا وجوههم في بيوتهم. يا صديقي، المرأة مثل الإجاصة الفجّة: حين يتلمّسها الرجل فيجدها صلبة، يتركها ويُعرِض عن أكلها. والبنت تشبه أمها في هذا الأمر. عندما كنتُ أغازل زوجتي، رحمها الله، قرصتُها يوماً في رجلها. فما كان منها سوى أن نهضت ووجَّهت لكمتين إلى أنفي، ما زلتُ أشعر بهما إلى اليوم. مارْيانا!... فيها شيء من الشيطان! وإلّا فاسأل ذلك النبيل من فيزيوْ المدعو مينْديشْ الذي ضربَت وجهه بالزمام فقط لأنه لمس حذاءها بينما كانت تمتطي الأتان!

ابتسم سيماوْ وهو يستمع إلى هذا المديح في شجاعة الشابة

وبسالتها، ففكر في العناية العطوفة التي شملتها به لأكثر من ثمانية أشهر متتالية من المعاشرة.

- وهل تقبَل أن تحرم نفسك من رفقة ابنتك؟ - قال السجين بإلحاح.

- سوف أتدبَّر أمري هناك. لديّ حماة عجوز، سآخذها معي لتتكلّف بأمور الطبخ والأكل. ثم إنك لن تبقى هنا لوقت طويل، يا سيدي... إنّ السيد قاضي المدينة يعمَل ما في وِسعه ليُخرجك من هذا السجن، وستخرج لا محالة. لذا سأقول لك الحقيقة. إن لم أترك الفتاة لتأتي إلى بورْتو فقد تنفجر. انظر، يا سيدي، أنا لستُ مجنوناً، ولا أحد يعتبرني كذلك. إنّ الفتاة متعلقة بك أيّما تعلّق، وهذا صحيح كما أنّ اسمي جْواوْ. هذا قدرُها، فماذا عساني أفعل؟ سأتركها لأنه لن يصيبها شرّ رفقتك، وإلّا فإنّ هذا العالم لم يعُد فيه شرف ولا شهامة.

فارتمى سيماوْ في أحضان البيطار، وصاح:

- آه لو كان بإمكاني أن أكون زوجاً لابنتك، يا صديقي!

- عن أي زواج تتحدث! ... -قال البيطار وقد اغرورقت عيناه بدموع رآها سيماوْ- إنني لم أفكِّر قطّ في هذا الأمر ولا هي فكرت فيه!... أعرف أنني بيطار وهي تعرف أنها يمكن أن تكون خادمتك، لا شيء غير هذا، سيد سيماوْ؛ لكن... أتعرف ماذا؟ إنني أريد لأصدقائي أن يكونوا تعساء كما قد تكون أنت يا سيدي لو أنك تزوّجت بهذه الفتاة الفقيرة! دعنا من الحديث في هذا الأمر، لأنه يجعلني أبكي، وأنا حين أبكي تصير عيناي نافورة متدفقة... لنرى كيف نرتّب الأثاث؛ نضع الطاولة هنا، والخزانة هنالك،

وكرسيين في هذا الجانب، وآخرين في الجهة الأخرى. وهنالك نضع السرير، والصندوق تحته. ثم نضع الطست وجرة الماء فوق هذا الشيء، الذي لا أعرف كيف يسمونه. المناديل والملابس ما زالت هناك مع الفتاة. وغداً ستصير هذه الغرفة كأنها جديدة. انظر، لقد أمرتني مارْيانا أن أشتري اثنين من تلك... كيف تسمّى تلك الأواني التي تَوْضَع فيها أكاليل الورود؟

- مزهريات.

- نعم، مزهريتان، لكني لا أعرف أين تُباع. الآن سوف أذهب لأبحث عن الأكل، فقد تظنّ الفتاة أنهم لم يتركوني أخرج من السجن. ولم أخبركَ أنهم منعوني من الدخول عشية أمس، لكن بما أنني كنتُ أحمل رسالة من أمك إلى السيد القاضي المستشار ذهبتُ لأسلّمه إياها، واليوم صباحاً حصلت على إذن بالدخول لزيارتك سلَّمه لي المدير العام للشرطة. إلى اللقاء.

16

يخطر الآن ببالي حادث، ليست له علاقة منسجمة مع مجرى الحكاية، ولكنه مناسب لإبراز وجهٍ من وجوه شخصية قاضي مدينة فيزيوْ السابق، بعد أن أُعْفِيَ من منصبه.

من المعلوم أنّ مانْويلْ بوتيلْيو، ابنه البكر، عادَ ليتابع دراسة الرياضيات في جامعة كُويمْبْرا، ومن هناك فرّ إلى إسبانيا رفقة سيدة تخُون زوجها، وهو طالب من جزر الآزور كان يدرس الطب.

ومكث مانْويلْ بوتيلْيو في إقليم لاكورونْيا مدّة سنة رفقة الهاربة من بيتها، ينفق ممّا كانت تزوّده به أمه الحريصة على راحته. وكانت تبعثها إليه بعد أن باعت واحدة واحدة كلّ مجوهراتها، وحرَمَت بناتها ممّا يليق بسنِّهن ومقامهن من متع الحياة.

نضب منبع هذه الموارد المالية ولم تعُد هناك من موارد أخرى. وأخبرت السيدة ريتا ابنها مانْويل أنها تخلّت عن إنقاذ سيماوْ لأنها لا تملك الوسائل لذلك، وأنها لا يمكن أن تبعث له شيئاً من الموارد القليلة التي توفّرها، لأنها التزمت بدفع مبالغ مؤونة سيماوْ التي تكفّل أحد الأشخاص بالتصدّق بها عليه في فيزيوْ، وما زال يقدِّمها له في

بورْتو. ولتسلي عن ابنها، طلبت منه أن يأتي إلى فيلا رِيالْ، رفقة تلك السيدة التعيسة، وأن يُقيم هو في البيت ويتركها في أحد الفنادق ريثما يجد لها مسكناً، وأن المناسبة مؤاتية لأنّ والده يوجد في مزرعة مونْتيزيلوشْ، كأنه منفصل عن العائلة.

عاد مانْويلْ بوتيلْيو رفقة السيدة إلى مدينة بورْتو عبر نهر مينْيو، خمسة عشر يوماً بعد دخول سيماوْ إلى السجن.

لقد ذكرنا في وقت سابق أنّ الأخوين لا يتفاهمان ولا يحترم أحدهما الآخر. لكن مأساة سيماوْ تكاد تغطي على طَبعه الحاد الذي كلّفه جفاء أمه وأبيه، ولم يتبقَّ له سوى حبّ أخته ريتا التي يحتفظ لها بذكرى عزيزة في قلبه.

ذهب مانْويلْ إلى السجن، وعانق أخاه، لكنه لم يلاقِ غير استقبالٍ بارد.

طلب منه مانْويلْ أن يروي له أحداث مأساته.

- كلّ شيء يوجد في ملف الدعوى القضائية - أجابه سيماوْ.

- وهل لديكَ أمل في أن يطلقوا سراحك، يا أخي؟ - ردَّ مانْويلْ.

- إنني لا أفكر في هذا الأمر.

- ليس لديّ كثير ممّا أستطيع أن أقدِّمه لك، لأنني عدتُ إلى البيت بعد أن نضبَت مواردي؛ لكنكَ إن احتجت لبعض الملابس، يمكنني أن أقتسم معك ما أملكُ منها.

- لستُ بحاجة إلى أيّ شيء. ولا أقبل الصدقة إلّا من تلك المرأة.

وكان مانْويلْ قد انتبه إلى مارْيانا، واستنتج من جمالها أفكاراً

خاطئة وأحكاماً مغلوطة.

- ومَن تكون هذه الشابة؟ - رد مانْويلْ.

- إنها ملاك... لا أستطيع أن أقولَ لكَ غير هذا.

ابتسمت مارْيانا، وقالت:

- أنا في خدمة السيد سيماوْ وفي خدمتك، يا سيدي.

- هل أنتِ من بورْتو؟

- لا، يا سيدي، أنا من ضواحي فيزيوْ.

- وهل كنتِ دائماً ترافقين أخي؟

فقاطع سيماوْ جواب مارْيانا المتردِّد قائلاً:

- إنّ فضولك يُزعجني، يا أخي مانْويلْ.

- ظننتُ أنّ فضولي لم يكن مهيناً -ردّ الآخر، وهو يلتقط قبّعته- هل تريد أن تقول شيئاً لأمي؟

- لا شيء.

وبينما كان مانْويلْ بوتيلْيو في تلك العشية يشدّ حقائبه ليتابع طريقه نحو فيلا رِيالْ، جاء لزيارته المستشار القضائي موراوْ موسْكيرا والقاضي المكلف بالتحقيق في الجرائم.

- بفضل تقارير الشرطة -قال القاضي المحقِّق- علمنا أنه قد نزل بهذا الفندق ابن أحد أصدقائي، رفيقي في الدراسة، وزميلي دومينْغوشْ كورّيا بوتيلْيو. وقد جئنا لنحيّيه ونقدّم له الخدمة والمساعدة. هل هذه المرأة زوجتك؟ - أضاف القاضي، وهو ينتبه إلى تلك السيدة من جزر الأزور.

- إنها ليست زوجتي... قال مانْويل متلعثماً - إنها أختي.

- أختك ... -قال موسْكيرا- مَنْ مِنْ أخواتك الثلاثة؟ رأيتهن

قبل خمس سنوات في فيزيوْ، وقد تغيّرت كثيراً هذه السيدة حتى أنني لا أذكر شيئاً من ملامحها الأولى. هل هي السيدة أمالْيا؟

- تماماً - قال مانْويلْ.

- إنك جميلة، يا سيدتي، لكن وجهك مختلف كثيراً عمّا كان عليه وقتها!...

- هل أتيتما لزيارة الشقي سيماوْ؟ قاطَعَه القاضي المحقِّق.

- نعم، يا سيدي... جئنا لزيارة أخي المسكين.

- لقد كان ذلك الشاب صاعقة ضربت العائلة!... -أضاف موسْكيرا- لكن، كُن متأكداً أنّ الحُكم لن ينفَّذ؛ قُل لأمك أنك سمعتَ هذا من فمي مباشرة. المحكمة مستعدّة لتخفِّف من حكمه لمدة عشر سنوات من النفي إلى الهند، وقد أخبرني أبوك، عند مروره بمدينة فيلا رِيالْ، أنه قد أعدَّ كل شيء وقدَّم التماساً إلى محكمة البلاط، رغم أنّ القتيل له أقارب نافذون في هذه الهيئة. نريد أن نبرأه ونعيده إلى عائلته، لكن كلّ هذا غير ممكن. لأن سيماوْ قتل ويعترف مفتخراً بفعلته. إنه مجنون شقيّ تحرِّكه مشاعر نبيلة! لقد تقاطرت رسائل كثيرة ممّن يقفون إلى جانب ألْبوكيرْكي ويساندونه. يطالبون برأس هذا الشاب المسكين بوقاحة مهينة.

- وتلك الفتاة التي كانت سبباً في كلّ هذه المأساة؟ - سأل مانْويلْ.

- إنها بطلة -قال قاضي التحقيق- كانوا يعتبرونها من الأموات حين وصل سيماوْ إلى هنا. لكنها منذ أن علمت بخبر تخفيف العقوبة، ركَلَت الموت ونجَت من مخالبه، بحسب ما أخبرني الطبيب.

- هل تعرفينها جيداً، يا سيدتي؟ - قال القاضي المستشار للسيدة، شقيقة مانْويلْ المفترضة.

- أعرفها جيداً - أجابت وهي تنظر خلسة إلى عشيقها.

- يقولون إنها جميلة للغاية!

- هذا صحيح -هبَّ مانْويلْ قائلاً- إنها جميلة للغاية!

- حسناً -قال القاضي المحقّق، وهو ينهض- أبلِغ أباكَ سلامي، وأخبِرْه أن زميله هنا وفي خدمته كالمعهود. سأكتب إليه في القريب العاجل.

- وتحيّة أخرى إلى أمك الفاضلة - أضافَ القاضي المستشار.

- إنّ لدي شك -قال موسْكيرا لزميله- لقد فرَّ مانْويلْ بوتيلْيا قبل سنة إلى إسبانيا مع سيدة متزوجة. وتلك المرأة التي رأيناها ليست أخته.

- حسناً، إن كان ذلك الوغد قد كذب علينا، وأجبرنا على مغازلة خليلته!... سوف أتأكَّد من الأمر ... - قال قاضي التحقيق، وقد شعرَ بالإهانة التي لحقَت بصرامته ومكانته.

وقد جاء في الفقرة الأخيرة من الرسالة التي بعث بها بعد ذلك إلى دومينْغوشْ بوتيلْيو ما يأتي:

«لقد حصل لي شرف معرفة ابنك مانْويلْ وإحدى بناتك؛ فبعثتُ معه لك بسلام، ومعها بسلام آخر، لو سُمح للآباء العجائز أن يُعلِّموا بناتهم الجميلات كيف يقبّلن آباءهن».

عاد مانْويل إلى بيت الأسرة، وكان منشغلاً بإعداد بيت متواضع

للفتاة الأزورية، بمساعدة أمه الطيبة والمتسامحة. علم دومينْغوشْ بوتيلْيو بقدوم الابن، وقال إنه لا يريد أن يقابله، وأضاف أنه يعتبره هارباً من الكتيبة السادسة منذ أن تخلى عن الدراسة، حيث كان يدرس بواسطة إذن خاص.

تلقى بعد ذلك الرسالة التي بعثها قاضي التحقيق، فأمر فوراً أن يُنجَزَ بحثٌ سرّي في فيلا رِيالْ للتأكّد من وجود تلك السيدة التي تتحدّث عنها الرسالة. وقال مَن تكلّفوا بالتجسّس عليها أنها تقيم في الفندق، بينما كان مانْويلْ بوتيلْيو يعمل على ترتيب البيت الجديد وإعداده. بعث القاضي برسالة إلى قاضي المدينة، واستدعى هذا الأخير المرأة المشبوهة لتَمْثُل أمامه، فسمع منها حكايتها الكاملة، التي روَتها بصراحة وهي غارقة في دموعها. أشفَقَ القاضي لحالها، وكشف لزميله عن نتائج التحقيق. ذهب دومينْغوشْ بوتيلْيو إلى فيلا رِيالْ وأقام في بيت قاضي المدينة، حيث استدعيت السيدة مرَّة أخرى في الوقت الذي أصدر فيه الجنرال الإقليمي أمراً بسجن الطالب العسكري الهارب من كتيبة بْراغانْسا.

وبدل القاضي، وجدت الأزورية أمامها رجلاً ذميماً، مقطَّب الحاجبين، يشي محيّاه عن نوايا سيئة.

- أنا والد مانْويلْ -قال دومينْغوشْ بوتيلْيو- أعرف حكايتكِ، يا سيدتي. ابني هو الوغد وأنتِ الضحية. وسيبدأ عذابُك لحظة يقول لك ضميرُك إنكِ قد اقترفتِ فعلاً مشيناً. وسيتحدَّث ضميرك إن لم يكُن قد قام بذلك بعد. من أين أنتِ؟

- من جزيرة فايالْ - أجابت السيدة وهي ترتعش.

- هل لديك أسرة؟

- لدي أمي وأخواتي.

- هل تظنين أنّ أمك قد تستقبلك لو طلبتِ حمايتها؟

- أظن أنها قد تستقبلني.

- هل تعلمين أن مانْويلْ هارب من الجيش، وأنه الآن إمّا سجين أو هارب من العدالة؟

- لم أكن أعرف ذلك...

- هل يعني هذا أنه ليس ثمة في هذه الدنيا مَن يحميك، يا سيدتي...

أخذت المرأة المسكينة تنتحب، فاختنقت من القلق، وغمَرَت الدموع وجهها.

- لماذا لا تذهبين عند أمك؟

- لأنني لا أملك أية وسيلة أو مال - أجابته.

- هل تريدين أن تذهبي اليوم؟ بعد قليل، ستجدين عند باب الفندق عربة وخادمة سترافقك إلى بورْتو. وهناك ستقدِّمين رسالة إلى شخص سيتكلّف بسفرك إلى لشبونة. وفي لشبونة سيضعك شخص آخر على متن أول باخرة متّجهة إلى جزر الأزور. اتفقنا؟ هل تقبَلين هذا؟

- إنني أقبِّل يديك يا سيدي... إنّ تعيسة مثلي لم تكُن تنتظر كلّ هذا الإحسان.

ساعات قليلة بعد ذلك، كانت زوجة الطبيب...

- الذي ربما مات عشقاً وخجلاً! - تصيح قارئةٌ مرهفة الحس.

- لا، يا سيدتي العزيزة، واصَلَ الطالب تلك السنة متابعة دروسه في الجامعة. وبما أنه أدرك معرفة واسعة بعلم الأمراض فقد

وفَّر على نفسه الموت خجلاً، وهو نوع من الموت ابتكره الفيكونتْ ألْمايْدا غارّيتْ في كتابه فراي لويشْ دي سوزا[1]. أمّا الموت عشقاً، وهو نوع من الموت ابتكره العشاق في رسائل الهجر والازدراء، فلا يوافق الأزواج الذين وهبهم القرن الماضي شيئاً من الحس الفلسفي، لكنه فلسفة إغريقية ورومانية لأنّ فلاسفة العصور القديمة، كما هو معروف، كانوا يقدِّمون زوجاتهم هدايا لأصدقائهم، حين لا ينتزعونها منهم تفضّلاً. وهذه الفلسفة، اليوم بالضبط...[2].

---

(1) ألْمايْدا غارّيتْ (1799-1854): روائي، وشاعر وكاتب مسرحي برتغالي، كانت له اهتمامات سياسية. وتُعتبر مسرحية **فراي لويشْ دي سوزا** (1844) من أهم أعماله الأدبية. (المترجم)

(2) «اليوم بالضبط!... سأروي لكم حادثة وقعَت لأحد فلاسفة أيامنا هذه؛ وهي حادثة فريدة أتاحَت لي الفرصة لمعرفة هذا الشخص. اليوم، 21 سبتمبر 1861، كنتُ في مكتب المحامي المعروف جْواكين مرْسيلينو دي ماتوشْ، عندما دخل عليه زبون يحكي ما يأتي:

- سيدي المحامي، أنا صاحب محل تجاري بشارع... سرقت مني زوجتي ثمانمائة ألف ريال، وهربت مع عشيقها إلى فْيانا. جئتُ لأعرف إن كنتُ أستطيع أن أقاضيها وأستعيد مالي.

- يمكنك أن ترفع ضدّها دعوى، إن كانَ لديك شهود، هل تريد، يا سيدي، أن تقاضيها من أجل الزنا؟

فأجابه صاحب الشكوى:

- ما أريده هو أن أستعيد مالي.

- حسناً، أجابه المحامي، يمكنك أن ترفع دعوى ضدّهما معاً، ضدّ زوجتك من أجل الزنا، وضدّ عشيقها لأنّ مبلغك المالي بحوزته.

- وهل أسترجع مالي؟

- هذا يتوقف على عدّة أمور. مَن أدراني أن المال معه أم لا؟ ما أعرف هو أنه لا يمكنك أن تتّهمها بالسرقة.

- ولكن، ثمانمائة ألف ريال؟ =

فالطبيب لم يمُت، بل لم يسُؤ حاله ولم يصل إلى درجة المرفوض أو الساقط في الامتحان الذي يعتبر مؤشراً على انشغالٍ نفسيّ يجعله لا يشعر بمتعة العلاج.

أمّا الزوجة، أكثر تعاسة وإثارة للشفقة من زوجها، فذهبت غارقة في دموعها، تموت شوقاً وحنيناً، من دون مستقبلٍ ولا أمل، ومن دون صوتٍ بشريّ يواسيها، ركبَت في العربة، ووصلت إلى بورْتو، حيث بحثت عن قاضي التحقيق لتسلِّمه رسالة من الدكتور دومينْغوشْ بوتيلْيو، التي تقول إحدى فقراتها:

«لقد أخبَرْتني عن فتاة لم أكُن أعرفها، ولا أعرفها الآن. إنّ أمها توجد في جزيرة فايالْ، حيث هي في طريقها الآن. تكلَّف أنت شخصياً، أو عيِّن مَن يقوم بذلك، بنقلها إلى لشبونة، وهناك كلِّف

= - ولكن، يا سيدي، لا يهمك أن تعود زوجتك حتى وإن هربت؟
- لا، يا سيدي، لتذهب إلى الجحيم، ما أريده هو مالي.
- حسناً، ارفع دعوى ضدهما معاً، وسنرى بعد ذلك.
- ولكن هذا لا يضمن أنني سوف أستعيد مالي؟
- طبعاً، لا. سنرى بعد رفع الدعوى إن كانت السلطات الإدارية قادرة على أن تقبض على السارق والمال بحوزته.
- لكن، وإن لم يعُد معه المال؟ أجابه الزوج مذهولاً.
- إن لم يعُد معه المال، يمكنك أن تنتقم برفع دعوى ضدّه من أجل الزنا.
- وهل يتطلّب ذلك بعض المصاريف المالية؟
- نعم، إنه يتطلب بعض المصاريف، لكنك ستنتقم منه.
- ما أريده هو مالي، يا سيدي المحامي، أمّا زوجتي فلتذهب لحالها، لأنها تبلغ خمسين سنة من عمرها.
- خمسون سنة؟ -قال المحامي- لقد انتقمتَ لنفسك من عشيقها. عُد إلى بيتك، وانسَ أمرَ المقاضاة، لأن العشيق أكثر شقاء منك». (الكاتب)

أحداً بأن يأخذ لها تذكرة إلى جزر الأزور في أول باخرة. أخبرني بكلّ المصاريف. من فضائل ابني مانْويلْ، على الأقل، أنه لم يقتل أحداً في سبيل الحب. وفي زماننا هذا، صار فاضلاً ذلك الشاب الذي لا يقتل زوج المرأة التي يحبّها. حاول أن تحصل من الجنرال هناك على عفوٍ لصالح الشاب لأنه هرب من الكتيبة السادسة، وقد علمتُ أنه يختبئ في بيت أحد الأقارب. أما بالنسبة إلى سيماوْ، فأظنّ أنه يستحيل إنقاذه من النفي المؤقت... بل إنّ إنقاذه من المشنقة كان انتصاراً حقيقياً. في لشبونة، هناك عدة أشخاص نافذين يتحرّكون ضد هذا التعيس. أما أنا، فصار المدير العام للشرطة ينبذني لأنني تركت منصبي... إلخ».

ثم سافرت الأزورية إلى لشبونة، ومن هناك إلى موطنها، وحماية أمها، التي ظنّت أنها ماتت، ثم قضَت ما تبقى من عمرها ليست سعيدة، بل هادئة مطمئنة بعد أن خابَت كلّ آمالها في متع الدنيا وأوهامها.

أمّا مانْويلْ بوتيلْيو، فنُقل، بعد أن حصل على عفوٍ بفضل تدخّل من قاضي التحقيق، إلى كتيبة لشبونة، وهناك ظلّ حتى توفي والده فاستقالَ وعاد إلى إقليمه.

17

يوم الرابع من أغسطس من سنة 1805، جلس جْواوْ دا كْروشْ إلى المائدة بوجهٍ عبوس ومن دون أيّ شهية لتناول طعام الغداء.

- ألا تأكل، يا جْواوْ؟ - سألته حماته.

- لا تمرّ ولو لقمة واحدة من هنا - أجابها وهو يُشير إلى حلقومه.

- ماذا بك؟

- اشتقتُ إلى ابنتي... أعطي كلّ ما لديّ لأراها بجانبي الآن، بعينيها اللتين تنزلان مباشرة على كرب المرء وتنفُذان إلى أعماقه. اللعنة على مآسي حياتي، التي جعلتني أفقدها، لستُ أدري إن كانَ ذلك لوقت قصير أم لمدة أطول!... لو لم أطلق النار على ذلك المُكاري، ما كنتُ لأدين بأي شيء إلى قاضي المدينة، ولن يهمّني أن يعيش ابنه أو يموت...

- لكن، إن كنت مشتاقاً إليها -قاطعته السيدة جوزيفا- اذهب وابحَث عنها. اتركها معك لبعض الوقت ثم أرسِلْها بعد ذلك لترافق السيد سيماوْ.

- هذا لا يليق برجلٍ شهم، يا جوزيفا. إنها لو غابت عن الشاب سيموت حزناً خلف تلك القضبان. إنه مجرّد هوس سيطر على فكري اليوم... وهل تعرفين الحقيقة؟ لم يعُد يهمني المال، غداً سأذهب إلى بورْتو.

- حسناً، هذا ما عليك أن تقوم به.

- وهذا ما سأفعل. المال لمَن يجري وراءه. تذهب الخواتم وتبقى الأصابع في اليد. إلى غاية اليوم، واجهتُ كلّ شيء بقوة ساعديّ. إن لم يبقَ للبنت شيء كثير، فلتتدبَّر أمرها. هذا ما أرادت، وهذا ما اكتسَبَت.

فانشرحت ملامح البيطار، وتحرَّكت عضلات حلقومه وهو يخطِّط لسفره إلى بورْتو.

انتهى من تناول طعام الغداء، وظلَّ غارقاً في أفكاره، متّكئاً على المائدة قرب موقد النار.

- أما زلتَ تفكِّر في الأمر نفسه؟ - قالت جوزيفا.

- يبدو كأنه فعل شيطان، يا امرأة!... ربما تكون مارْيانا إمّا مريضة أو ميتة؟

- ببركة الثالوث المقدس! -صاحت الحماة، وهي ترفع يديها- ماذا تقول يا جْواوْ؟

- إنني أسْود هنا بداخلي مثل تلك المقلاة!

- هذه مجرد أفكار سيئة، يا رجل! اخرج واستنشق هواء، اذهب لتعمل بعض الشيء كي تروّح عن نفسك.

خرج جْواوْ دا كْروشْ إلى المستودع حيث يضع الحدائد والسندان، وأخذ يُهَيِّئُ المسامير.

مرّ عدد كبير ممّن يعرفهم عبر الطريق، وتحدّثوا معه كعادتهم، فوجدوه صموتاً غير مستعدّ لأيّ مزاح.

- ماذا بك، يا جْواوْ؟ - قال أحدهم.

- لا شيء. اذهب لحالك ودَعني لشأني، فأنا لست مستعداً لأيّ مزاح.

توقّف آخر، وقال:

- حفظك الله، سيد جْواوْ.

- وأنت أيضاً، يا سيدي. ما الجديد؟

- لا أعرف شيئاً.

- حسناً، اذهب في رعاية السيدة العذراء، أمّا أنا فلا يعلم حالي غير الرب.

كان البيطار يترك المطرقة، يجلس بعض الوقت فوق الجذع، يحكّ رأسه بجنون. ثم يبدأ من جديد، من دون تركيز حتى أنه يفسد المسمار، أو يضرب أصابعه بالمطرقة.

- هذا من فعل الشيطان! -صاحَ، وتوجّه إلى المطبخ بحثاً عن قربة النبيذ التي كرَعَها كأي أنيق عاشق للأهواء يودّ أن يدفن أحزانه في الخمرة- سأخنقك أيها الشر الذي تقبض أنفاسي! - تابع البيطار وهو يحرّك ذراعيه، ويضرب الأرض بكعب حذائه.

وعاد إلى المستودع بينما كان يمرّ بقربه مسافر يمتطي بغلاً قوياً. كان الفارس يلفّ نفسه في عباءة إسبانية، رغم الحرّ السائد. يظهر حذاؤه الجلدي الخام، ومهمازان أصفران شدّهما بحزام وإبزيم، وقبعة مائلة فوق عينيه.

- مساء الخير! - قال المسافر.

- مساء الخير -رد السيد جْواوْ، وهو يحدق في قوائم البغل الأربعة، ينظر إن كان ثمة عمل يلهي به فكره.- هذا بغل جيد!

- لا بأس به. هل أنت هو السيد جْواوْ دا كْروشْ؟

- نعم، في خدمتك.

- جئت لأؤدي لك ديناً.

- لي أنا؟ إنك لا تدين لي بأيّ شيء، بحسب علمي.

- لستُ أنا مَن يدين لك، بل إنه والدي، وهو مَن كلّفني بأن أدفع لك الدين.

- ومَن يكون والدك؟

- والدي بَغّال من كارْساوْ، يُدعى بينْتو ماشادو.

وما أن نطق بنصف تلك الكلمات، حتى أزاح الفارس بسرعة كمّي العباءة وأخرج بندقية ووجّهها إلى صدر البيطار. فتراجع الجريح إلى الخلف، وصاح:

- لقد قتلوني!... ما رْيانا، لن أراك أبداً!...

كان القاتل قد قطع خمسين خطوة على متن بغله المفزوع الذي انطلق راكضاً، بينما سقط جْواوْ دا كْروشْ على بطنه فوق المقعد، وأخذ يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو ينظر إلى ذلك المكان حيث وجّه رصاصة إلى صدر المُكاري قبل عشر سنوات.

لم يُعرْ المسافرون الراجلون اهتماماً إلى الفارس، وتحلقوا جميعاً حول الجثة. وجاءت جوزيفا حين سمعت دوي الطلقة، لكنها لم تتمكن من سماع آخر كلمات حماها. أرادت أن تحمله إلى داخل المنزل وتنادي على الطبيب الجراح؛ لكنه كان بين الجمع جراح آخر أعلن عن موت الرجل.

- مَن قتله؟ - صاحت ثلاثون حنجرة في وقت واحد.

وفي اليوم ذاته حضر ممثلو العدالة من فيزيوْ ليفتحوا تحقيقاً في الحادثة: لم يعثروا على أيّ دليل يدلهم على ذلك القاتل الغامض. فقاموا بحصر قائمة الموجودات وأغلقوا الأبواب حين بدأت الأجراس تقرع لآخر مرة والبلاطة تنزل فوق جثمان جْواوْ دا كْروشْ.

لا بدّ أنّ الرب يعلم بسُموّ روحكَ ونبلها، رغم غرائز طبعك الدامية! وأنا أفكر في تناقضات طبعك، أيها الإنسان الذي تشرح لي ما هي العناية الإلهية. تُدهشني تلك النزوات المتضاربة التي يوحي بها الرب في نفوس مخلوقاته. وانعم بنوم أبدي، إن لم تكن ثمة عدالة تحاسبك على ما أخذت من أرواح، وعلى ما فعلته بحياتك.

لكن، لو كان هناك مكان للعقاب والشفقة، ستكون دموع ابنتكِ شفيعاً لك أمام الحاكم الأعلى.

وكتبت جوزيفا إلى مارْيانا تنعي إليها موت أبيها، ووضعَت على الظرف اسم سيماوْ، حتى لا تضيع الرسالة. وكانت مارْيانا في غرفة السجين حين تسلَّمت الرسالة.

- إنني لا أعرف هذا الخط، يا مارْيانا... والظرف يحمل ختماً أسود...

فحصت مارْيانا الظرف وشحب لونها.

- أعرف هذا الخط -قالت- إنه خط جواكينْ دا لوجا. افتح، بسرعة، سيد سيماوْ... هل يكون أبي قد مات؟

- ما هذ الكلام؟! ألم تتوصلي منه برسالة قبل ثلاثة أيام؟ ألم يخبرك أنه بخير؟

- وما علاقة هذا بالأمر؟... انظر إلى مَن يوقّع الرسالة.

بحث سيماوْ عن التوقيع، ثم قال:

- جوزيفا ماريا! عمَّتك هي مَن كتبت إليك.

- اقرأ... اقرأ... ماذا تقول؟ دعيني أقرأ...

كان السجين يقرأ في ذهنه، لكن مارْيانا ألحت عليه:

- اقرأ بصوت عالٍ، أرجوك باسم الرب، سيد سيماوْ، انظر إنني أرتعش... وأنت تشحب... ماذا هناك، يا إلهي؟

ترك سيماوْ الرسالة تسقط من يده، وجلس خائر القوى. فهرعت مارْيانا والتقطت الرسالة، فأمسكها من يدها وهمس قائلاً:

- صديقي المسكين!... لنبكي معاً... هيا نبكيه، يا مارْيانا، لأننا كنّا نحبّه مثل أبنائه...

- لقد مات، إذاً؟ - صاحت.

- نعم، مات... لقد قتلوه!

وأطلقت الشابة صرخة حادة، وضربت وجهها على قضبان النافذة. فضمها سيماوْ إلى حضنه، وقال لها بحرارة وحنوّ كبيرين:

- مارْيانا، تذكري أنكِ أنتِ ملاذي. تذكّري أن والدك ربما أوصى في آخر ما نطق به من كلمات أن يعهَد بك إلى من أنعمَت عليه يداه بخبز الحياة. مارْيانا، يا أختي العزيزة، اقهري هذا الألم الذي يمكن أن يقتلك، واقضي عليه بحبي. هل تسمعينني، يا صديقة الروح؟

فصاحت مارْيانا:

- دعني أبكي، أرجوك!... آه! يا إلهي، لو جننتُ من جديد!

- وماذا سيكون مصيري! -قاطعها سيماوْ- لمن ستتركين يا مارْيانا قلبك النبيل الذي يخفِّف عني هذا العذاب؟ من سيبعث إلى منفاي كلمة صداقة تشجِّعني على الإيمان بالرب! لا، لن تُجنّي، يا مارْيانا، لأنني أعرف أنك تقدّرينني، وتحبّينني، وأنك قادرة على مواجهة أكبر شقاء مقدَّر لي في الجحيم! ابْكي، يا أختي، ابْكي؛ لكن انظري إليَّ من وراء دموعك.

18

بعد مرور بضعة أيام، ذهبت مارْيانا إلى فيزيوْ لتتسلَّم إرث والدها. وبالنظر إلى وضعه الاجتماعي، فإنّ البيطار الكادح قد تركَ لها مهراً محترماً. فبالإضافة إلى الأراضي، التي يكفي مدخولها لضمان عيشها، رفعت مارْيانا تلك البلاطة قرب موقد النار، فوجدت أربعمائة ألف ريال التي وفرها جْواوْ دا كْروشْ ليستمتع بها في خريف حياته. باعت مارْيانا الأراضي وتركت البيت لعمّتها، ذلك البيت الذي ولدت فيه، وفيه نشأ والدها وترعرع.

بعد بيع الإرث، عادت إلى بورْتو، واستأمنت سيماوْ بوتيلْيو على ثروتها، وهي تقول إنها تخشى أن تتعرّض للسرقة في البيت المتواضع الذي تسكنه، قرب السجن، في شارع ساوْ بينْتو.

- لماذا بعتِ الأراضي، يا مارْيانا؟ - سألها السجين.

- بعتها لأنني لا أفكر في العودة إلى هناك.

- لا تفكرين في العودة؟... وأين ستذهبين، يا مارْيانا، بما أنني سأذهب إلى المنفى؟ هل ستبقين في بورْتو؟

- لا، يا سيدي، لن أبقى في بورْتو - قالت متلعثمة وقد فاجأها السؤال الذي ظنت أن قلبها قد أجاب عنه منذ مدّة.

- إذاً، ماذا ستفعلين؟

- سأذهب إلى المنفى، إن كنتَ بحاجة إلى رفقتي؟

كان سيماوْ سيبدو سخيفاً أمام نفسه لو تظاهر بأن جوابها قد فاجأه.

- كنتُ أنتظر هذا الجواب، يا مارْيانا، وكنتُ أعرف أنك لن تعطيني جواباً غيره. لكن، هل تعرفين ما هو المنفى، يا صديقتي؟

- سمعت كثيراً عن المنفى وأحواله، سيد سيماوْ... إنها بلاد أكثر حرّاً من بلادنا؛ لكن بها أيضاً خبز، وناس يعيشون حياتهم.

- ويموتون أيضاً من حرّ الشمس القاتل، يموتون من الحنين إلى وطنهم، ويهلكون أحياناً من شطط الحكام الذي يعاملون السجناء كما لو كانوا وحوشاً ضارية.

- إنّ المنفى ليس كما يصفونه ويتحدّثون عنه. سألتُ زوجة سجين قضى عقوبة خمس سنوات في الهند، وعاش عيشة طيبة في أرض تدعى سولورْ، حيث كان يملك دكاناً. ولولا الحنين إلى الوطن والأهل، قالت زوجته إنها ما كانت لتعود، لأنها كانت تعيش حياة أحسن من حياتها هنا. أنا أيضاً، بعد إذنك سيد سيماوْ، سأفتح دكاناً هناك. سوف ترى كيف أعتمد على نفسي وأتدبّر أموري. أنا معتادة على الجوّ الحار، أما أنت فأعرف أنك لا تقدر على الحرارة المفرطة، لكنك لن تضطرّ لتمر بلحظات حرجة، إن شاء الله.

- تصوّري، يا مارْيانا لو مُتُّ بمجرد وصولي إلى المنفى؟

- علينا ألّا نتحدث عن هذا، سيد سيماوْ...

- ينبغي لنا أن نتحدث عن ذلك يا صديقتي، لأنه حين ستأتي ساعة موتي سوف أشعر بمسؤوليتي عن مصيرك تجثُم فوق صدري. . . ماذا لو مُتُّ؟

- لو مُتَّ، يا سيدي، أنا أيضاً أعرف كيف أموت.

- لا أحد يموتُ متى يشاء، يا مارْيانا. . .

- آه، كلا، هناك مَن يموت متى يشاء، ويحيا متى يشاء. . . ألم تقُل لي ذلك السيدة تيريزا؟

- ماذا قالت لك؟

- إنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة حين جئتَ إلى بورْتو، وأنّ قدومك قد منحها الحياة من جديد. وهناك العديد من الناس هكذا، سيد سيماوْ. . . ثم إن السيدة النبيلة ضعيفة البنية، وأنا امرأة بدوية قوية، تعوَّدت على كلّ المحن والمصاعب، ولو كنت مضطرة لشققتُ جسدي بمبزغ حتى يسيل الدم وأموت، هكذا بكلّ بساطة.

- انظري يا مارْيانا، ماذا تنتظرين مني؟

- ما الذي يمكن أن أنتظره منك! . . . لماذا تطرح عليّ هذا السؤال، سيد سيماوْ؟

- إن التضحيات التي قمتِ بها وما زلت تقومين بها من أجلي لا يمكن إلّا أن يكون لها ثمن، حتى لو كنتِ تقومين بها دون انتظار أيّ جزاء. افتحي لي قلبك يا مارْيانا.

- ماذا تريدني أن أقول لك؟

- إنك تعرفين حياتي بقدرِ ما أعرفها، أليس كذلك؟

- أعرفها، وما شأن ذلك؟

- هل تعرفين أنني مرتبط في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى بتلك السيدة الشقية؟

- أعرف ذلك! ومَن يقول عكس هذا؟

- إنني لا أستطيع أن أشكرك عن مشاعر قلبك إلّا بالصداقة.

- وهل طلبتُ منك شيئاً آخر غير هذا، سيد سيماوْ؟

- لم تطلبي شيئاً، يا مارْيانا، لكنكِ تُلزميني بالكثير من الشكر والامتنان، وثقل الامتنان يجعلني تعيساً.

لم تُجِبْه مارْيانا، وبكت.

- لماذا تبكين؟ - قال لها سيماوْ بحنان.

- هذا جحود... إنني لا أستحقّ أن تقول لي إنني أجعلك تعيساً.

- إنكِ لم تفهميني... أنا تعيس لأنني لا أستطيع أن أتّخذك زوجة. كنتُ أودّ أن أسمع مارْيانا تقول: «ضحيتُ من أجل زوجي؛ يوم رأيته جريحاً في بيت والدي، وسهرتُ الليالي إلى جانبه، حين زجَّ به القدر وراء قضبان السجن، وأطعمته خبزاً لم يستطِع والداه الغنيّان أن يقدِّماه له، وجُننت حين علمتُ أنهم حكَموا عليه بالمشنقة؛ وحين حظيتُ بعطف العناية الإلهية واستعدتُ رشدي هرعتُ إلى سجنه الثاني، فأطعمتُه، وزيَّنتُ جدران زنزانته الجرداء؛ وحين نفُوه رافقتُه، وجعلتُ من قلبه وطناً، وكدحتُ تحت أشعة الشمس الحارقة حتى يحتمي هو من حرّها ولهيبها، ومن العمل والعزلة اللذين قد يقتلانه...».

لم يكن فِكْرُ مارْيانا يضاهي سمو تعابير السجين وبلاغته؛ لكن

قلبها كان يستشف أفكاره ويدركها. فكانت الشابة المسكينة تبتسم وتبكي في الوقت ذاته وهي تستمع إليه. ثم تابع سيماوْ قائلاً:

- عمركِ الآن ست وعشرون سنة، يا مارْيانا. عليكِ أن تعيشي، لأنّ هذه الحياة ليست بحياة، بل عذاب خفيّ. عيشي حياتك، ولا تُقدِّمي كلّ ما لديك لمَن لا يستطيع أن يقدِّم لك غير الدموع مقابل ما أذرفت من عبرات في سبيله. لقد صارَ موعد نفيي وشيكاً؛ وانتظار أيّ مصير آخر من جانبي جنون وعبث. لو بقيت في وطني، حراً أو سجيناً، سأطلب منك يا أختي أن تُكملي ما بدأتِه من عمل الخير والشفقة، وأنا أتمنى أن أقول لكِ آخر كلمة في حياتي. لكن، لا ترافقيني إلى إفريقيا أو الهند، لأنني أعرف أنك ستعودين وحيدة بعد أن أغمض عينيّ للأبد. لو كان نفيي مؤقتاً، وأمهَلَني الموت لأواجه محناً أعظم، سأعود إلى الوطن يوماً ما. عليكِ أن تبقي هنا يا مارْيانا حتى أستطيع أن أقول إنني أتيتُ لأزور أسرتي، وإن هناك روحاً عطوفة تنتظرني. لو وجدتكِ صحبة زوج وأطفال، ستكون أسرتُكِ هي أسرتي. لو وجدتُ حرَّة وحيدة، سأهبّ لرفقتك يا أختاه. ماذا تقولين، يا مارْيانا؟

رفعت بنت جْواوْ دا كْروشْ عينيها عن الأرض، وقالت:

- سأرى ما ينبغي لي أن أقوم به حين سترحل إلى منفاك، سيد سيماوْ...

- فكِّري من الآن، يا مارْيانا.

- لا يجب أن أفكر... لقد اتخذتُ قراري...

- تكلَّمي، يا صديقتي، ما هو قرارك؟

تردَّدت مارْيانا لبضع لحظات، ثم أجابت بكلّ هدوء:

- يوم أجد أنك لستَ بحاجة لي، سأضع حداً لحياتي. أتظنّ أنني أخسر الكثير لو انتحرتُ؟ ليس لي أب، ولا أيّ أحد آخر، ولا يحتاج أي كان إلى حياتي في هذا العالم. هل تستطيع أن تعيش من دوني، سيد سيماوْ؟ مهلاً!... أنا التي لا أستطيع أن أعيش من...

وظلَّت فكرتها معلَّقة، كأنها خائفة من جرأتها. فضمَّها السجين بحنان بين ذراعيه، وقال:

- ستذهبين، ستذهبين معي، يا أختاه. فكّري، من اليوم فصاعداً، في شقائنا المشترك، في المتاعب التي سنجتازها معاً، وفي القبر الذي سوف يجمعنا إلى الأبد، هناك بعيداً عن الوطن.

ومنذئذٍ، أصاب ابتهاج خفيّ قلب مارْيانا بالجنون. علينا ألّا نبتكر لهذا القلب عجائب من أفعال التضحية. فمارْيانا تملك قلب امرأة، تحبّ، ليس كما يصوّر الخيال حبّ الملائكة، بل تحبّ وتشعر بالغيرة من تيريزا؛ بَيْدَ أنها ليست غيرة تنطفئ نارُها في البوح أو الازدراء، بل إنها جحيم صامت، لا يصعد إلى الشفاه حمماً، لأنّ العيون سرعان ما تتدفق ودياناً من الدموع لتُطفئها. كانت تحلم بمتع النفي، لأنه ما من صوت بشري آخر سيذهب ليئن هناك عند رأس ذلك الشقي. لو أجبروها على أن تتخلى عن مهمة أن تكون أخت ذلك الرجل، سوف تتخلى عنها وهي تقول: «لن يحبّه أحد مثلي، ولن يخفِّف أحد عن أحزانه بكلّ نزاهة وتجرّد كما فعلتُ».

ومع ذلك، لم تتردَّد يوماً في قبول الرسائل الموجّهة إلى سيماوْ من يدي تيريزا أو تلك المتسوّلة. ومع كلّ انقباض يرتسم على وجه السجين وهو يقرأ تلك الرسائل، كانت مارْيانا، وهي ترقبه خفية،

ترتعش بكلّ جوارحها، وتقول مع نفسها: «لماذا تكدِّر عليه تلك الشابة صفو حياته؟».

وكانت تلك الشابة التعيسة تعيش حياة المرارة والعذاب!

انبعثت في تلك الروح آمال، لم يُكتب لها أن تستمرّ أكثر ممّا كان يلزم من الوقت لتأتي الخيبة وتتأكّد المصيبة ونكد الطالع. كانت تيريزا تحلم بالحرية، والعفو، والزواج، والسعادة تاجاً يكلِّل رحلة عذابها. وكانت صديقاتها يزيِّنَّ صورة خيالها، بعضهن لأنهن يجهلن فظاعة واقع الأشياء، وبعضهن لأنهن يثقن أكثر من اللازم في صلوات الراهبات التقيات داخل الدير. ولو أنّ تنبؤات بعض المتكهّنات صدَقَت لخرج سيماوْ من السجن، ولمات تادِيو دي ألْبوكيرْكي من تقدُّمه في السن ومن الغضب، ولكان الزواج أمراً لا بد منه، ولبدأت جنة ذَيْنك الشقيَّين في هذه الدنيا قبل الآخرة.

لكن سيماوْ بوتيلْيو، بعد خمس سنوات من السجن، كان يعرف مصيره، فرأى أنه من الأحسن أن يخبر تيريزا بالأمر حتى لا تصعب عليها لحظة الفراق فتنهار تماماً. حاولَ أن يضيء بالأمل أفق ذلك المنفى الحالك؛ لكن المواساة التي لا تنبع من القناعة أو الإحساس تكون باهتة وباردة. بل إن تيريزا لم تكن بحاجة إلى الوهم، لأنّ صدرها كان يَحْوي مُنبِّهاً يُذكّرها بساعة النهاية، رغم أنّ ملامحها كانت تخدع شفقة الآخرين.

كانت تبوح بكلّ ما في قلبها فيما كانت تكتبه من رسائل إلى حبيبها. تندب حظّها، تتضرّع إلى الله، تنطق بالكلام المدنس ضد القدر، تستنجد بالصبر أو تلوذ بالغضب ضدّ أبيها، تتمسك بالحياة

الهاربة منها، تتوسّل الموت الذي لا يخلّصها من عذاب الروح والجسد.

وبعد سبعة أشهر، قرَّرت محكمة الاستئناف تخفيف الحكم إلى عشر سنوات نفياً إلى بلاد الهند. فذهب تادِيو دي ألْبوكيرْكي إلى لشبونة ليطعن في هذا الحكم ويعرض بيته لمن يستطيع أن يُبقي على الحكم بالمشنقة ضد سيماوْ بوتيلْيو. وبعد التنبيه الذي جاءه من ابنه مانْويلْ، سافرَ والد المحكوم عليه إلى لشبونة ليواجه المال والنفوذ الذي استطاع أن يستجمعه تادِيو دي ألْبوكيرْكي من محاكم البلاط. فكان النصر حليف دومينْغوشْ بوتيلْيو، الذي كانت تحرِّكه نزواته الخاصة أكثر من عطفه الأبوي، فاستطاع أن يحصل على عفو من الأمير الوصي على العرش حتى يتيسَّر للمحكوم عليه قضاء العقوبة في سجن فيلا رِيالْ.

وحين أخبروا سيماوْ بقرار الاستئناف وعفو الأمير الوصي على العرش، ردَّ أنه يفضِّل حرية المنفى، وقال إنه سيحتج أمام السلطات القضائية ضدّ امتيازٍ لم يطلبه ويرى أنه أفظع من الموت.

ولمّا علم دومينْغوشْ بوتيلْيو برفض ابنه، قال إنه يمكن أن يفعل ما يشاء، وأن انتصاره هو قد تحقّق على حساب مَن كانوا يحمون نبيل فيزيوْ من المرتشين الذين أغدق عليهم من أمواله.

وأُشعر المدير العام للشرطة بقرار المحكوم عليه، فأدرج اسم سيماوْ بوتيلْيو ضمن لائحة المنفيين إلى بلاد الهند.

19

إن الحقيقة تشكّل أحياناً عقبة في وجه الرواية.

في الحياة الواقعية نتلقى الحقيقة كما تتولّد عن الحالات المتعارضة أو عن منطق الأشياء الذي لا يرحم، لكننا، في الرواية، نجد صعوبة كبيرة في أن نتحمّل ألاّ يبتكر الكاتب بشكلٍ أحسن، إن كان يبتكر، وألّا يكذب حباً في الفن، إنْ كان ينقل الأشياء نقلاً خالصاً.

إن روايةً تستمدّ قيمتها من الحقيقة روايةٌ باردة، لا تُطاق، لأنها لا تحرّك الأعصاب، ولا تُخرج الناس، ولو مؤقتاً، من دوران هذه الناعورة التي نُشكّلُ نحن قواديسها، بعضنا يصعد، وبعضنا ينزل، تحرّكنا جميعاً ذراع الأنانية.

الحقيقة! إن كانت قبيحة، فلماذا نقدّمها للجمهور في لوحات فنية!؟

حقيقة قلب الإنسان! إذا كان قلب الإنسان يتشكّل من ألياف حديدية تشدّه إلى الوحل الذي انفصل عنه، أو تُثقله فتهوي به إلى

قاع الخطيئة الأولى، ما الهدف من أن نسلّط عليه الضوء، ونصوّره ونعرضه للبيع؟

هذه ملاحظات نابعة من شخص يستمتع بقوة العقل واتّزانه؛ أما أنا، بعد أن فقدته بحثاً عن الحقيقة، فلم يتبقَّ لي من انتقام سوى أن أصوِّرها كما هي، قبيحة ومقرفة.

هل يُلهب الشقاء نار الحب أم يخمد شعلته؟

هذا ما أتركه لحكم القارئ الذكي. إنني أقدِّم له هنا وقائع وليس أطاريح. فالرسام يرسم العيون، لكنه لا يشرح الوظائف البصرية لجهاز النظر.

بعد تسعة عشر شهراً قضاها في السجن، كان سيماوْ بوتيلْيو يتُوق إلى شعاعٍ من الشمس، ونسيم هواء لا يتسلّل من بين القضبان، بل ينزل من قبة السماء، لأنّ سقف الزنزانة بدأ يجثم على صدره.

كان يتوق إلى الحياة أكثر ممّا يتوق إلى الحبّ.

لا بدّ أنّ ستة أشهر من القلق والمشنقة نُصْبَ عينيه قد أضعفَت قوة قلبه، والحب، يستوجب قلباً قوياً وشديداً، يستمتع بصلابةٍ يكتسبها من دم دفّاق، ورغبة في الأمل، وفرح يزداد ويتقوى مع الشدائد.

غابت المشنقة عن عيني سيماوْ، لكن يديه ظلّتا مكبَّلتين بالحديد، ورئته مشدودة إلى نسيم السجون، وفكره مجمداً في الغباوة الباردة لأسوار مالحة، وأرضية تعكس صدى خطوات آخِر سجين قضى نحبه في حبل المشنقة، وسقف يرشح الموت قطرات من الماء.

ما هو القلب في الثامنة عشر ربيعاً، إذا كان قلباً بلا حسرة، فكراً يصبو إلى الأمجاد، بعد ثمانية عشر شهراً تجمّدت فيها الحياة؟

القلب عضو من الأحشاء، مُصاب بالشلل، وهو أول ما يُصاب بالوهن نتيجة تمرّد الروح التي تتماهى مع الطبيعة وتحبّها، وتموت رغبة فيها، وتتلوى من آلام البتر، التي يمثّل الحديد المتوهج ذكرى السعادة بالنسبة إليها، ولا يشكّل الحب، المؤدي إلى الهاوية عن طريق السعادة، حتى ذلك النسيم المنعش.

وحين شعر أنّ حبل العدالة بدأ ينحلّ من حول عنقه، تنفّس سيماوْ بوتيلْيو الصعداء لساعة، كأنّ المشنقة كانت تنحلّ بين يديه، وحينئذٍ نادى على قلب المرأة التي فقدته لتشهد زفافه الثاني في الحياة بشيء من الأمل.

بعد ذلك، وشيئاً فشيئاً، هرب الأمل إلى رمال آسيا، وغرق القلب في المرارة التي دفنَت الحب، وهي النهاية المحتومة حين لا تبقى ولو فجوة صغيرة ينسلّ منها الأمل ليضيء تلك الروح المظلمة.

أمل ينتظر سيماوْ بوتيلْيو. أيّ أمل هذا؟

الهند، المذلّة، الشقاء، الفقر.

ولكن تلك الروح كانت تطمح إلى الشرف والمكانة العليا. ولتحقيق سعادة الحب كان يُعوِّل على قوة الموهبة، لأنه وراء الحب هناك المجد، والشهرة، والخلود الباطل، الذي ليس فقط ضرباً من جنون الأرواح العظيمة والعباقرة الذين يستشعرون أنهم سيحيون بين الأجيال القادمة.

لكن أكاليل الحب ترشح دماً من أشواكها، فينفذ سمّاً ينخر الفكر، ويطفِئ الطموحات النبيلة في الصدور الجريئة، يُقَزِّم الفكرة التي تشمل الكون ويجمِّد توهج القلب بتشنّج قاتل.

هكذا كُنْتَ تشعر، أيها الشقيُّ، بعد ثمانية عشر شهراً من السجن، والمشنقة تلوح في أفق مستقبلكَ، فقضَت على أحسن ما في روحك.

تسأل نفسكَ عن ماضيك، فإن تجرّأ قلبك على الجواب انكمش أمام لوم العقل البارد وتأنيبه.

ومن هنالك، من ذلك الدير حيث كانت تُحتضر روح أخرى، كان الأنين والشكوى يصلان ليعصرا المرارة على الجرح؛ ولكنك تعجز عن المواساة ولا تعرف إليها سبيلاً، فتطلب لها كلمات من ملاك الشفقة وتتلقى أنت كلمات اليأس من الشيطان.

بدت لهُ العشر سنوات التي أرادوا أن يخفِّفوا بها من الحكم عليه، أكثر فظاعة من المشنقة. وهل كان سيقبلها لو أنه عشق السماء التي كانت تيريزا تشرب من هوائها فيتحوّل النسيم إلى سمّ في رئتيها؟ نعم، سيفضّل السجن، حيث يسمع صوتاً مخنوقاً وأليفاً؛ سيفضّل تشنجات عشر سنوات فوق بلاطات زنزانة رطبة، لو أنه في آخر لحظة، حين تتأرجح آخر شعلة حبّ قبل أن تنطفئ، تضيء لنا طريق السماء، حيث يصعد ملاك الحب الشقي ليبلغ الرب عن ذاته، ويطلب روح من بقيَ على قيد الحياة.

طلبت تيريزا من سيماوْ أن يقبل عشر سنوات من السجن، وينتظر هناك الخلاص الذي سيأتي على يديها.

«عشر سنوات! -كانت تقول له حبيسة دير مونْشيكي.- بعد عشر سنوات سيكون أبي قد مات وسأصبح زوجتك، وسأذهب إلى الملِك لأطلب لك منه العفو، إن لم تكن قد قضيت عقوبتك. لو

ذهبتَ إلى المنفى، سأفقدك إلى الأبد، يا سيماوْ، لأنك ستموت أو لن تجد عني أي ذكرى حين ستعود».

كم كانت مخطئة تلك المسكينة حين كانت قوى حياتها الواهنة تُحاصر قلبها!

لقد عادت إلى القلق، والشحوب، والخَوَر. وكان الدم، الذي استعادته من جديد، يخرج نفثات من فمها كلّما سعلت.

لو أنّ المحكوم عليه قَبِل، حباً أو شفقة، أن يغلقوا مزلاج زنزانته الثقيل ثلاثة آلاف وستمائة وخمسون مرة أخرى، فلن يكون ذلك كافياً لتتمكن تيريزا من أن تبعد عنها بلاطة القبر التي تجثم فوقها.

«لا تأملي في أيّ شيء، أيتها المعذَّبة -كتب يقول إليها- إنّ الصراع ضدّ الشقاء لا فائدة منه، وأنا لم أعد قادراً على الصراع. لقد كان لقاؤنا أفظع خدعة. ليس لنا شيء في هذه الدنيا. لنمش ونلقى موتنا... ثمة سرّ لا يُعرف إلّا في القبر. فهل سنلتقي هناك؟

أنا ذاهب. أكره هذا الوطن، وأكره أسرتي، أكره هذه الأرض التي تظهر لعينيّ مغطاة بالمشانق، أكره كل الناس الذين يتحدثون لغتي، لأنه يبدو لي أنني أسمعهم يصيحون بلعنات الجلاد. إنني لم أكن أرغب في الحرية والغنى هنا في البرتغال، والآن لم أعُد أطمع حتى في الآمال التي كان يقدّمها لي حبك، يا تيريزا!

انسيني، ونامي في حضن العدم. إنني أريد أن أموت، لكنني لا أريد أن أموت هنا. لينطفئ نور عينيّ، لكني أريد نور السماء، أريده! أريد أن أرى السماء في آخر نظرة من نظراتي.

لا تطلبي مني أن أقبل عشر سنوات من السجن. إنك لا تعرفين ما معنى أن تظلّ الحرية سجينة عشر سنوات! ولا تفهمين ما قاسيتُ من عذاب خلال عشرين شهراً. إن الصوتين الوحيدين اللذين سمعتهما كانا هما صوت تلك المرأة الرؤوفة التي تتصدّق علي بالأكل كل يوم، وصوت ذلك المأمور الذي جاء ليزفّ لي البشرى الساخرة بالعفو الملكي، الذي حوَّل موتي الفوري في المشنقة إلى احتضار عشر سنوات في السجن.

انقذي نفسك، يا تيريزا، إن وجدتِ إلى ذلك سبيلاً. تخلّي عن هذا التعيس الشقي. إن نادى عليك أبوكِ، فلبِّي النداء واذهبي. لو بزغ فجر سلام جديد في حياتك، فعيشي من أجل سعادة ذلك اليوم. وإلا، فمُوتي، يا تيريزا، لأن السعادة هي الموت، والألياف التي تتلاشى غباراً من شدة الألم، وهي النسيان الذي ينقذ ذاكرة المعذبين من قهر الإهانة».

وكانت الكلمات الوحيدة التي كتبتها تيريزا رداً على تلك الرسالة المعبِّرة عن حالة اضطراب ذلك الشقي، كما يأتي:

«سأموت، يا سيماوْ، سأموت. سامح قدري... لقد فقدتكَ... إنك تعرف جيداً أيّ مصير كنت أريد أن أتقاسمه معك... وأموت، لأنني لا أستطيع، ولن أستطيع أبداً أن أنقذك. عِشْ، إن استطعتَ، فأنا لا أطلب منك أن تموت، يا سيماوْ، أريدك أن تعيش لتبكيني. ستواسيك روحي... أنا مطمئنة... أرى فجر السلام... وإلى اللقاء في السماء، يا سيماوْ».

تلت تلك الرسالة عدة أيام من الصمت الفظيع. لم يكن سيماو يجيب عن أسئلة مارْيانا. كأنه كان مستغرقاً يتلذّذ بهواجس فناء ذاته. وكانت تلك المخلوقة المضطربة التي وضعها الله قرب صاحب الثمانية عشر ربيعاً تبكي، فإن رآها سيماوْ أخرجتْهُ دموعُها من صمته لتزجّ به في اندفاع يائس يصيبه بالإنهاك في نهاية الأمر.

ثم مرّت ستة أشهر أخرى.

وكانت تيريزا حيّة ترزق، تقول لرفيقاتها القلقات إنها تعرف بالضبط متى ستأتي ساعة موتها.

ورأى سيماوْ من وراء القضبان ربيعين ينقضيان. وكان الربيع الثالث قد بدأ يُزهر في الحقول ويغطي بالخضرة أشجار غابات كانْدالْ.

كان شهر مارس من سنة 1807.

وفي اليوم العاشر من ذلك الشهر، تلقى السجين إشعاراً بالخروج في أول باخرة تغادر نهر دورو في اتجاه الهند. كانت السفن، وقتئذٍ، تأتي إلى هناك لتأخذ المنفيين، وتستقبل في لشبونة من ينتظرهم المصير نفسه.

لم تجد مارْيانا عائقاً لولوج السفينة، حين تقدّمت نحو قاضي التحقيق على أنها خادمة المنفي، وأنّ سيدها هو من أدّى تكاليف تذكرتها.

- وأنت تستحقين ثمن هذه التذكرة! - قال القاضي مازحاً.

وتابع سيماوْ جمع متاعه، في هدوء فظيع، كما لو أنه يجهَل مصيره.

راودته عدة مرات الرغبة في أن يكتب آخر رسالة إلى تيريزا

المحتَضَرَة، فلم يجد أدنى إشارة إلى دموع يمكن أن يبعثها عبر الورق.

- يا له من ظلام حالك، يا إلهي! -صاح وهو ينتف شعره ملء يديه- امنحني دموعاً، يا رب! اتركني لأبكي، أو سأقتل نفسي، لم أعُد أطيق هذا العذاب!

وكانت مارْيانا تتأمّل بألم كبير هذه النوبة ونوبات أخرى من الجنون أو فترات هدوء لا تقلّ عنها فظاعة.

- وتيريزا! -كان يصيح، وقد خرج فجأة من تشنّجه- وماذا عن تلك الفتاة الشقيّة التي قتلتُها! لن أراها أبداً، أبداً! لن يأتيني أحد بخبر موتها وأنا في المنفى! وحين سأناديك لترينني أموت موتاً يليق بك، مَن سيخبرك بموتي، أيتها المعذَّبَة؟!

20

يوم السابع عشر من مارس من سنة 1807 غادر سيماوْ بوتيلْيو سجن بورْتو، وصعد إلى السفينة في رصيف ريبيرْا، رفقة خمسة وسبعين من زملائه. وبطلب من القاضي المستشار موراوْ موسْكيرا، وأمر صادر عن رئيس المحكمة، لم يكن ابن قاضي المدينة مكبَّل اليدين ومشدوداً إلى ذراع أحد زملائه. ونزل من السجن نحو السفينة، رفقة مأمور، تتبعه مارْيانا، التي كانت تراقب حقائب الأمتعة. ذهب القاضي، وهو صديق وفيّ للسيدة ريتا بْريسْيوزا، وصعد إلى السفينة، ثم طلب من القائد أن يعامل السجين سيماوْ معاملة متميزة، ويسمح له بالدخول إلى الظُلَّة في مؤخرة السفينة، ويُجلسُه إلى مائدته. بعد ذلك، نادى سيماوْ على انفراد وسلَّمه رزمة من النقود الذهبية، بعثَت بها إليه أمه. قَبِلَ سيماوْ بوتيلْيو المال، وبحضور موراوْ موسْكيرا طلب من القائد أن يوزّع تلك النقود على زملائه من المنفيين.

- هل جننتَ سيد سيماوْ؟ - قال القاضي المستشار.

- لقد أُصبت بجنون الكرامة والشرف: لقد ضعتُ حباً لشرفي،

وأريد أن أرى الآن إلى أيّ حدّ من التعاسة يمكن للشرف أن يحمل عاشقه. إنّ الشفقة لا تذلّني إن كانت تنبع من القلب وليس من الواجب. إنني لا أعرف الشخص الذي بعث لي بهذا المال.

- إنها أمك - أجابه موسْكيرا.

- أنا لا أمّ لي. هل تستطيع، يا سيدي، أن تُعيد لها هذه الصدقة المرفوضة؟

- لا، يا سيدي.

- إذاً، سيدي القائد، قُمْ بما أمرتُك به، وإلّا رميت بكلّ هذا في الماء.

فتسلم منه القائد المال، وغادر القاضي المستشار ظهر السفينة كأنه مندهش لحالة الشاب المحزنة.

- أين هو دير مونْشكي؟ - سأل سيماوْ مارْيانا.

- هناك، سيد سيماوْ - أجابته، وهي تُشير إلى الدير، الذي يطلّ على ضفة نهر دورو، في ميرْغايا. شبك سيماوْ يديه، ورأى من وراء قضبان المَرْقب شبحاً يتحرك.

كانت تيريزا.

كانت قد توصَّلت عشية ذلك اليوم بوداع سيماوْ، وردَّت على وداعه فبعثت إليه بضفيرة من شعرها.

ومع حلول ليل ذلك اليوم، طلبت تيريزا أن تتناول أسرار الاعتراف والقربان المقدس والمسحة عند شباك المصلى، حيث وصلت وهي تتكأ على خادمتها. ثم قضت جزءاً من ساعات الليل تجلس قرب مصلى عمّتها، التي ظلت تصلي طوال الليل. طلبت

أحياناً أن يأخذوها إلى النافذة المطلّة على البحر، ولم تكن تشعر بالبرودة التي يحملها النسيم. كانت تتحدث بهدوء مع الراهبات، وودّعتهن جميعاً، واحدة واحدة، تمشي على رجليها لتزور كل الراهبات اللواتي لا يستطعن مغادرة غرفهن وتقبّلهن قبلة الوداع.

وحاولن جميعاً أن يبعثن فيها الأمل والحياة، فتبتسم تيريزا، دون أن تردّ على تلك الخدع الوقورة التي كانت تلجأ إليها تلك الأرواح الطيبة وهي تريد أن تتظاهر أمامها بالأمل. ومع بزوغ يوم جديد، قرأت تيريزا رسائل سيماوْ بوتيلْيو واحدة واحدة. وحرَّكت عواطفها تلك التي كتبها على ضفاف نهر مونْديغو فانهمَرَت دموعها غزيرة من عينيها. كانت تلك الرسائل أناشيد للسعادة الموعودة: كانت تمثّل كل شيء جميل يستطيع أن يقدِّمه قلب إنسان عندما يُجَمِّل الشعرُ العشقَ بألوانه وتمنحه الطبيعةُ الجميلة والملهمة غطاءها. فخطرت على بالها، حينئذٍ، ذكريات حية لتلك الأيام الخوالي: فرح مجنون، حزن عذب، آمال تتلاشى حنيناً، حوار صامت مع أخت سيماوْ العزيزة على قلبه، سماء تفوح عطراً يحمل رغباتها الغامضة، وكلّ ما يذكره التعساء.

ثم حزمت الرسائل مرة أخرى، وأوْثَقتْها بشرائط حريرية شُدَّت بها باقات أزهار ذابلة، كان سيماوْ قبل عامين قد ألقى بها إلى غرفتها عبر النافذة.

وكانت بتلات الأزهار تتناثر متفرقة، فتأمّلتها تيريزا، وقالت: «إنها مثل حياتي...» ثم بكت وهي تقبِّل أكمام الزهر الأولى التي تلقتها.

سلَّمت الرسائل إلى كونْستانْزا، ثم كلَّفتها بمهمة تتعلق بتلك الرسائل، سوف نرى كيف قامت بإنجازها.

بعد ذلك، ذهبت لتصلي، وظلَّت جاثية على ركبتيها لنصف ساعة، ونصف جسدها متكأ على كرسي. نهضت، كأنّ حركة عنيفة قد رجّتها، فقبلت أن تأخذ فنجان حساء، ثم همهمت وهي تبتسم: «هذا لرحلتي...».

عند الساعة التاسعة صباحاً، طلبت من كونْستانْزا أن ترافقها إلى المرْقب، ثم جلست وهي تتوق إلى الموت، فلم ترفع عينيها عن السفينة، التي كانت قد تزوّدت بكل الأشرعة والحبال وتنتظر صعود السجناء.

عندما رأت السجناء يصعدون إلى سطح السفينة مثنى مثنى، وقع لتيريزا حادث قصير انطفأ خلاله نور عينيها الضعيف، وبدا أنّ يديها المتشنجتين حاولتا أن تتمسكا بالضوء الهارب.

حينئذٍ رآها سيماوْ بوتيلْيو.

وفي الوقت نفسه دنا زورق من السفينة، وعلى متنه كانت تلك المتسوّلة من فيزيوْ تسأل عن سيماوْ وتناديه. فذهب إلى البوّابة ومدّ يده إلى المتسولة، وأخذ منها رزمة الرسائل. لاحظَ أن أول رسالة لم تكن من رسائل تيريزا، نظراً إلى ورقها الأملس، لكنه لم يفتحها.

وسُمع صوت ينادي برفع المرساة وإطلاق الحبال. فاتكأ سيماوْ على جانب السفينة، وعيناه تحدقان في المَرْقب.

ورأى منديلاً يُلوِّح فردَّ عليه بالإشارة نفسها. ثم دخلت السفينة في البحر ومرّت أمام الدير. ورأى سيماوْ بكلّ وضوح وجهاً وذراعين معلّقين إلى قضبان نافذة حديدية. لكن، هل كان ذلك هو

وجه تيريزا؟ ألم يكن وجه جثة صعدت من رواق الدير إلى المرقب، وعظامها لا تزال مليئة بعقابيل القبر؟

- هل تلك هي تيريزا؟ - سأل سيماوْ مارْيانا.

- نعم، يا سيدي، إنها هي - قالت تلك المخلوقة السخية بصوت مكتوم، وهي تسمع قلبها يقول إن روح المحكوم عليه لن يتأخر كثيراً في الالتحاق بمَن كانت سبباً في ضياعه.

وفجأة توقفت إشارة المنديل الملوح في المرقب، ولمح سيماوْ حركة سريعة تلاها اختفاء تيريزا وشبح كونْسْتانْزا، التي لَمَحها بعد ذلك.

توقفت السفينة أمام سوبْريراشْ. لاحت في أفق مدخل المرفأ سحب كثيفة وهاجت أمواج عاتية فقرَّر القائد تأجيل الرحلة المعلنة. بعد ذلك، خرج من فوشْ مركب يحمل القائد الأول، الذي أمر بإرساء السفينة حتى إشعار آخر. ثم أُجلت الرحلة إلى اليوم الموالي.

في أثناء ذلك، كان سيماوْ بوتيلْيو، كأنه جثة محنطة، تلمع عيناها الاصطناعيتين مركّزة في ثبات على نقطة محددة، يحاول أن يخترق بنظراته ظلام المرقب. فلم يرَ أيّ إشارة تنمّ عن الحياة. ومرَّت الساعات متوالية، حتى انطفأ آخر شعاعٍ من أشعة الشمس على قضبان الدير.

ومع حلول الظلام، عادَ القائد من البرّ، ونظر بعينين مغرورقتين إلى ذلك المَنْفِي، الذي كان يتأمّل النجوم المتلألئة فوق سماء المرقب.

- أتبحث عنها في السماء؟ - قال البحار.

- أتسألني إن كنت أبحث عنها في السماء!؟... - كرر سيماوْ بطريقة آلية.

- نعم... لا بد أنها في السماء.

- مَن، يا سيدي؟

- تيريزا.

- تيريزا!... هل ماتت!؟

- لقد ماتت، هناك، في المرقب، حيث كانت تُلوِّح.

فانحنى سيماوْ على جانب السفينة، وحدَّق بعينيه في المياه الجارية. مدَّ إليه القائد ساعديه، وقال:

- تشجَّع، أيها التعيس، تشجع! إن رجال البحر بدورهم يؤمنون بالله! أتمنى أن تفتح لك السماء أبوابها وهي تستجيب لدعوات ذلك الملاك!

كانت مارْيانا على بعد خطوة خلف سيماوْ، وهي ترفع يديها.

- لقد انتهى كل شيء!... -همهم سيماوْ- ها قد أصبحتُ حراً طليقاً أمام الموت... سيدي القائد -تابع كلامه بقوة- إنني لن أنتحر. اتركني.

- إنني آمرك أن تنسحب إلى غرفتك. سريرك يوجد قرب سريري.

- هل من الضروري أن أنسحب؟

- بالنسبة لك، يا سيدي، ليس هناك من أمر ضروري، إنني أتوسل إليك وأطلبك، لا أجبرك.

- أنا ذاهب، وأشكرك على ما أبديته نحوي من شفقة ورأفة.

وتبعته مارْيانا بتلك النظرة الحزينة والعطوفة، كأنها جاوْ، عندما

ينزل الشاعر من السفينة، حسب ما يقوله الراوي بحماس في ملحمة كامويْشْ[1].

فالتفت إليها سيماوْ، وقال للقائد:

- وماذا عن هذه الشقية؟

- يمكنها أن تتبعك... - قال ذلك البحار العطوف، المؤمن بالله.

فآوى سيماوْ إلى سريره، وجلس البحار قبالته، وبقيت مارْيانا في عتمة الغرفة تبكي.

- تكلم، سيد سيماوْ! -قال القائد- خفِّف عن نفسك بالكلام وابكِ.

- لقد بكيتُ، يا سيدي.

- لم أتصوّر قط غمّاً يضاهي غمّك. لم يبتكر الإبداع البشري بعدُ لوحة أكثر فظاعة من هذه. إن شَعْري ينتصب، رغم أنني عاينتُ مشاهد فظيعة في البرّ وفي البحر.

وكان القائد يحاول عمداً أن يحمل سيماوْ على أن يتكلّم ليخفف عن نفسه، لكن المحكوم عليه لم يكن يُجيب. كان يسمع مارْيانا تنتحب، وعيناه مسمرتان على حزمة الرسائل، التي وضعَها فوق طاولة أمامه.

ثم تابع القائد كلامه:

- عندما أخبروني في ميرْغايا بموت تلك السيدة، طلبتُ من

---

(1) إشارة إلى مقطع من **اللوزْيادة** (1572)، وهي ملحمة وضعها لويشْ دي كامويْشْ في عشرة أناشيد تتغنى بتاريخ البرتغال وأمجاده. (المترجم)

شخص له علاقة بالدير أن يأخذني لأستمع إلى إحدى الراهبات وهي تحكي تلك القصة الحزينة. فحكَتها لي؛ رغم أن أنينها فاقَ كلماتها بكثير. علمتُ أن تيريزا، عندما اقتربت السفينة من أويْرو، كانت تصيح بأعلى صوتها: «سيماوْ، وداعاً، إلى الأبد!»، ثم سقطت بين ذراعَي إحدى الخادمات. صاحت الخادمة، وتبعتها أخريات إلى المرقب، وحمَلْنَها شبه ميتة نحو الأسفل، أو ميتة، إن صحّ التعبير، لأنها لم تعُد لتنبس بكلمة أخرى بعد ذلك. ثم حكَت لي أنها عانت وقاسَت لمدة سنتين وتسعة أشهر في ذلك الدير، وحدّثتني عن الحب الذي كُنتَ تكنّه لها، وآلاف المرات التي ذاقت فيها الموت كلّما هجرها الأمل. يا لها من فتاة شقية، ويا لك من شابّ تعيس، يا سيدي!

- لن تدوم تعاستي طويلاً... - قال سيماوْ، كأنه يحدّث نفسه، أو كأن خياله الخاص يحاوره.

- أظنّ ذلك، أظن أن تعاستك لن تدوم طويلاً -تابع القائد قوله- لو أنّ الأصدقاء يمكنهم أن ينقذوك، يا سيدي، فسأزوّدك بأصدقاء في الهند أكثر إخلاصاً ووفاء من أصدقائك في البرتغال. وأعدكَ بشرفي أنني سأحصل من نائب الملك أن تبقى في غويا[1] وتُقيم فيها. أعدك بحياة كريمة تتوفّر فيها كلّ شروط الراحة الممكنة في آسيا. فلا تخشَ المنفى، سيد سيماوْ. عِشْ حياتك، حاول أن تكون قوياً، وستنال السعادة.

- كفى كلاماً، وارحمني، يا سيدي... - قاطعه المنفي.

- أعرف أنه من السابق لأوانه التخطيط لأيّ مستقبل. اعذرني

---

(1) مستعمرة برتغالية سابقة في الهند. (المترجم)

عن هذا التعاطف الذي نشأ عن فضولي، لكن أرجو أن تتقبل صداقتي في أوقات المحنة هاته.

- إنني أقبلها، وما أحوجني إليها... مارْيانا! -صاح سيماوْ- تعالي، إنْ سمح بذلك هذا الرجل النبيل.

دخلت مارْيانا إلى الغرفة.

- هذه المرأة كانت هي الرعايةُ التي شملتني بحمايتها -قال سيماوْ- لأنها أنقذتني، فلم أذق طعم الجوع لمدة سنتين وتسعة أشهر من السجن. باعَت كلّ ما كانت تملك لتعيلني وتكسيني. وها هي الآن ذاهبة معي. أرجو أن تحظى باحترامك وتقديرك، لأنها طاهرة كما يجب أن تكون الحقيقة طاهرة على شفتي إنسان يحتضر. لو مُتُّ، سيدي القائد، فتقبل مسؤولية حمايتها بفضلك كما لو كانت شقيقتي. وإن أبدَت رغبتها في العودة إلى الوطن، فكُن حاميها في رحلتها وسفرها - ثم قال له بقوة وهو يمدّ نحوه يديه: - أتعدني بذلك، يا سيدي؟

- أقسم لك بذلك.

ثم اضطرّ القائد ليصعد إلى ظُلّة مؤخرة السفينة، تاركاً مارْيانا رفقة سيماوْ.

- إنني مطمئن على مستقبلك، يا صديقتي.

- لقد كنتُ دائماً مطمئنة على مستقبلي، سيد سيماوْ - أجابته.

ولم يتبادلا كلاماً لمدة طويلة. فأسند سيماوْ جبينه إلى الطاولة، وشدّ صدغيه المعقوفين بيديه. وكانت مارْيانا واقفة إلى جانبه، تحدّق بعينيها في ضوء المصباح الخافت والمتأرجح، وهي تفكر، مثله، في الموت.

وكانت ريح الشمال تُصَفِّر في صواري السفينة كأنها أنين.

خاتمة

عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، انسحب القائد إلى سريره، وجلست مارْيانا على الأرض، تضع وجهها بين ركبتيها، فبدت منهارة أمام حزن ساعات ذلك اليوم العسيرة والمؤلمة.

وكان سيماوْ بوتيلْيو مستيقظاً، ومنبطحاً في غرفته، يشبك ذراعيه فوق صدره، ويحدِّق بعينيه في الضوء المتراقص المعلق على أحد الأسلاك. وأصَخَّ السمع لهزيم العاصفة التي كان يصله صفيرها كأنه أنين شكوى، والصوت الوحيد الذي يشقّ صمت السماء والأرض.

وعند منتصف الليل مدَّ سيماوْ يده المرتعشة إلى حزمة الرسائل التي بعثتها إليه تيريزا، وتأمّل قليلاً تلك الرسالة التي كانت فوق أعلى الكومة. فتح الظرف واتخذ لنفسه وضعاً كي يصله ضوء المصباح الباهت.

كانت الرسالة تقول:

«إن روحي هي التي تحدِّثك الآن، يا سيماوْ. لقد ماتت حبيبتك. حين ستقرأ هذه الرسالة، ستكون حبيبتك تيريزا المسكينة

قد خلدت إلى نومها الأخير، إن لم يخدعني الرب.

كان عليّ أن أجنبك هذا العذاب الأخير؛ ما كان عليّ أن أكتب إليك، لكن اغفر لزوجتك في السماء هذا الخطأ، وما أشعر به من سلوى وأنا أتحدث إليك في هذه الساعة، ساعة نهاية ليل حياتي.

مَن سيخبرك بموتي، إن لم أنعيك موتي، يا سيماوْ؟ بعد قليل، سوف يغيب هذا الدير عن ناظرك؛ ستقطع آلاف الأميال، ولن تجد في أيّ مكان من العالم صوتاً يقول لك: إن الشقية تنتظرك في الآخرة، وتطلب من الرب أن يشفع لك.

لو استطعْتَ أن توهم نفسك، يا حبيبي، فهل تفضِّل أن أكون على قيد الحياة أحتفظ بأمل رؤيتك من جديد بعد أن تعود من المنفى؟ يمكن أن يكون الأمر كذلك، لكن، في هذه اللحظة المهيبة، تتملّكني الرغبة في أن أقنعكَ بأنني لن أستطيع أن أعيش، لأنّ الشقاء أحياناً يتغطرس ليكشف عن وجهه حتى يبلغ مداه. أريدك أن تقول: إنها ميتة، ولقد ماتت لأنني جرَّدْتُها من آخر أمل في الحياة.

هذه ليست شكوى، يا سيماوْ، إنها ليست كذلك. ربما أستطيع أن أقاوم الموت لبضعة أيام، لو بقيتَ هنا، لكن، بشكلٍ أو بآخر، سيكون أمراً حتمياً أن أغمض عينيّ لو انفكّ آخر خيط، هذا الذي بدأ يتقطّع، وأنا بنفسي أسمعه.

لن تزيد هذه الكلمات من محنتك. وقاني الله من أن أضيف إلى حنينك عذاب ضمير ظالم!

ليتني أستطيع أن أراك وأنت لا تزال سعيداً في هذا العالم، ليت الله ينعم على روحي بهذه الرؤية!... سعيداً، نعم، يا حبيبي، أيها

المحكوم المسكين!... وعن غير قصد، قد يهينك الآن حبي إن اعتبرك قادراً على السعادة! ربما ستموت من الحنين إن لم تقتلك أجواء المنفى قبل أن تنهار بسبب آلام الروح.

قد تكون الحياة جميلة، يا سيماوْ، لو عشناها كما كُنتَ تصوِّرها لي في رسائلك، التي قرأتُها قبل قليل! إنني أرى ذلك البيت الجميل الذي تصفُه قبالة كُويمْبْرا، تحفّه الأشجار، والورود، والطيور. كان خيالك يرحل بي إلى ضفاف نهر مونْديغو عند ساعة الغروب الحزينة. كانت السماء تتلألأ نجوماً، والبدر يلمع فوق سطح الماء. أردُّ على صمتك بقلب أخرس لا ينطق، فتحفّزني ابتسامتُك لأضع وجهي على صدرك، كما لو كان صدر أمي. كنتُ أقرأ كل هذا في رسائلك، فيبدو كأن قلق الاحتضار يتوقف ما إن تستسلم الروح للتذكر. وفي رسالة أخرى، كنتَ تحدّثني عن مجد اسمك وما ينتظره من نجاح وخلود. فأنساقُ وراء طموحك، أو أسبقه، لأنني كنتُ أريد أن أساهم بأكبر قدر من متعك الروحية. قبل ثلاث سنوات، كنتُ طفلة صغيرة، يا سيماوْ، ولكني كنتُ أدرك تلهّفك للمجد، فأتخيّله وقد تحقّق كأنه فعل من أفعالي، لو قلتَ لي، كما كنت تقول عدة مرات، إنك لن تكون أي شيء من دون حافز حبي.

آه، يا سيماوْ، ما أجمل تلك الجنة البهية التي طُردنا منها! الآن، وأنا أكتب إليك، أنت على وشك أن تلجَ سفينة النفي، وأنا على حافة القبر.

ماذا يهمّنا الموت، إن لم نستطِعْ أن نحقق قط في هذه الحياة ما كنا نحلم به من آمال قبل ثلاث سنوات؟! فهل تطيق الخيبة مع الحياة، يا سيماوْ؟ أنا لا أستطيع. كانت ساعات النوم من النِّعَم

القليلة التي كان الرب يمنحها لي، أما الموت فهو أكثر من حاجة ضرورية، إنه عناية إلهية، وغبطة أنالها من السماء.

وماذا تصنع أنت بالحياة من دون رفيقتك في رحلة العذاب؟ أين ستذهب لتشفي ذلك القلب الذي سحقته هذه البئيسة، دون أن تنسى صورة تلك المرأة الوديعة، التي انساقت عمياء وراء نجم مصيرك المشؤوم؟!

إنك لن تحبّ أبداً. أليس كذلك، يا زوجي العزيز؟ ألن تخجل من نفسك، لو رأيت خيالي مرة يمر بسرعة أمام عينيك وقد جفّت دموعها؟ تألم، تألم من أجل قلب حبيبتك وأسئلتها الأخيرة التي سوف تجيب عنها، وأنت تقرأ هذه الرسالة في أعالي البحار.

ها قد بزغ نور الصباح. سأذهب لأرى آخر فجر في حياتي... آخر فجر في ثمانية عشر عاماً من عمري!

فليبارك فيك الرب، يا عزيزي سيماوْ! وليحفظك الله من احتضار طويل وينجيك من عذابه. إنني أقدِّم للرب كل قلقي كفارة لكلّ خطاياك. وإن أنزلت علي العدالة الإلهية أي عقاب، فقدِّمْ للرب ما قاسيْتَه من عذاب كي يشملني برحمته ومغفرته.

وداعاً! يبدو لي أنني أراك تحت ضوء الخلود، يا سيماوْ!»

نهض المنفي، وجالَ ببصره من حوله ثم حدّق مندهشاً في مارْيانا، التي كانت ترفع رأسها كلما قام بأدنى حركة.

- ماذا بك، سيد سيماوْ؟ - قالت، وهي تنهض.

- هل كنتِ هنا، يا مارْيانا؟ ألن تذهبي لتنامي؟!

- لن أذهب، لقد سمحَ لي القائد أن أبقى هنا.

- لكن، هل ستقضين الليل هكذا؟ أرجوك أن تذهبي، تضحيتك ليست أمراً ضرورياً.

- إن لم أكُن أزعجك، فدعني لأبقى هنا، سيد سيماوْ.

- ابقي، ابقي هنا، يا صديقتي... هل يمكن أن أصعد إلى سطح السفينة؟

- هل تريد أن تصعد إلى سطح السفينة، سيد سيماوْ؟ - سأله القائد، وهو ينزل من سريره.

- هذا ما أريده، سيدي القائد.

- سنذهب معاً.

ضمّ سيماوْ رسالة تيريزا إلى حزمة رسائلها، ثم خرج مترنّحاً. وفي السطح جلس فوق كومة من الحبال، وتأمل مَرْقب مونْشيكي الذي كان يبرز أسود عند أسفل الجبال الصخرية حيث يوجد اليوم شارع ريشْتاوْراساوْ.

كان القائد يتجوّل بين مؤخرة السفينة ومقدّمتها، لكن سمْعَه كان مركزاً على حركات المنفي وسكناته. كان يخشى أن يكون المنفي قد عزم على الانتحار لأنّ مارْيانا أوحَت له بالشك في هذا الأمر. كان البحار يريد أن يحدِّثه بكلمات عزاء ومواساة، لكنه قال مع نفسه: «ما الذي يمكن أن يُقال لشخص يعاني بهذا الشكل؟» - ثم كان يتوقف بجانبه من حين إلى آخر، كأنه يريد أن يصرف فكرَه عن ذلك المرقب.

- أنا لن أنتحر! -صاح سيماوْ بوتيلْيو فجأة.- إذا كنت بنبلك وكرمك حريصاً على أن أعيش، فنَم ليلك مرتاحاً مطمئناً، فأنا لن أنتحر.

- لكن، ألا تعتبرُني جديراً بأن تتفضّل وتنزل معي إلى الغرفة؟

- سأذهب معك، لكني أعاني أكثر هناك، يا سيدي.

لم يردّ عليه القائد، وظلَّ يتجول فوق سطح السفينة، رغم هبات الريح القوية.

كانت مارْيانا مختبئة بين رزمات الشحن، على مقربة من سيماوْ. رآها القائد، تحدَّث معها وانسحب.

عند الساعة الثالثة صباحاً، شدَّ سيماوْ بوتيلْيو بيديه رأسَه، الذي كاد ينشقّ وقد ألهَبَته الحمى. لم يستطِع أن يبقى جالساً، فترك نصف جسده ليسقط. انحنى رأسُه واستراح فوق صدر مارْيانا.

- إن ملاك الرأفة والرحمة معي! -همهم- تيريزا كانت أكثر شقاء...

- هل تريد أن تنزل إلى الغرفة؟ - قالت مارْيانا.

- لن أستطيع... أسنديني، يا أختي.

سار بضع خطوات نحو السلم، ثم ألقى نظرة أخرى على المرقب. نزل عبر السلم المنحدر جداً، وهو يتمسّك بالحبال. ارتمى فوق السرير، وطلب ماء، عبّه بنهم. تلت ذلك حمى، وتشنج، ونوبات قلق يتخلّلها هذيان.

في الصباح، جاء طبيب إلى السفينة، بطلبٍ من القائد. فحص المحكوم عليه، وقال إنّ الحمى خبيثة، وأن المريض يمكن أن يلاقي حتفه في طريقه نحو الهند.

سمعت مارْيانا توقعات الطبيب، ولم تبكِ.

عند الساعة الحادية عشرة، غادرت السفينة المرفأ؛ وانضاف دوار البحر إلى غثيان المرض. وأمام إلحاح القائد، كان سيماوْ يشرب الأدوية التي سرعان ما يتقيّأها بعُنف وتشنُّج.

في اليوم الثاني من الرحلة، قالت مارْيانا لسيماوْ:

- إنْ مُتَّ يا أخي، ماذا سأفعل بتلك الرسائل التي تحتفظُ بها في العلبة؟

يا له من هدوء في طرح هذا السؤال!

- إن مُتُّ في أعالي البحر -قال- فألق، يا مارْيانا، بها وبكلّ أوراقي في الماء، كل شيء، ارمِ أيضاً تلك الرسائل التي توجد تحت وسادتي.

داهمت سيماوْ غصّة كرب فخفَت صوتُه، لكنه تابع قائلاً:

- ما الذي تنوين القيام به إن أدرَكَتْني المنيَّة، يا مارْيانا؟

- سأموت، يا سيدي.

- ستموتين؟! آه كم صنعتُ من الأشقياء!...

اشتدَّت الحمى. وصارت علامات الموت بادية للقائد، الذي اعتاد طوال تجربته أن يرى مئات المحكومين بالنفي يهلكون بسبب حمى البحر وانعدام الدواء والعناية الطبية.

في اليوم الرابع، وبينما كانت السفينة تمرّ قرب كاشْكايْشْ، هبَّت عاصفة مفاجئة. فتاهت السفينة على بُعد عدة أميال في عرض البحر، فقدت اتجاه لشبونة وهامت ضائعة دون وجهة. وفي اليوم السادس من هذه الرحلة العشوائية، وسط ضباب كثيف، تكسَّرت دفة السفينة قبالة جبل طارق. وبعد هذه الكارثة، سكنت الرياح، وهدأت الأمواج، وبزغ مع طلوع الفجر الجديد يوم ربيعي جميل. كان هو اليوم السابع والعشرين من مارس، والتاسع منذ أن أُصيب سيماوْ بوتيلْيو بذلك المرض.

وشاخت مارْيانا كثيراً، فنظر إليها القائد، وصاح:

- يبدو كأنك تعودين من الهند بعد قضاء عشر سنوات من المتاعب والمعاناة!...

- لقد انتهت... فعلاً... - قالت.

ومع حلول ليل ذلك المساء، بدأ المحكوم عليه يهذي لآخر مرة، وكان يقول وهو في هذيانه:

«البيت الجميل قبالة كُويمْبْرا، تحفه الأشجار، والورود، والطيور. كنتِ تتجولين برفقتي على ضفاف نهر مونْديغو عند ساعة الغروب الحزينة. كانت السماء تتلألأ نجوماً، والبدر يلمع فوق سطح الماء. أردُّ على صمتكَ بقلب أخرس لا ينطق، فتحفزني ابتسامتكَ لأضع وجهي على صدرك، كما لو كان صدر أمي... آه، يا سيماوْ، ما أجمل تلك الجنة البهية التي طُرِدْنا منها... لقد ماتت حبيبتك... تيريزا المسكينة...

وماذا تصنع أنت بالحياة من دون رفيقتك في رحلة العذاب؟... أين ستذهب لتشفي ذلك القلب الذي سحقته هذه البئيسة؟ ها قد بزغ نور الصباح. سأذهب لأرى آخر فجر في حياتي... آخر فجر في ثمانية عشر عاماً من عمري. قدِّم للرب ما قاسيْتَه من عذاب كي يشملني برحمته ومغفرته... مارْيانا...».

دنت مارْيانا بسمعها من شفتي المحتضر البنفسجيتين، حين ظنَّت أنها سمعت اسمها:

«سوف تلحقين بنا، وسنكون شقيقيْكِ في السماء... ستكونين أنتِ أطهر ملاك... إن كنت من هذا العالم، يا أختاه، إن كنت من هذا العالم، يا مارْيانا...».

وكان ذلك الانتقال من الهذيان إلى النوم العميق نذيراً على الاحتضار الأكيد.

مع بزوغ الفجر، انطفأ المصباح. خرجت مارْيانا تطلب ضوءاً، فسمعت أنيناً مصحوباً بحشرجة. ثم عادت وسط الظلام لتتلمّس بذراعيها الممدودين وجه المحتضر، فوجدَت يداً متشنجة، ضغطت بقوة على إحدى يديها، ثم سرعان ما ارتخت واختفى ضغط الأصابع.

دخل القائد يحمل مصباحاً، وقرَّبه من نَفَس المحتضر، فلم يتكدَّر صفاء الزجاج ولو قليلاً.

- لقد مات! - قال.

فانحنت مارْيانا على الجثة، وقبَّلت وجهها. كانت أول قبلة. ثم جثَت بعد ذلك قرب السرير وهي ترفع يديها، ولم تكن تصلي ولم تكن تبكي.

بعد عدة ساعات، قال القائد لمارْيانا:

- لقد حان الوقت لندفن صديقنا المحظوظ... فمن حظ المرء أن يموت عندما يأتي إلى هذه الدنيا بهذا الطالع. اذهبي، سيدة مارْيانا، هناك إلى الغرفة لأنهم سيحملون المرحوم من هناك.

أخذت مارْيانا رزمة الرسائل من تحت المخدة، وبحثَت عن علبة تضمّ أوراق سيماوْ. لفَّت كل شيء في تلك المريلة التي بلّلتها بدموعها يوم أُصيبت بالجنون، ثم شدَّت الرزمة إلى حزامها.

لفّوا الجثة في ملاءة، وحملوها إلى ظهر السفينة.

تبعتها مارْيانا.

ثم جاؤوا بحجر من عنبر السفينة شدَّه أحد البحارة إلى قدمي الجثة بطرف حبل. كان القائد ينظر إلى المشهد بعينين مغرورقتين.

وتأثّر الجنود الذين يحرسون السفينة لهذه الجنازة المهيبة، ثم رفعوا ببرودة قبعاتهم احتراماً للميت.

في أثناء ذلك، كانت مارْيانا متكئة على جانب السفينة، وتبدو كأنها تنظر كالبلهاء إلى ذلك البحار وهو يرجّ الجثة ليشدّ الحجر إلى حزامها.

ورفع رجلان الميت إلى أعلى جانب السفينة وأرجحاه قليلاً قبل أن يلقيا به بعيداً. وقبل أن يُسمع ارتطام الجثة بالماء، رأوا جميعاً كيف ألقت مارْيانا بنفسها في البحر، دون أن يتمكّن أيّ أحد من الإمساك بها.

وبأمر من القائد أنزلوا بسرعة زورقاً وارتمى عدّة رجال لينقذوا مارْيانا.

- أنقذوها!...

رأوها للحظة تحرِّك ذراعيها، ليس لتقاوم الموت، بل لتعانق جثة سيماوْ، التي رمَت بها موجة بين ذراعيها. حدَّق القائد في المكان الذي ألقت فيه مارْيانا بنفسها فرأى المريلة مشتبكة بالحبال، وفوق سطح المياه كانت تطفو كومة من الأوراق، التقطها البحارة ووضعوها في الزورق. كانت، كما تعرفون، رسائل تيريزا وسيماوْ.

من بين أفراد أسرة سيماوْ بوتيلْيو ما زالت تعيش إلى اليوم في فيلا رِيالْ دو تْرازوشْمونتيشْ السيدة ريتا إيميلْيا دا فيغا كاشْتيلو بْرانْكو، أخته المفضَّلة. وتوفي آخر أفراد هذه الأسرة قبل ست وعشرين سنة، وهو مانْويلْ بوتيلْيو، والد مؤلف هذا الكتاب.

مكتبة
t.me/t_pdf
مكتبة
t.me/t_pdf

كاميلو كاشتيلو برانكو

حب الضياع

«كَتبتُ هذه الرواية في مدة خمسة عشر يوماً، كانت من أكثر لحظات عمري قلقاً وعذاباً».

هكذا تحدّث كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو عن **حب الضياع**، أشهر أعماله الأدبية وأعظم رواية حبّ في الأدب البرتغالي الحديث. وقد كان بْرانْكو ينتمي إلى الطبقة النبيلة، لكنه عاش حياة عاصفةً وبوهيميةً، تتجاوز أحياناً حياة أبطال رواياته. كَتَبها داخل زنزانة حيث كان يقضي وراء قضبان السجن عقوبةً بعد واحدة من مغامراته الغرامية التي لا تُعد ولا تحصى.

تحكي هذه الرواية قصة تيريزا الجميلة وسيماوْ المندفع، والخلافات المستمرة بين عائلتيهما التي تقف حاجزاً أمام حبّهما وتمنع زواجهما. بَيْد أنّ العشق الذي يحرّكهما، والذي يزداد قوة مع تضافر العقبات والصعوبات، سرعان ما يؤدّي بهما وبأقاربهما إلى دوّامة مصير مأساوي تعبثُ به يد القدر. فتتوالى الأحداث، بين مواعيد سرية، وعزلة في الدير، وجرائم قتل، وكمائن انتقام... أحداث تجعل من هذه الرواية نصاً كلاسيكياً يندرج ضمن روائع الأدب الأوروبي في القرن التاسع عشر.

t.me/t_pdf

ISBN 978-9953-68-886-2
9 789953 688862

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com